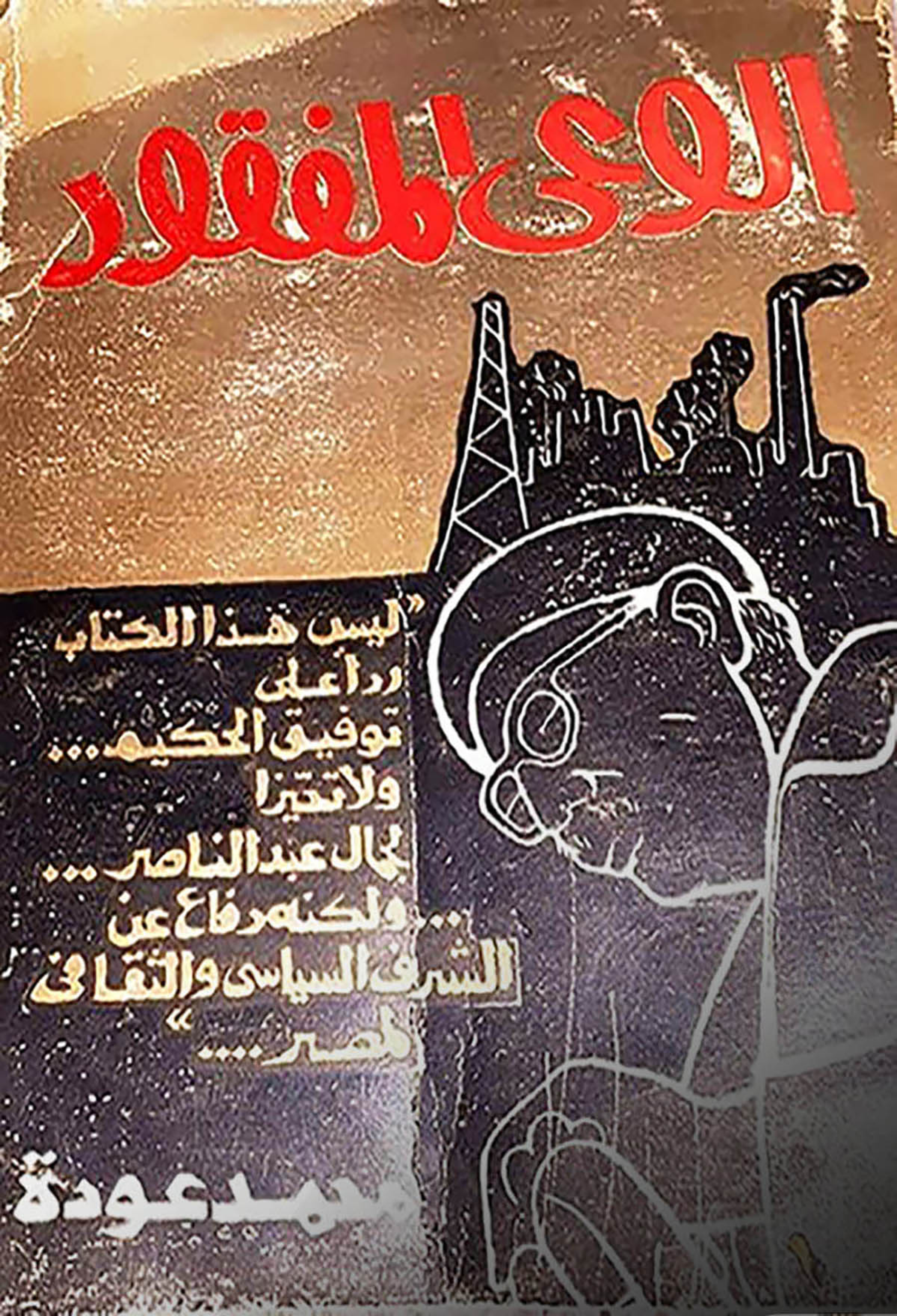

الوعى المفقود
"ليس هذا الكتاب
ردا على
توفيق الحكيم...
ولا تحيزا
لجمال عبد الناصر...
... ولكنه دفاع عن
الشرف السياسى والثقافى
لمصر..."
محمد عودة

كامل الشكر للأستاذ محمد بدر الدين الكاتب المعروف بجريدة العربى الناصرية

الذى قام بإهداء هذا الكتاب لموقع مجلة الوعى العربى والذى أتاحه للجميع

كما أشكر الأستاذ محمد الشرقاوى صاحب ومدير موقع

مجلة الوعى العربى

http://elw3yalarabi.org

الذى نشر الكتاب كما أمدنى بصفحتين كانتا ناقصتين فى
النسخة السابقة

وقد قمت باستخدام بعض البرامج بإعادة تبييض الصفحات ليسهل طباعتها
وتقسيم كل صفحة فى ورقة وضبط أى ميول فى الصفحات

تحياتى
أشرف السيد الشربينى
https://www.facebook.com/groups/histoc.ar
https://www.facebook.com/histoc
https://histoc-ar.blogspot.com

محمد عودة

الوعى المفقود

القاهرة
للثقافة
العربية

قال الموسيقار الشاب
للمايسترو الكبير
« بالنسبة لتوسكانيني الفنان
فانني أحني رأسي
وبالنسبة لتوسكانيني
الانسان ..»
وخلع حذاءه وانهال عليه

* عن قصة مشهورة *

الفصل الأول

القضية

لا يليق بكاتب أن ينغمس فى عصر إلى آخره . . ويعيش كل أحداثه ، ويبارك كل انجازاته . . ثم يخرج بعد نهايته وبعد قيام عصر آخر يرى أنه نقيضه ، ليعلن أنه سقط ، وأنه فقد وعيه خلال كل العصر ، بهرته أضواء شديدة زائفة وأعمته عن الحقيقة ، ودفعته إلى تمجيد الباطل ، وهو لا يطلب سوى التوبة والغفران . . لقد كانت سقطته كبيرة . . وهو يكفر عنها بأن يعلن أن كل شىء كان دجلاً وعاراً . . وزوراً انطلى على العامة والخاصة معاً .

وذلك ما فعل الأستاذ توفيق الحكيم . وقد أعلن أنه فى المدة ما بين ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ونفس التاريخ عام ١٩٧٢ فقد وعيه تماماً ، ولم يكن يرى حقيقة الأمور ، وأنه استرد هذا الوعى واستعاده

بعد ذلك التاريخ . وعلى أصحاب الشأن أن يعفوا عنه ويسامحوه وبالطبع أن يعتمدوه ووعيه الآن فى يده وهو يستطيع أن يتصرف فيه !

وخلال عصر عبد الناصر كتب توفيق الحكيم قائمة حافلة من الكتب ، ليس منها ما يثبت من قريب أو بعيد أنه فقد وعيه لحظة .

وبعد الثورة بقليل كتب توفيق الحكيم مسرحية (الأيدى الناعمة) عن الأرستقراطية التى خلعتها الثورة ، وكيف تقبلت مصيرها بروح رياضية باسمة .

وخلال فترة عصيبة دقيقة من حياة الثورة كتب توفيق الحكيم مسرحية (السلطان الحائر) عن مشكلة السلطة والحكم ، وهل يكون بالسيف أم بالقانون وبالناس أم بالصفوة . . وكانت حواراً وجدلا بينه وبين الثورة وقائدها . وكان السلطان فى المسرحية نبيلاً متجرداً بفيض إنسانية وبساطة ، ولا يعنيه أو يضنيه سوى الحقيقة والبحث عنها ! !

وفى فترة البحث عن نظرية . . خرج توفيق الحكيم بكتاب قدم فيه نظرية وفلسفة حياة هى (التعادلية) وتدعو للمعادلة والموازنة بين كل شىء بالطبع للافادة من كل شىء .

وفى الفترة السوداء بعد الهزيمة . وحينما ثارت مشكلة الشرعية والأجهزة والبحث عن أسباب النكسة كتب توفيق الحكيم (بنك

القلق) فى شكل جديد سماه (مسراوية) .

ولم تنشر هذه الكتب سراً ولكن مسلسلة وفى أكبر صحف مصر وهى (الأهرام) وطبعت عدة طبعات ودار حولها جدل ونقاش عام ، وشارك فيه الكاتب نفسه وبما يثبت أنه لم يكن قط ذاهلاً هائماً ، لايعى ما حوله .

وفى العصر الذى ينكره ويلعنه الكاتب الكبير أصدر أكثر من عشرين كتاباً — روايات ومسرحيات وتأملات ثم مئات من المقالات والقصص والمسرحيات ومجد فيها أشياء وانتقد أشياء وتغاضى عن أشياء ولكن ليس فيها دليل واحد على فقد الوعى .. أو اهتزازه .

وفى العصر الفاسد ، كان توفيق الحكيم يحتل أرفع مكان يحتله كاتب . بل كان الكاتب المفضل المدلل ، وأكثرهم تدليلاً . . قرأ عبد الناصر كتابة المشهور (عودة الروح) فى صباه . . وتأثر به ، وظل يحتفظ بالجميل ، وحينما طلب أحد الوزراء الكبار فصل توفيق الحكيم لأنه لايعمل طلب إليه عبد الناصر أن يستقيل ، وحينما انتقد بعض الكتاب توفيق الحكيم . وبدأت حملة نقد عليه ، أنعم عبد الناصر عليه بأرفع أوسمة الدولة .

وكان فى وسع توفيق الحكيم من هذا المركز ، لو أراد ، أن يتقدم بكل مايراه انحرافاً وإثماً .. وأن يتشبث ويستميت ويصر على

رأيه ويلح وذلك كأقل ما تقتضى به رسالة الكاتب ذى الوعى والضمير . لا يمكن أن يسكت عشرين عاماً .

وخلال العصر الذى يتبرأ منه توفيق الحكيم تقاضى أعلى الأجور .. نشرت كل أعماله القديمة والجديدة ، وطبعت عدة طبعات ، وتقررت بعض كتبه على المدارس ، مما يعنى عشرات الألوف من الجنيهات ، وقدمت معظم أعماله إن لم تكن كلها فى المسرح والسينما والإذاعة والتليفزيون وبأجور خاصة لم تدفع لكاتب آخر ، وبلغت مئات الألوف من الجنيهات .

وخلال ذلك العصر ، استقر توفيق الحكيم فى المنصب والمكان الذى اختاره وهو جريدة الأهرام لسان جمال عبد الناصر مباشرة ، وأصبح عضواً فى مجلس الإدارة ، ورئيساً للقسم الثقافى ، وهو يضم عدداً من أكبر الكتاب والفنانين والنقاد ، ووفر الأهرام له حرية وطمأنينة لم تتوفر لكاتب آخر ، ولم يكن هناك ما يمكن أن يقف بينه وبين أن يقول كل ما يثقل على روحه وضميره .. بل وكان يستطيع — وهذا أضعف الإيمان — أن يحمل أوراقه ويذهب احتجاجاً على ما لا يحتمل السكوت عنه ، وربما يكتب (رسالة إلى القيصر) كما فعل تولستوى . ولا يصمت عشرين عاماً كاملة .

وحينما مات جمال عبد الناصر ، واعتصر مصر الألم .. وخرجت

تشيعه ، كتب توفيق الحكيم مرثية باكية تمجد البطل الذى ذهب ، وطالب أن يقام له على الفور تمثال فى أعلى مكان «ليظل بيننا دائماً» .. ودفعه أقصى الحماس أن يتبرع من ماله بخمسين جنيها . . وهذا حدث كبير . . وقال بالنص :

أعذرنى ياجمال .. القلم يرتعش فى يدى وليس من عادتى الكتابة والألم يلجم العقل ويذهل الفكر . `

لن أستطيع الإطالة . . لقد دخل الحزن كل بيت تفجعاً عليك لأن كل بيت فيه قطعة منك لأن كل فرد قد وضع فى قلبه لبنة فى صرح بناءك فأنت لم تكن بالزعيم المصنوع سلفاً فى مصنع السياسة تربصاً للفرص بل كنت بضعة من جوهر شعبك النفيس صاغها بيده فى دأب وحدب بعد طول معاناه وانتظار على مدى أحقاب .

فإن بفقدك اليوم يفقد فيك نفسه وثمرة أمله ، لذلك كان هذا الرشد الذى طاش من الرؤوس ساعة سماع نعيك . . أنه ليس مجرد حب لشخصك ، إنما هو الحرص على معنى يعيش به بلدك لقد جسد فيك الشعب صورة حريته . . لقد جعل منك حياً تمثال الحرية لنا . . فاسمح لنا وقد فارقتنا أن نقيم لك تمثالا عالياً فى ميدان التحرير ليشرف على الأجيال ويكون دائماً رمز الآمال ، وما ينبغى أن تقيم هذا التمثال سلطة أو دولة لكنه الشعب نفسه من ماله القليل يقيمه وأنا من بين

هذا الشعب أتقدم اليوم بما أستطيع تقديمه .

هذه الخمسون من الجنيهات أسهم بها إفتتاحاً لقائمة الاكتتاب وما أرخص المال إلى جانب فضلك يا جمال ، وخاصة فى أعياد العلم على الأدباء والعلماء والمفكرين والفنانين ستبقى دائماً فى ذاكرتنا وأنت فى عليين ! .

وهذا كلام يفيض عقلا وعاطفة ووعياً .

ثم تطورت الأمور وتغيرت ، خرجت كل القوى التى خلعها عبد الناصر وقمعها مستأسدة وتعلن أن كل شىء قد انتهى . ومات الرجل الذى كان لا يمثل سوى نفســه و (طغيانه) وبانقضاء عهده لابد وأن يعود كل شىء إلى ما كان عليه . أن تعود السلطة والثروة إلى أصحابها الشرعيين والذين أضيروا ظلماً وعدواناً ثم أن يحاسب أشد الحساب أى من تحمل المسئولية أو شارك من قريب أو بعيد فى (آثام) عهد لم يكن إلا إثماً كبيراً متصلا .. !

ولأول مرة بدأ الهجوم على عبد الناصر فى مصر .. علناً .. وأخذ يسرى . ثم ثار الدفاع عن عبد الناصر وعن عهده وقد عجب الناس واستفزوا أن يعلن هذا الهجوم مبكراً ولـكن بقى توفيق الحـكيم بعيداً لا يشارك .

ثم وقعت أحداث (١٥ مايو) وانشقت صفوف الثورة ..

وحوكم وسجن رجال الجناح الذى نسبت إليه كل سوءات العصر . وتأكد من كانوا يقفون على السور من اتجاه الريح .

ولكن ظل توفيق الحكيم حريصاً واقتضى الأمر عاماً آخر يطمئن ويقرر . وكان الهجوم على عبد الناصر قد أصبح عارماً . وبدعة العصر و (المدخل) إلى أى مغنم أو منصب !

وخرجت عودة الوعى ، وفى البداية ظهرت خفية ، منشور سرى طبعه على الآلة الكاتبة . . ولكن حينما تلقته حلقات وصالونات القاهرة وهللت لانضمام الكاتب الكبير ، اعترف به وتباهى .

ولم تكن القوى التى شنت الحملة لتحلم أن يغدو كاتبها ومفكرها ، توفيق الحكيم ، ولم تكن لتتوقع أن يكتب لها بيانها وعريضة (دعواها) ولذا انتشرت النفايات اليمينية واليسارية تحمله وتوزعه وتصفق إعجاباً !

ولم يكن توفيق الحكيم ليملك الشجاعة ليطبعه فى كتاب وينشره فى مصر وليحتكم إلى الجماهير . . ولكنه بعث به إلى لبنان .. وهناك قامت سوق تشهير واسعة سلعتها الوحيدة والثمينة هى مهاجمة عبد الناصر . وتدفقت أموال الرجعية العربية للثأر من (ذكرى) الرجل الذى أذاقها المرار وزلزل الأرض تحت أقدامها . ولم يفت توفيق الحكيم أن يطلب أغلى ثمن دفع فى كتاب عربى . لأن الكتاب

فى رأيه ، وكما قال صراحة للناشر (عمل سياسى لا يقدر بثمن) .

وقد صدم كثيرون .. صدمة حياتهم ، كان الكتاب الذين تدافعوا للهجوم على عبد الناصر كتاباً موصومين لا يستغرب أحد شيئاً يصدر عنهم ، وهم قد مجدوا عبد الناصر ، وتغنوا بكل شىء تم على يديه ، تماماً مثلما يندون به وكل شىء حدث الآن وهم على استعداد لأن يكرروا هذا لأى حاكم وفى أى عصر .. وبالثمن . ولكن توفيق الحكيم كان شيئاً آخر فى الذروة .. وربما كان من حقه ، بل وكان من واجبه أن ينقد أو أن يقيم ماحدث ، عليه أن يكتب الملحمة كاملة لثمانية عشر عاما عاصفة . وأن يكمل (رحلة الروح) بعد أن عادت ، وكان هو أول مبشر بعودتها - كما قال - ولكن لم يتوقع أحد أن يقف ليهم العهد كله وأن يصفه بأنه كان محنة .. وأشد المحن ، وأنه قد تورط وتلوث به وأنه يغسل نفسه ويتطهر منه .

لم يكن هناك ابتذال للكاتب والكتابة عامة أشد رخصاً من هذا . لكن بالرؤية الأعمق كان هذا توفيق الحكيم على حقيقته ومجرداً من كل المسوح .

وفى كتاب (يوميات نائب فى الأرياف) وهو واحد من أشهر كتبه وأفضلها يحدد دوره وموقعه ككاتب ، ويقول أنه المتفرج

خلف منصة بعيدة آمنة (إنى بطبعى لا أصلح إلا لملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة) وهو يرى الأحداث مهما كانت كفيلم سينمائى أو شريط تسجيل لا يشترك فيه ولا ينحاز لشىء فيه ، ولكى يتسلى به ويبدد ملله وهمومه الذاتية ، وهو لا يكتب لأنه لابد أن يكتب وأن هناك قضية يريد أن يرفعها وأن يكسبها . . كلا (لماذا أدون حياتى فى يوميات ألأنها حياة هنية ؟ كلا . . أن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها بل يحياها . .) . (أيتها الصفحات التى لن تنشر ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتى فى ساعة الضيق) كأنه يود أن يكون سعيداً وأن لا يكتب .

وكانت القضية هى قضية مصر بكل مأساتها ، قضية الذين وقعت عليهم كل الوطأة ، والمجنى عليهم فى الجريمة الكبرى . . وفى هذه القضية تقف كل الأدلة واضحة ولا أحد يجهل المتهمين ، ولكن وكيل النيابة الذى عرضها بكل البراعة عرضها كقطعة رفيعة من أدب الجريمة وليس كقضية لابد أن يكشف القاتل ويحاكمه . وهو قد بدد بها بعض السأم ومارس فيها بعض حريته ، وحينما تعقدت وقائعها . قيدها ضد مجهول وأغلق (الملف) .

ومن يرى (القضية) من فوق المنصة وخفية ويرفض أن يكون طرفاً فيها . لا يملك الرغبة أو القدرة على اكتشاف الجانى ،

ويستطيع أن ينام مطمئناً وهو يعلم أنه مطلق السراح .. أن كل مايعنيه هو أمنه وسعادته وحريته ، وفى إحـــدى قصص جوركى كانتّ الكونتيسة داخل المسرح غزيرة البكاء على بطل المسرحية وهو يموت على خشبة المسرح ، وكان سائق عربتها الذى كلفته بالانتظار يموت فعلا من شدة الصقيع . . كان انفصاما لايضاهيه سوى مؤلف (يوميات نائب فى الأرياف) !

وقد انتقل وكيل النيابة بعدئذ إلى القاهرة ، ولم تبق من كل المأساة التى عاشها سوى ذكريات (سياحية) . لم تصبح إحدى قضايا حياته . . ولكن حلماً مؤلماً . . استيقظ منه ونسيه بعد أن كتبه !

وأفضل تعليق عليها ما أورده توفيق الحكيم نفسه بأن ناقداً فرنسياً يسمى أدمون فرنانديز كتب بعد قراءة يوميات نائب فى الأرياف « أن القارىء لهذا الكتاب ينسى فى أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التى حركت المؤلف لوضع كتابه بل أن القارىء يتمنى أن لا يتغير شىء فى عالم هذه المخلوقات الإنسانية » .

مجرد قطعة أدبية فنية للسياح « الفكريين » الأجانب .

ومن أشهر كتب توفيق الحكيم وأكثرها تأثيراً على الشباب فى وقت ما (عصفور من الشرق)، وهو الجزء الثالث من أهم أعماله (عودة الروح) .

وقد ذهب (محسن) الشاب المصرى ابن ثورة ١٩١٩ والذى تفتح وعيه عليها وفى خضمها . ذهب إلى أوروبا ليستكمل رحلة البحث ، لقد رأى مصر تنزل كلها إلى الشارع لأول مرة ولتنتزع حريتها وتستردها ، كان صغيراً يعيش كل شيء ويحسه . . وبقى أن يفهمه وأن يكتشف دوره .

وبعد رحلة عسيرة طويلة فى الغرب انتهى (محسن) إلى أنه لابد أن يعود إلى مصر لا ليكمل الثورة التى رأى أعمامه وأخواله وأهل الحى جميعاً يشتركون فيها . ولكن لينطوى على نفسه ... أن الخلاص فى داخلنا وأن النجاة هى فى العودة إلى الماضى ، إلى روحانية (الشرق) التى بددها والتى لابد أن ننقذها ، لتنقذنا .

وينتهى العصفور بملحمة بليغة يلقيها روسى أبيض (إيفان) هرب من الثورة فى روسيا ولاذ بباريس . وانتهى بعد محاورات ومجادلات بينه وبين عامل فرنسى (راديكالى) ، (هنرى) .. وبين محسن إلى أن الخلاص والحل الصحيح والوحيد هو فى الرجوع إلى الشرق .. فى روحانياته ومثالياته .

أن مأساة العصر . ومأساة الغرب . هى المادية التى جرفته ، أن كل الإضرابات والاعتصامات وكل الحروب والأزمات وكل الأمراض التى تفتك بالمجتمع الأوروبى وبالعالم المعاصر ، لا تكمن

فى الاستعباد أو الاستغلال وقهر المستعمر المستعمرين أو المستغل المستغلين ولكنه نتيجة لتدهور القيم ، ولطغيان المادية على الروحانية ، ولا بد لهذا أن نرتفع ونتسامى جميعاً ، لا بد أن يعيــــد الشرقيون اكتشاف تراثهم ودياناتهم ويلوذوا بها ، وأن يلقنوها للغربيين وينقذوا روحهم .. لا بد أن نعلو بأنفسنا وبالحياة وأن على (محسن) أن يعود إلى وطنه ، إلى الشرق وإلى ماضيه . . وهناك سوف يجد نفسه وخلاص أهله وشعبه . . لا بد أن ينجو من الغرب وماديته وأن ينقب ويعيد اكتشاف خفايا وطلاسم الشرق .

(آه ياصديقى .. يا أخى أن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلا قلقاً حائراً يتعاطى الأفيون ، إن جان كوكتو هو كل أوروبا فى أزمتها الحاضرة .. انتهت أوروبا ولا شىء من داخلها يستطيع إنقاذها) — (إنما الإنقاذ من الخارج ... وإنما النجاة فى الفضاء . . إلى هناك إلى الشرق . . قم معى إلى الشرق . . افتح هذه النافذة . . دع الهواء يدخل) .

(إنى أعجب الإعجاب الخالص بالأديان ، ولكن الذى أريد ليس مجرد الإعجاب كما نفعل أمام قطعة فنية من عمل عظماء الفن والأدب والفكر ، لست أريد الإعجاب الناشىء عن آلاتنا المفكرة وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة . . وإنما أريد الإيمان . . إيمان

القلب .. الإيمان الأعمى بأن المسيح فى السماء وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء وأن الجنة هى الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات طوبى لأنبياء القلب لأنهم يعايشون الله) .

ثم (إن قمم المعرفة البشرية هى مجاهل ذلك العلم الخفى الذى لم يدخل قط عقل أوروبا لأن وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية) .

(سنذهب إلى الشرق أريد أن أرى جبل الزيتون ، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم) .

(هلم إلى المنبع .. إلى المنبع .. إلى هناك) .

وربما كان (إيفان) الروسى رجلا محكوما عليه .. وهو فقد كل شىء ولم يعد له مكان ولكن (المأساة) فى (محسن) الذى أراد أن يقول للروسى :

(— مهلا — مهلا أيها الصديق .. أن ذلك النبع الذى تريد أن تراه وتلك الأنهار التى تريد أن تشرب منها قد تسممت كلها ، أن الفتاة الشقراء يوم حقنت نفسها بالمورفين السام لم تترك أبويها سالمين ، لقد قضى الأمر ولم يعد هناك نبع صاف أن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق .. إن رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء

السيارات وقبض المرتبات وتورد الوجنات من النعم والتم ، وأن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية يثير منظره الضحك كما يثير منظر قردة اختطفت ملابس سائحين من مختلف الأجناس وصعدت بها فوق شجرة ترتديها وتقلد حركات أصحابها وأن التعليم العام للقراءة والكتابة وحق التصويت والبرلمان وكل هذه الأفكار الأوربية أصبحت في الشرق اليوم مبادىء ثابتة يؤمن بها الشرقيون إيماناً أكثر من إيمانهم بمبادىء الأديان ، وأنه لمن السهل أن تقنع شرقياً اليوم بأن دينه فاسد ولكنه ليس من السهل أن تقنعه أن الصناعة الكبرى هي عجلة إبليس التي يقود بها الإنسانية إلى الدمار .. وأن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء ، وأنك لا تستطيع اليوم أن تقتلع منه عظمة العلم الأوروبي الحديث وأنه ليس من اليسير أن تسفه عند الشرقي الآن رسالة الأنبياء ولا يمكن أن تسفه لديه رسالة القوة المادية الحديثة !) .

لقد رجع (محسن) الذى كان عليه أن يكمل ثورة أعمامه وأخواله وأهالي حي السيدة . . يستنكر العلم حتى مكافحة الأمية ويرفض الديموقراطية ويراها غريبة (مستوردة) ويندد بالصناعة الكبرى ويراها دماراً . . ويستنكر ارتداء الملابس العصرية ويراها مسخاً . . ويرى أن الزهد قد انتهى وكل الينابيع قد تسممت وأن لا جدوى إلا إذا اعتصمنا في (الإيمان الأعمى) !

عاد (محسن) يؤمن بما قاله له الروسى الأبيض الذى هرب من الثورة . .

(أتعرف ما هو العلم أيها الفتى ، أن العلم علمان . . العلم الظاهر والعلم الخفى ، أن أوروبا حتى اليوم طفلة تعبث تحت أقدام ذلك العلم الخفى . . الذى كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به إلى حقيقة قمم المعرفة البشرية) .

وخلاص مصر هـذا لن يكون باستئناف الثورة . أو باللحاق بحضارة العصر . . ولـكن بالبحث والتنقيب عن العلم الخفى .

وكانت هذه نهاية المطاف وآخر محطة رحلة الروح التى تعود .

وقد بدأ توفيق الحـكيم يكتب فى منتصف الثلاثينات وكانت فترة عصيبة ثقيلة فى حياة مصر والعالم . . كان العالم يسير نحو الحرب العالمية الثانية .

كانت مصر تقاوم مقاومة عنيفـــــة حكومة (صدقى باشا) والديكتاتورية التى تفرضها السراى والاحتلال ، واشترك كل الشعب فى مقاومة إيجابية وسلبية وانتهت بسقوط الحـكم . وقد شهد هذا الـكفاح التصميد السياسى لجيل جديد نما بعد الثورة ، وخرج لأول مرة فى مظاهرات ١٩٣٥ واستخلص معاهدة سنة ١٩٣٦ وأدت إلى قيام نوع من الوحدة الوطنية .

وفى العالم المستعمر ، كان كفاح الحركة الوطنية الهندية يتكلل هناك بفوز حزب المؤتمر فى الانتخابات العامة ويتولى السلطة فى كل ولايات الهند البريطانية لأول مرة فى تاريخها .

وفى الصين ، كان الوطنيون والشيوعيون يتحالفون وينهون الحرب الأهلية بينهم ليواجهوا الاستعمار اليابانى .

وفى سوريا كانت حكومة الجبهة الشعبية تفاوض رجال الكتلة الوطنية لعقد تسوية سياسية . وفى العراق أعلنت بريطانيا استقلال العراق . . تحت وطأة الحركة الوطنية .

وفى العالم كان النظام الرأسمالى والاستعمارى يتهاوى فى كارثة . . كان البناء (المفتعل) الذى أقامته الدول (العظمى) فى فرساى يسقط .

كانت الأزمة الاقتصادية تعم كل اقتصاد الغرب .

وكانت النازية قد سادت فى ألمانيا واستعد الجنس الآرى ليبسط سيادته على العالم لمدة ألف عام . . بزعامة (الفوهرر) .

وكانت الفاشية تتربع فى إيطاليا وتعيد بعث الإمبراطورية الرومانية بقيادة (الدوتشى) وبادئة من ليبيا . . ثم الحبشة .

وكانت العسكرية اليابانية فى السلطة . . وتزحف على الصين ، كمقدمة للاستيلاء على آسيا ، وهى المقدمة للاستيلاء على العالم . .

وكونت ألمانيا وإيطاليا واليابان .. محوراً .. ليعيد صياغة واقتسام العالم فيما بينهم ..

وعلى الطرف الآخر من أوروبا الرأسمالية وأوروبا الفاشستية ، كانت الدولة ذات الأسس والنظم المختلفة والتى تستفزهم جميعاً وهى روسيا السوفيتية .. وكانت قد فرغت من إتمام أول مشروع خمس سنوات وإقامة أول نموذج للاقتصاد الجديد (الاشتراكى) وكانت أيضاً قد دخلت المجتمع الدولى بعد عزلة طويلة وأصبحت عضواً فى عصبة الأمم .

وكان هذا الصراع العالمى منعكساً فى مصر التى تقع دائماً فى مهب الصراعات والتيارات العالمية ، وكان الجيل الجديد الذى ينمو يتابع هذه التطورات والصراعات .. سياساتها واستراتيجياتها وإيديولوجياتها ، وكانت المذاهب الجديدة الماركسية والاشتراكية الديموقراطية والنازية تثير بحثه واهتمامه .. وكان الجيل الجديد يضيق بالوطنية التقليدية وأحزابها وكفاحها المتعثر .. وكان يقيم أحزاباً وتنظيمات وحلقات تمثل إرادة بحث عن طريق الخلاص لانحسار الثورة سنة ١٩١٩ .

كانت مصر تبدأ المخاض الطويل ولم يكن هناك من لا ينصت لآلام الأم ويفكر فى الخلاص .. لم يكن هناك من يستطيع أن يقف بعيداً أو يلاحظ الأمور خفية .

وكان أنسب الأوقات ليلقى توفيق الحكيم دعوته . .

صدر (العصفور) وأعلن نداءه سنة ١٩٣٨ . ولم يعد غريباً لهذا أن يكون توفيق الحكيم كاتباً أثيراً مفضلاً لدى الطبقات والسلطات الحاكمة فى مصر . . ولم يكن غريباً أيضاً أن يقف نائياً متباعداً عن الحركة الوطنية وفرقها الصاخبة المتلاطمة .. وإن لم يمنعه هذا أن يحتفظ فى تعادلية دقيقة بجسور مع الجميع .. ولم يكن غريباً أن يجد توفيق الحكيم مكانه فى النهاية وأن يصبح واحداً من أقطاب كتاب دار (أخبار اليوم) .

ويبدأ قصة جديدة من سجله !

* * *

بعد الحرب العالمية الثانية خرجت الولايات المتحدة من العزلة التى عاشت فيها منذ الاستقلال . . واستعدت لتعلن القرن والعصر الأمريكى .

وضعت الولايات المتحدة استراتيجية كونية ، بحجم الكون كله توحده وتحيطه بالقواعد والأحزمة والأحلاف وتضعه تحت السيادة أو الهيمنة الأمريكية .

وكان الشرق الأوسط يقع فى صدر هذه الاستراتيجية .

ومصر وفق كل القواعد الاستراتيجية القديمة والجديدة هى مفتاح الشرق الأوسط .

ولم تـكن الولايات المتحدة لتجد حليفاً أو وكيلا فى القوى الوطنية أو الثورية التى كانت تطالب بالاستقلال التام وبالتحرر الوطنى والاجتماعى . . ولهذا وقع الاختيار على الملك فاروق . . كان البريطانيون يرون أنه شخصية فاسدة ، لم تعد تصلح لأى دور . . وورثة الأمريكيون .

وكان الملك فاروق ذا طموحٍ لا يحد . . وقد حلم أبوه (فؤاد) ذات يوم أن يكون خليفة المسلمين بعد سقوط الخلافة فى تركيا ، وحلم هو أن يكون (ملك العرب) بعد قيام الجامعة العربية .

وقد حدث بعد صدامه مع البريطانيين فى فبراير سنة ١٩٤٢ أن استفز الجيش المصرى لإهانة (ملك مصر) الذى أقسموا له الولاء . . ومن يومها استغل الحادث ، وأخذ يوطد نفوذه فى الجيش ويريد أن يجعله قاعدته وقوته السياسية فى مواجهة الوفد حزب الشعب .

وكان الملك والجيش هـــذا أفضل أداة يمكن أن تقيم بها الولايات المتحدة حكماً جديداً موالياً يصفى كل الأحزاب والتنظيمات التى تثير القلق والشغب ويحكم حكماً مطلقاً .

واحتاج الأمر إلى منبر جديد واسع النفوذ والتأثير ، ويمجد الملك ويشوه القوى الوطنية والثورية ويلوثها ، ويرسم صورة وردية زاهية ، للمنقذ الجديد الأمريكى .

وصدرت (أخبار اليوم) وقدمت نوعاً جديداً من الصحافة هو صحافة (الإثارة) .

وقد بدأت هذه الصحافة فى الغرب فى منتصف القرن الماضى ، فى أوج الأزمة الاجتماعية لامتصاص تهديد وسخط العمال .. وريقات مثيرة تقرأ بسهولة فى لحظات وتزخر بأخبار الجنس وفضائحه وقصص الجرائم ، ومباريات ومراهنات كرة القدم ، وعناوين حانات البيرة ، ثم مقالا سياسياً قصيراً مركزاً . . ويقرأها العامل فينسى شقاء وعناء حياته ، ويستغرق فى أحلام يقظة تنسيه الإضراب والأحزاب والنقابات . . وفى حالة التخدير تنفذ إليه الآراء السياسية المناسبة لأصحاب الأعمال .

وأضافت صحافة الإثارة الأمريكية الحلم الأمريكى . . الولايات المتحدة أرض الفرص الذهبية وأى مواطن يستطيع أن يكون مليونيراً بل ويستطيع أن يكون رئيس جمهورية ، أن كل السلطة والثروة تحت أقدامه فى هذه الأرض البكر ، وليس الأمريكى فقط هو الذى ينعم بهذا ، بل أن كل محروم فى العالم يستطيع أن يأتى إلى أمريكا وأن يجد بحار العسل واللبن .

كانت (المؤسسة) الحاكمة والمالكة فى مصر أشد ما تكون حاجة إلى أداة كهذه ، وأن تمتص السخط الذى يعم ويتعاظم كل

يوم .. وأن تتحول جموع الشباب وطلائعهم من الإنهماك فى البحث والعمل لخلاص جماعى بالثورة .. إلى خلاص فردى بالنجاح .

كان الإقطاعيون فى فزع متصل من انتفاضات من نوع جديد بدأت بين الفلاحين وتريد أن تنتزع الأرض ، وكان الرأسماليون فى فزع من اضرابات على نطاق لم يعرف فى مصر تتوالى فى المصانع الكبيرة ، وكان الجميع فى فزع من انتشار (المذاهب) الجديدة والمتطرفة . ولدى جيل يبدو مستحيلا قمعه أو إرهابه .

كانت أشد ما تكون حاجة إلى أداة جديدة تجمع كل الأقلام الكبيرة (والحكيمة) لتدفع الشباب لأن يبحثوا فى طريق آخر . فى (الروحانيات) أو فى وسائل الصعود والثراء !

ولهذا لم تكن مجرد صدفة أن يجد توفيق الحكيم نفسه فى دار (أخبار اليوم) .

وفى كتاب عن الهند للمؤلف الأمريكى (مايرون واينر) يقول :

(إن أسطورة الشرق الروحانى ، فى مواجهة الغرب المادى لعبت دوراً رئيسياً ولا تزال تلعبه فى سد وتقليل المطالب القومية والاجتماعية وأن إقناع الهنود أن تراثهم وتاريخهم وطريقة حياتهم مختلفة ومقدسة تقدم أداة مفيدة تماماً فى سد الهوة بين الواقع والواجب ، وفى تقديم بديل عن تحقيق مستوى حياة لائق) !

وخلال المد الثورى الذى صحب ثورة ١٩١٩ ، نفذت الأفكار الاشتراكية على نطاق واسع إلى مصر ، وسواء داخل حزب الوفد الذى كان يقود الثورة أو خارجه وتألفت حلقات وأحزاب اشتراكية ديموقراطية أو ماركسية .

وأفزع هذا الاحتلال الذى كان مفزوعاً بما يكفى من الثورة الوطنية . . وقام الكتاب والفقهاء الرسميون ، ليعلنوا باسم (الدين والتراث) حملة على الاشتراكية (الوافدة) وتزعم أحد مشايخ الطرق الصوفية الحملة وكتب أحد الكتاب فى جريدة الأهرام سنة ١٩٢١ :

« إن ما يطمئن الفقراء فى حياتهم هو إيمانهم بالله وبأن الرزق من عند الله وأنهم إذا صبروا وصابروا فى هذه الدنيا فإن لهم الجنة فى الآخرة .. ولكن الاشتراكية تهز هذا الإيمان وهى لذلك كارثة على النظام الاجتماعى عامة وسوف تحتاج الحكومة إلى أضعاف أضعاف العدد من رجال البوليس والإدارة لرد هذه الكارثة . . ولهذا نهيب برجال الدين أن يهبوا ويقاوموا الوباء قبل استفحاله أنه سوف يقضى على أخلاق الشرق وعلى تراثه . . وهى أخلاق تقوم على الرضا والقناعة والصبر) وقد تصدى للحملة يومئذ كتاب ومشايخ وفقهاء ثوريون واشتراكيون رأوا الاشتراكية هى مقاومة الظلم وإقرار العدل ، وردوا بأن الدين والروحانية فى الإسلام والشرق

لا تدعو لنبذ الحياة أو الزهد فيها ولقبول الظلم بل على العكس هى امتحان لإرادة الإنسان ، وأن تجعل الدنيا صالحة ويسقط فيها الشر ويعم الخير . . وهذا ما تدعو له الاشتراكية .

وكان ذلك فى العشرينات . . قبل أن يكتب توفيق الحكيم بعشرين عاما . . ولابد أنه عاش هذا الجدل والحوار .

واختار موقفه . . عن وعى !

* * *

وفى أخبار اليوم ، أقام توفيق الحكيم فى برج من العاج وهو العنوان الذى كتب تحته (من البرج العاجى) .

أن موقع الكاتب والفنان ، برج سميك لا تنفذ إليه الصيحات والأصوات ، ومهمة الفنان هو الفن مطلقاً ، مجرداً ، والفن فوق كل المشاكل ، وكل الصراعات ، وكل الطبقات ، وليس للفنان أو للكاتب مكان فى الشارع حيث يعيش الناس أو يعانون ، وحيث خرج شعب بأكمله ، مكانه فى أعلى الأبراج وأكثرها أمناً ، ويطل عليهم بين حين وآخر ، ليلقى إليهم بعض (الحكم) أو (العظات) .

وكان قد عرف البرج العاجى وحدد مهمته قبل ذلك ببعض الوقت تعريفاً جامعاً مانعاً قال فيه .

(أتسمع هذه الضوضاء التى ارتفع صـــداها إلى أبراجنا العاجية فأفسدت علينا هدوءنا وتفـكيرنا . . ؟ لعلك قائل معى هى هستيريا السياسة أصيب بها هذا البلد دفعة واحدة ، نعم الأمر لا شك خطير ، ما دام قد استطاع أن يصل خبره إلينا فيؤثر فى أعصابنا وإنتاجنا نحن المعتصمين فى أبراج الفـكر الهادىء وإذا وصل بخار السياسة إلى هذه القمم الباردة فى أمة من الأمم فأنذر إذن بالويل وتنبأ بأن رأس الأمة قد لعب به الداء ... فما رأس الأمة فى حقيقـــة الأمر إلا مفـكروها المجردون ، وأنك لتذكر ما كان من أمر (جوته) شاعر الألمـان يوم زلزلت الدنيا بثورة يوليو الفرنسية فقد دخل عليه صديقه الأديب (اكرامان) يزوره ويتحدث إليه فبادره جوته صائحاً :

— لقد أرسل البركان حممه واشتعلت النار فى كل شىء .

فقال اكرامان :

— نعم أنه لحدث جلل هذه الثورة الفرنسية .

فعجب جوته وقال ساخراً :

— كلا لست أعنى تلك الثورة إنمـا أتـكلم عن تلك المساجلة العلمية التى نشبت فى موضوع أصل الأنواع بين العالمين كوفيه وجفرى سانت هيلير تحت قبة المجمع العلمى » .

« هنا أيها الصديق كل مجد ألمانيا فى الماضى بل كل مجد البشرية العليا أن رعد الثورة وصياح الثوار لم يبلغ صداه أبراج العلم وقمم الفكر ، هذا الرأس قد ظل ثابتاً لم تلعب به السياسة هادئاً لا يتأثر بانقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع فى ميدان العلم والفكر ، ولقد انطفأ فعلا لهب الثورة الفرنسية ومضى بدخانه ورماد أشلائه وبقى رأس جوته شامخاً مضيئاً فى عليائه رمزاً للفكر الإنسانى الخالد » .

« ولهذا . ينبغى أن نتدبر قليلا هذا البلاء خوفاً على رؤوسنا أن يصيبها دوار السياسة فلا تبصر شيئاً فى هذا الضباب الشامل وخشية على الناس أن يتمكن منهم الداء ويغرى الشباب منهم باقتراف الإثم . . . وارتكاب الجريمة » .

هل لك أن تنادى معك من برجك « أيها الناس اتركوا السياسة للساسة ، فإنهم ليسوا فى حاجة إلى حناجركم . . . ولكنهم فى حاجة إلى هدوئكم وانصرافكم لأعمالكم ؟ » ! !

وكانت القضية التى شغلت توفيق الحكيم فى برجه العاجى مع هذا ليست علمية أو روحانية . . ولكن آخر ما يمكن أن يشغل الزاهد المترفع ، وهى المرأة .. والبحث الذى استغرقه وشغل وقته هو هل هى صديقة الرجل أم عدوته وبعد إعمال الفكر خرج بالنتيجة الحاسمة .. أنها عدوة الرجل ، واختار له أصحاب الدار لقباً أصبح شهرته

وهو (عدو المرأة) وأعلن أنه من الآن يفضل صينية بطاطس مطهوة جيداً عن امرأة . . وثار الجدل حول أفضلية صينية البطاطس على المرأة وحول عداوة الرجل للمرأة ، وأصبحت قضايا أدبية واجتماعية رئيسية تشغل القراء خاصة سيدات الصالونات . . ويتابع الكل مساجلاتها على صفحات أخبار اليوم . . وقدمت إضافة جديدة أدبية إلى فن الإثارة . . وأصبح الكاتب الكبير تسلية إن لم يكن (مسخة) للناس .

وتوسع توفيق الحكيم فى الإحاطة بالمرأة . . وخرج برواية (الرباط المقدس) وأصبحت أشهر كتبه فى ذلك الحين ودارت حول الزواج والعشق ، قدسية العلاقة بين الأزواج أو خارج الزواج .

وأثار (الرباط المقدس) جدلا حاداً طويلا ، عن الحب والجنس ، والإخلاص والخيانة وحقوق الزوجة . . وحقوق العشيقة . . والعكس !

وأعاد الكاتب الكبير نشر (براكسا أو مشكلة الحكم) وهى تبحث قضية السلطة . . هل تتولاها المرأة ، وهل تصلح لها ، وهل يسعد الشعب فى ظلها أم لا .

وأعاد أيضاً نشر (شهر زاد) وهى مسرحية يعلن البطل فيها مبتهلا (خالقنا لنعبد أجمل ما فى الحياة . . أى عينى امرأة) .

ولكن رأيه فى المرأة كما كان رأيه فى أشياء كثيرة لا تقل أهمية .

« كثيراً ما يخلط الناس أمر نظرتى وعلاقتى بالمرأة وأنهم ليتهمونى أحياناً بالتناقض إذ يرون أنى أحمل عليها مرة وأشيد بذكرها أخرى والحقيقة أنى فى كلا الحالين أعتقد ما أقول » .

« وجمال المرأة وفتنتها هما فى نظرى أشواكها الحقيقية التى تضع فيها كل سموم سلطانها وسطوتها » .

ولعلها تتهمنى بالمبالغة ولكن هل تستطيع امرأة أن تقول لى أن هناك امرأة فى الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجل . . أنك إذا فتحت رأس امرأة لما وجدت فيها غير هذه الغاية . . السطو على رجل » .

« أن الرجل قد يعيش لعمله أو لفكرته ولكن فكرة المرأة وعملها هو البحث عن الرجل الذى تسلبه لحظاته وكل حياته » .

وهى ليست فكرة عالية أو حتى حقيقية فى بلد كانت نساؤه يعملن بالمئات طبيبات ومحاميات ومدرسات ... ويطالبن بمزيد من الحقوق ويساهمن وتعنيهن كل العناية مشاكل بلادهن ... ويردن حياة كاملة ومشروعة فى الحب والعمل . . لا مجرد السطو ... على

رجل « مشهوراً أو غنياً أو لبقاً ظريفاً » وهى أنواع الرجال الثلاث التى يحصر توفيق الحكيم اهتمامهن بهم ! !

وفى ذلك الحين كان طه حسين قد اختار مكانه مع « الوفد » وتطور الكاتب الذى بدأ حياته مع « الأحرار الدستوريين » حزب الصفوة المختارة وأبناء البيوتات أو « مطايا الانجليز » كما سماهم سعد زغلول ، وانتقل وانتهى إلى الوفد حزب « الكتل الشعبية » والحركة الوطنية .

وأصبح طه حسين وزيراً للمعارف فى حكومة الوفد وقاد معركة ثقافية مدوية فى ذلك الحين وهى مجانية التعليم . . « لأنه كالماء والهواء » من حق الناس جميعاً . . وكان هذا إثماً وافتئاتاً كبيراً على الطبقات الحاكمة وقاومته يومئذ بكل سلاح .. وشهرت بطه حسين على كل المنابر .

وكان طه حسين يومئذ يستعد ليكتب « المعذبون فى الأرض » بينما كان أهم ما يشغل توفيق الحكيم هو برجه العاجى .

وقد استفز هذا كاتباً كبيراً جليلا من نفس الجيل كان أستاذاً للأدب العربى القديم وعميداً لكلية الآداب هو أحمد أمين فكتب فى مساجلة « ... الأدب الأمريكى يحمل لواءه اليوم رجال مارسوا الحياة العملية فى شتى شئونها ثم لم يكتبوا فى خيال وأوهام وأحلام

وإنما يكتبون أكثر ما يكتبون فى مشكلاتهم الحالية ومسائلهم اليومية وحياتهم الاجتماعية وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان وإنما يستوحون مجتمعهم وما فيه وما يصبو إليه وللأديب العربى أن يستوحى امرىء القيس أو شهر زاد ولكن يجب أن يكون ذلك نوعاً من الأدب لا كل النوع ولا هو النوع الغالب ولا هو الأرقى » .

وكان الكاتب يعنى الكتاب الأمريكيين فى فترة ما بين الحربين . شتاينبيك وسكوت فيتز جيرالد ، وأرنست همنجواى وغيرهم . الذين شرحوا المجتمع الأمريكى المعاصر ، وكشفوا كل ثغراته وأزماته وقدموا أثمن تراث يملكه الأدب الأمريكى .

ولكن توفيق الحكيم استفز ورد منفعلا ليقول :

« إنى مضطر أن أقول للصديق المبجل أن استيحاء أساطير اليونان والرومان وامرىء القيس وشهر زاد هو النوع الأرقى من الأدب ، فى كل أدب لا فى الماضى وحده ولا فى الحاضر بل فى الغد أيضاً وبعد آلاف السنين ما دام الإنسان إنساناً وما دام رقيه الذهنى بخير لم يصبه نكاس فالإنسان الأعلى هو الذى يصون الجمال الفنى عن الاشتغال الأرضى فى أى صورة ويحتفظ فيه بمتعته الذهبية وثقافته الروحية » .

ويستطرد قائلا « أنا لا أسلم أبداً أن رقى الإنسان هو فى تقدم أسباب معاشه المادية هذا هو الرقى بالمعنى الأمريكى ولكن الرقى بالمعنى الإنسانى المثالى شىء غير ذلك .. أن الإنسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شىء فى فمه . ولكنه ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية لا علاقة لها من قرب أو بعد بضرورات حياته المادية أو الجثمانية » .

ثم يبلغ الذروة قائلا :

« الفن الخالص لوجه الجمال الفنى هو الأرقى والأبقى وذلك ما لا يسلم به أحمد أمين وهو يعتقد أن الفن المسخر لخدمة الضرورات اليومية فى المجتمع هو الفن الأرقى متأثراً ولا ريب بتلك النظريات الحديثة فى السياسة والاقتصاد التى ترمى كلها إلى تملق الجماهير ومداهنة الدهماء ومصانعة الجماعات والنقابات والهيئات ومسايرة الكتل والسواد من الناس والشعوب موهمة إياهم بجعل كل شىء فى خدمتهم ، وخدمة الجموع معناها خدمة مصالحهم الأرضية المادية من مأكل ومشرب ومأوى لأن السواد والكتل لن يطلبوا ولن يقبلوا ولن يعرفوا غير هذا النوع المادى من المطالب فإذا أردنا تسخير الفن فى هذه الأغراض فمعنى ذلك الهبوط به إلى ذلك اللون من أدب النحل أو على الأقل إلى ضرب من أدب الدعاية والوعظ والهداية » .

ولم توصم الجماهير الجائعة المتضورة تحت نوافذ البرج العاجى فى كل الأدب المصرى بأشـــد مما وصمت وهوجمت به فى هذه الـكلمات ... ولا يخفى الـكاتب الـكبير أنه قال بتعادلية دقيقة « إذا كان فى الإمكان وجود فن يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا فإنى أرحب به وأسلم من الفور أنه الأرقى .. ولـكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون فى كل زمان ... »

وكان هؤلاء قد ظهروا وزخرت به الآداب العالمية وأصبحوا أقطاباً ومدارس وغيرت تاريخ الأدب فى أوروبا وأمريكا وروسيا ، وهى مدارس الواقعية النقدية الإجتماعية والواقعية الثورية التى يرفضها ويزدريها توفيق الحـكيم .

كان كل هذا فيضاً من الإبداع فى أنسب الظروف جعل منه أشهر كتاب الدار .

ومع هذا لم يحجب عنه « البرج العاجى » رؤية ما يحدث فى أسفله .. كان يلاحظ خفية ثم يعلن الطريق الصحيح .

مثلا « إذا نزل الشرق عن روحه لأوروبا فما الذى سيبقى له .. لن يبقى شىء حتى ولا اسمه » .

والذى يصل بالناس عبر هذا الطريق هم قادتهم (الطبيعيون) و (الإلهيون) .

« إن الطبقات العليا وحدها هى التى تقر فى الأمم مثلها العليا لأن رؤوس المصابيح هى وحدها التى ينبعث منها النور أو الظلام » .

ورسم لهذه الطبقات .. كيف تؤكد سلطتها ودورها (الطبقات العليا تصوم وتزهد ، والطبقات الدنيا تطعم وتقنع . أن الجوع لازم للرؤوس قاتل للأجسام . . ولا يغنى رأس إلا وهو ظمآن . . والأمة كالمسرجة لا يشع لها ضياء إلا إذا كان أسفلها فى الزيت وأعلاها فى الهواء) .

الخطر الداهم الذى يهدد كل الحضارة هو . . أن الشرق سيصبح منذ اليوم الرمز الصارخ للمادية لأن طبقاته العليا غرقت فى الترف وغرقت فى الذهب ولا بد أن تنقذ نفسها سريعاً .

وكان هذا تشخيصه المشكلة فى مارس سنة ١٩٤٨ أى قبل شهرين فقط من نشوب حرب فلسطين . !

وكان للكاتب رفيق فى البرج يناجيه همومه وهو (حماره) وذات يوم اقترح عليه حماره تأليف حزب .

— ما قولك لو شرعنا فى انتخاب نحو ثلاثين حماراً من الطراز الأول نؤلف منها الحزب .

— حزب من الحمير .

— ولم لا . .

— هناك صعوبة بدأت الآن .

— ما هي .

— هل تظن أن من السهل أن تجد الحمار الذى يعترف أنه حمار .

— إذن لم يأن الأوان لتأليف هذا الحزب .

— بالطبع .

وانتهت مشكلة الحزبية . . وذلك بالطبع فى الإطار المرسوم .

ويأتى التفصيل فى حديث موسع :

— السياسة هى اللباقة والمهارة والخفة والبراعة والكياسة وأن تسحب خاتم السلطة من أصبع منافسك إلى أن يغافلك المنافس ويسحب بدوره الخاتم ويضعه فى أصبعه .

— والشعب .

— لقد دخل أيضاً حلبة اللعب وأصبح أكثر تهافتاً واهتماماً وأشد شوقاً لرؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد شأنه شأن المقامرين .

— الشعب مسرور بذلك .

— كل السرور . . تأتى الحكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها أى عدة الروليت الخاصة بها وينصب المولد وتزدحم الجموع وتنتقل

النقود من جيب إلى جيب ، ويعلو الصياح من فم إلى فم ، وتمتد الموائد وتقام الولائم . ويغمر الشعب جو صاخب كجو الأعياد ردحاً من الزمن ، ينسيه شقاءه ويلهيه عن مصيره » .

« لقد جعل الشعب مبدأه ذلك المثل الشعبي القديم (من يتزوج أمي قلت له ياعمي) ، والأم هنا هي السلطة فلاغرابة من خروج الناس أفواجاً من الحزب الذي خلا من السلطان ودخولهم في الحزب الذي لمح فيه الصولجان » .

وبهذا يقدم أفضل مبرر لإلغـاء الأحزاب وفرض الوصاية على القطيع كما يخطط السيد الجديد .

والحل الأفضل للقطيع كما جاء في حديث آخر (المدرسة الشعبية التي تنقصنا هي الجامعة العسكرية الإجبارية للجميع بغير استثناء ، تخيلت الشعب المصري كله أو على الأصح جيله الجديد من الرجال يصهر في ذلك المصنع الإنساني الضخم ، يدخل بابه جيل جديد هزيل ، نشأ على العبودية والفوضى لا يعرف احترام النظام ولا استعمال السلاح ، لم يفهم من الديموقراطية غير صندوق الانتخاب يشترى الأغنياء أصواته ببضع ولائم وبضعة دراهم ، ولا يدرك من الوطنية سوى كلمات وعبارات وهتافات ، تصورت هـــذا الجيل بأغنيائه وفقرائه ، بوجهائه وغفرائه ، ومتعلميه وجهلائه ، يلقى كله في صهريج

الخدمة العسكرية الإجبارية لتخرج بعد ذلك وقد عرف كل فرد فيه كيف يطلق بندقيته وكيف يستيقظ فى الفجر عند صوت النفير) !

وهذا هو الحل العسكرى الفاشستى .. وإذا لم يقتنع الجيل الجديد .. بالحل الفردى العصامى أو بالحل الروحى فلابد من حشده وقهره وتجنيده .. تماماً وفق المخطط !

وكان التاريخ يمضى ، ولا توقفه (تأملات) الكاتب الكبير فى السياسة ، ولهذا أسفر فى النهاية عن رأيه فى الصراع الفكرى والاجتماعى المحتدم ، وفى إحدى (التأملات) بعنوان : (لست شيوعياً ولكن ..) قال :

(العلاقة بين رأس المال والعمل هى جوهر الخلاف بين المذهبين المتضادين ، أحدهما يقول إن رأس المال يستغل العامل ويربح كل كده ويجرع جميع عرقه ، والثانى يقول أن رأس المال هو الذى يجازف فله وحده ثمرة جسارته ، والحقيقة التى أراها فى طريق التطور هى أن لا نطالب كالمذهب الأول بالقضاء على الرأسمالية ، ولا أن نتركها كالمذهب الثانى تمرح وحدها فى ثمرة الاستغلال ولكن نجعل فى رأيى شعاراً يواجه به العامل رأس المال .. استغلنى وأشركنى فى الربح) .

والمشاركة أو (الرأسمالية الشعبية) هى آخر الشعارات والحلول المعروفة لإنقاذ الرأسمالية واحتواء الاشتراكية ودعا إليها الكاتب

فى مجتمع كان يعرف أن (٥ ٪) منه يملكون (٩٩ ٪) من الثروة ولن نورد ما كتبه الغربيون حول هذه المشاركة ولكن ما كتبه أحد المفكرين المصريين نقولا حداد فى بحث له عن الاشتراكية :

(إن المبدأ القائل بأن يشارك العمال فى جزء من الأرباح بالإضافة إلى أجورهم هو حيلة رأسمالية ، وهو لا يحل المشكلة الاجتماعية ، لأنه لايلغى سيطرة الرأسماليين ، ولا يزيح استغلال النظام ، بل هو لا يفعل سوى أن يكسر المد الثورى عند العمال ، أنه مثل المورفين يعطى للمريض ليخفف الألم ولكن لا يعالج المرض) .

ولقد كتب نقولا حداد هذا فى عام ١٩٢٠ وكتب توفيق الحكيم بيانه عام ١٩٤٧ ، بعد ربع قرن .. وفى فترة بلغ فيها مد القضية الاجتماعية ذروته .. وليعلن أنه يوافق على الاستغلال وبقاء النظام .. بشرط (إنسانى) واحد هو أن يشترك العمال .. وبالوهم أنهم أصبحوا شركاء .

أن موقفه من القضية الاجتماعية هو أصح مواقفه .. وهو يؤكده دائماً وبكل وسائل الإيضاح .. وللشباب الفائر الثائر فى ذلك الحين سنة ١٩٤٧ توجه بالنصح قائلا : « هذا الآدمى الذى صنعت له أجيال الشباب المصرى فى نفوسها تمثالا ذهبياً تعبده .. فصرفها عن الإلتفات إلى المغامرات الحرة العظيمة التى قام أشخاص إسمهم فورد وروكفلر

وكروب .. بل حتى أشخاص فى المحيط المصرى اسمهم عدس وبنزايون وموصيرى . . هذا المثل الأعلى الحكومى الذى غرسته فى نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل الروتين الفارغ ، هو الذى أفقدنا عدتنا من الرجال الأكفاء المنتجين وهو الذى أضاع من أيدينا ميادين الثروة الحقيقية فاحتلها الأجانب الأحرار أصحاب النشاط الواقفون بالمرصاد » .

وهكذا كانت مشكلة الشباب هى الاختيار بين الوظيفة والعمل الحر ، وبين أن يكون موظفاً كبيراً لا يعمل أو مليونيراً منتجاً مثل فورد وكروب . . أو مثل بنزايون وموصيرى الأجانب الأحرار . . وهؤلاء كانوا وكلاء البضائع والاستثمارات الأجنبية ، وكانوا أيضاً يهوداً صهيونيين ومتعصبين وتبرعوا بالأمـــوال الطائلة لإقامة المستعمرات الصهيونية .

وفى موعظة أخرى يضع توفيق الحكيم الأساس النظرى فيقول :

« أن اتجاه التاريخ الإنسانى يتقدم من الاجتماعية إلى الفردية ، وهذا حق إذ الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية ، هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها أن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس بإحساسه إنما هو يفكر ويحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله . . ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه . إن الوعى الاجتماعى فى

الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيواناً ، والفردية أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنساناً » .

وهو فى النهاية يلخص كل شىء ويوضحه قائلا :

« مجتمعنا مجتمع بدائى ، وإلى أن يهتم الناس بأشياء أخرى غير السياسة وكل شىء فى الوجود هو فى الحقيقة أرقى من السياسة . . وإلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحون ويصخبون فى نواديهم ، وننصرف نحن المفكرين إلى نوادينا ومجامعنا الفكرية . . ونحن الرياضيين إلى نوادينا الرياضية ونحن الماليين والاقتصاديين إلى نوادينا المالية والتجارية وإلى أن تتعدد نواحى النشاط فى البلد ويذهب هذا النوم والخمول الذى شمل كل جانب إلا ذلك الجانب العقيم وهو السياسة . . إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل فى المجتمع المصرى . . فلندع الله أن يتدارك هذه الأمة برحمته » .

والسياسة بالنسبة للمصريين فى ذلك الحين كانت الاستقلال ، وقد دعاهم إلى الانصراف عنها تماماً . . إلى الرياضة أو التأمل أو جمع المال .

وبهذا لم يكن توفيق الحكيم غريباً فى أخبار اليوم ، لم يكن تألقه وازدهاره عفواً .

وفى النهاية سقطت الخطط والمشاريع .. وقامت الثورة فى مصر .. وفاجأت الجميع وسرى القلق والجزع ... وسارع الكل ليغيروا خططهم ويلائموها .

وأصبحت المهمة الآن هى انتحال الثورة أو النفاذ إليها . . أو بطموح أكثر (الاستيلاء عليها ...).

واستبسلت أخبار اليوم فى هذا الصدد .. أعلنت أنها كانت أول من نادت بسقوط الملك وأنها التى وضعت برنامج الثورة .

واطمأن توفيق الحكيم . . وكتب أول أعماله (الأيدى الناعمة) ونشرت لأول مرة فى أخبار اليوم مفتتحة (أدب الثورة) كانت عن الأيدى الناعمة التى لم تعمل أبدا . . والتى عاشت على عمل الآخرين لأنها لم تكن تعرف ... ولكنها الآن تتقبل مصيرها وتبدأ حياة جديدة مع الشعب .

وكان بطل المسرحية أميرا يفيض بساطة وإنسانية وفكاهة ويواجه كل المتناقضات الجديدة بروح رياضية مرحة تنتهى دائما بالحل السعيد .

وبعد الثورة قام أكبر الأمراء بإطلاق الرصاص على كل خيوله ومواشيه وأغنامه النادرة . . وود لو استطاع أن يطلقه على فلاحيه . وهرع معظم الأمراء إلى تهريب أموالهم ومجوهراتهم . وسافر كثير

منهم للخارج ليعملوا مع أقلام المخابرات الأجنبية لاسترداد السلطة .

وكانت المسرحية دعوة للتسامح والتعايش . . وأول فصل من أدب احتواء الثورة .

ولكن تدافع السيل . . لم يقف ولم تعترف الثورة بأخبار اليوم وأصدرت صحفها (الجمهورية) ثم استولت على صحيفة مصر القديمة (الأهرام) .. وأصبحت لسان الحال الرسمى .. وانتقل إليها كل الثقل .

ووجد الكاتب الكبير أن الأفضل والأحكم أن ينتقل إلى هناك . . ويترك البرج وراءه ويذهب إلى الأهرام .

وهناك وقف على يسار الثورة . . معلماً وناصحاً ... واكتشف أنه أول من بشر بها ، بل كان أول من تنبأ (بجمال عبد الناصر) شخصياً . فى (عودة الروح) . . « لقد أعلنت أنه قادم وسوف يخرج من القرية وسوف يلتف حوله الجميع (ليصبح الكل فى واحد) وسوف يأتى بالخلاص » .

ومضى أكثر يساراً حتى كتب (الطعام لكل فم) مسرحية اجتماعية اشتراكية تماماً .. وتتالت كتبه من القلعة الحصينة فى الأهرام ... ثم مات عبد الناصر واكتشف أن وعيه كان ضائعاً وبدأ يسترده وأى اكتشاف .

ولأول مرة فى تاريخ الأدب والأدباء فى مصر وفى أى بلد آخر تحدث هذه المأساة المزلية .

أن يعلن كاتب كبير أنه فقد وعيه وأنه فقد هذا الوعى لعشرين سنة كاملة . وأنه بعد أن استرده أصبح يرى عكس ما كان يراه تماماً .

وأنه لهذا يستحق العفو والمسامحة !

والكاتب يكتب ويتصرف عادة عن رؤية واضحة وموقف محدد من الناس والأشياء .

وحينما يدين الكاتب نظاماً يعيش فيه ، فأنه صدقاً مع نفسه ، إما أن يعلن الحرب والمقاومة ضده ، وإما أن ينسحب منه ويهاجر بعيداً عنه ، وإما أن ينطوى وينزوى ويهاجر إلى داخل نفسه ، ويظل حتى تنكشف الغمة ويعلن رأيه صحيحاً وصريحاً .

وهكذا تصرف الكتاب دائماً . . القدامى والمحدثون .

وأما أن يقبل كاتب نظاماً ويمجده ويتغنى به وينقده أحياناً فى هذا الإطار ثم ينقلب فجأة ليرفضه ويلغيه ويندد به بأكمله قائلا إن وعيه ضاع ثم عاد . . هذا فقدان للنفس والخلق . . . لا يسترد !

الفصل الثانى

الكتاب

يبدأ « عودة الوعى » بسقطه كان أحرى بالكاتب وبأى كاتب أن يترفع عنها إذ يقول فى المقدمة « لم أطلع أحداً على هذه الصفحات ، وأردت أن أدسها بين أوراقى الخاصة وأحتفظ بها احتفاظى بشىء يخصنى وحــــدى واعتبرتها مذكرات ليست للنشر وبقيت هذه الصفحات خطيه مطوية إلى أن شاءت ظروف فى مناسبة من المناسبات أن أطلع عليها صديقاً قديماً أثق به كل الثقة وإذا بعدد من النسخ قد تسربت » ... وظهر عودة الوعى .

وكل من يعمل بالثقافة أو الكتابة فى مصر ، أو من يعنيهم الأمر يعرفون أن القصة مختلفة تماماً وأن الكاتب الكبير استدعى ذات يوم اثنين من الكتاب المعروفين ، كل منهما على حدة

وسلم إلى كل منهما نسخة ليست خطية ولكن مكتوبة على الآلة الكاتبة وطلب إلى كل منهما أن يقرأ ما فيها ثم أن يستنسخ عدداً منها وأن يوزعها على عدد من الكتاب سمى أسماءهم .. ثم يحملا إليه كل الآراء والانعكاسات .

وقرأ أحدهما « الكتيب » ولم يهتز له ولم يحفل بما طلب الكاتب الكبير الذى عاوده السؤال ولم يملك إلا أن يبدى له رأيه فيه . وأنه ليس ذو قيمة وليس شهادة حقيقية على العصر . ثم أكد له أن هذا ليس الوقت المناسب على الإطلاق لنشره . ونفذ الكاتب الثانى ما طلبه « الأستاذ » . وتسربت النسخ بعلم كاتبها وتدبيره ، وتبين بعدئذ أنهما لم يكونا الوحيدين . موضع الثقة والسر .

وشاعت قصة مثيرة ، أن توفيق الحكيم كتب كتاباً ضد عبد الناصر ، وأنه يوزع سراً وسرى كل الفضول الممكن . وأراد كل مثقف أو مهتم بالأمر أن يحصل عليه أو أن يقرأه .

وكان الكتاب فى ذاته خيبة أمل كبيرة ولم يثر بين الوطنيين والتقدميين إلا النفور والإزدراء . وذلك لهزاله ، وتناقضاته ، ليس بالكتاب أو البحث أو المنشور ، وليس بالأدب أو السياسة أو الإثارة . ولا يقدم مزايا توفيق الحكيم التقليدية .

ولكن تلقف الكتاب واحتفى به كل الاحتفاء القوى الموتورة التى كانت تبحث محمومة عن كاتب عمومى يكتب لها بياناً أو عريضة إتهام .

وبعد ما كانت توزع توزيعاً محدوداً أصبحت محل فخر الكاتب .

وبعد بعض الوقت ظهرت « عودة الوعى » مسلسلة فى صحيفة لبنانية ولم تكن مجرد صدفة أنها صحيفة الرجعية والقبلية العربية ، الأولى وأشدها تعصباً ثم ظهرت بإحدى الصحف فى تونس حيث ينصب حقد خاص على عبد الناصر منذ زمن بعيد .

ومن العالم العربى . . انتقل المخطوط إلى أوروبا وظهر فى مجلة « اسبرى » الفرنسية . كان الاستعماريون الأوروبيون ، وخاصة فى فرنسا ، لايغفرون السويس والجزائر ، ويبحثون عن وثائق إدانة واتهام خاصة من مصر وبأيدى مصرية .

ولم يعبر المخطوط البحر الأبيض وحده ، ولكن حمله صديق عمره حسين فوزى . وساعده الأيمن فى الحملة وسلمه إلى صحفية فرنسية عملت مع زوجها بعض الوقت فى مصر ، وكتبوا كتاباً متعالياً عنها يمثل أفضل تمثيل وجهة نظر « الاستعمار الجديد » فى الثورة . وتولت السيدة ترجمته ونشره فى المجلة .

ولكن يقول توفيق الحكيم :

« استفحل الأمر ووجدت ذات يوم مجلة فرنسية محترمة وقد نشرت ترجمة غير كاملة من نسخة من تلك النسخ المتسربة » .

وبعد صدور عودة الوعى بأشهر صرح فى روز اليوسف :

« تساءلت لماذا يصطدم جيل الثورة بالثورة وجواباً على هذا السؤال كتبت انطباعاتى فى عودة الوعى وأوصيت أن لاتنشر إلا بعد أن أودع الحياة ، ولكن منه لله صديقى حسين فوزى ، أخذها ونشرها ثم ذهب يستمع إلى الموسيقى وتركنى وحدى » .

لم يتسرب الكتاب تماماً من خلف ظهره ويفاجىء ساخطاً على نشره .

وحق الكاتب على ما كتبه حق مطلق ومقدس ، وكان يملك لو أراد أن يوقف النشر أو أن يمنعه ويندد بمن استغلوا ثقته ولكن .

« جاء أكثر من ناشر يطلب نشر الأصل الكامل وهنا عزمت على أن أقاضى قانوناً كل أولئك الذين نشروا هذه الصفحات المبتسرة والمترجمة بدون علمى . . وإذنى ونسبوها إلى ، ولكن بعد التروى واستشارة الأصدقاء اتضح أن المقاضاة قد تحمل معنى الإنكار

لهذه الصفحات وما فيها من رأى ، وهذا الإنكار ليس من شيمتى وأنا لم أنكر قط شيئاً كتبته وأن من حق الناس أن يطالعوا ما أكتبه فى السر والعلن لأن القلم والفكر فى رأيهم ملك الناس جميعاً وليس ملكا خاصاً محبوساً على صاحبه » .

ومن بين دور النشر جميعاً اختار توفيق الحكيم داراً للنشر لا تخفى اتجاهاتها ويعرف الجميع لمن تنشر وبمن تستعين . . ولم يقدمه لناشرى كتبه السابقين .

ورواة هذه الوقائع والأحداث أحياء قرأوا مقدمة الكتاب وعجبوا . . وهم على استعداد إذا أراد الكاتب أن يصححوا علنا كل الوقائع .

ويستشهد الكاتب الكبير كثيراً خلال كتابه بصحفى لامع من أصدقاء عبد الناصر .. ولهذا « الصحفى » بدوره روايته .. وتقول :

« تلقيت مكالمة ذات يوم من الرئيس السادات وسألنى منزعجاً . هل قرأت كتاباً لتوفيق الحكيم أصدره ضد الثورة وجمال عبد الناصر باسم عودة الوعى . . وأجبت أننى لم أقرأ ولم أسمع بل استبعد . وطلب إلى الرئيس أتحرى الأمر » .

« وذهبت إلى توفيق الحكيم رأساً ورويت له القصة وسألته واطمأننت لأنه أنكر إنكاراً تاماً أن شيئاً من هذا قد حدث .

ورجعت إلى الرئيس السادات وأكدت له عدم صحة الواقعة ونددت بمن حمل إليه الوشاية ، ولكنه سخر بمرارة من معلوماتى عمن يعملون معى . . وطلب إلى الاتصال بالرئاسة ليزودونى بنسخة » .

« وداخلنى الشك . توفيق الحكيم لا يمكن أن يكذب وكل شىء يكتبه نشر أو لم ينشر يأتى به دائماً إلى ونناقشه بل ونستهلكه جدلا ونقاشاً . وعمل مثل هذا لا يقدم عليه وإذا فعل لا بد أن أكون أول من يراه ويعلم به » .

« وجاءتنى النسخة وقرأتها وبهت . . تجاوزت كل شىء تصورته أو خطر ببالى » .

« وذهبت إلى توفيق الحكيم فى أشد حالات الحيرة والانفعال ولأول مرة ولم يكن ذلك لأنه كتب بقدر ما كان لأنه أخفى عنى الأمر » .

« وأذكر أننى قلت له يومها . . لو كنت قد كتبت تقييما للحياة الفنية والفكرية خلال عشرين سنة وقلت فيها ما تشاء ، لما جرؤ أحد أن ينازعك فى شىء . هذا ميدانك ولا ينكره عليك أحد ، ولكنك أقحمت نفسك على ميدان ثبت أنك لا تعرف شيئاً عنه . وإذا أثبت هذا الكتاب شيئاً فهو جهلك التام بالسياسة وعدم إدراكك المطلق لما تم خلال عشرين عاماً سلباً وإيجاباً » .

«وأخذ توفيق الحكيم يتحايل وينفصل ، لقد كتبه ولم يكتبه ، وقد أراد أن يحتفظ به مذكرات خاصة ، ولم يقصد أبداً نشره .. الخ هذه الحجج الواهية .

« وطلب منى الكاتب الذى تأصلت فيه عادة البعد عن رجال السياسة والحكام ، والذى رفض مقابلة عبد الناصر . طلب إلى بإلحاح أن أرتب له لقاء مع الرئيس السادات لكى يوضح له الأمر ويشرحه . . وبالفعل تم هذا وذهبنا معاً إلى المقابلة ، وخلال الطريق كنت أنتظر لأرى كيف تكون المواجهة بين المفكر «فوق السلطات» وبين السلطة والدولة . . ولا أحب أن أروى شيئا ، أو أتذكر ذلك المشهد » .

« وأكدت على توفيق الحكيم أنه عيب كبير أن يصدر هذا الكتاب باسمه وفى تلك الظروف . وأدركت أنه يعرف كما أعرف من الذى يمكن أن يفيد منه ، ومن الذى يمكن يقف وراءه ولكن وبعد قليل ظهر الكتاب مطبوعا يملأ الأسواق » .

والصحفى اللامع من أصدقاء عبد الناصر . هو بالطبع الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام الذى أصبحت هذه كلها صفاته وألقابه لدى توفيق الحكيم ! !

* * *

وتنتهى مقدمة الكتاب بنداء يوجهه توفيق الحكيم لحملة الأقلام وأهل الفكر .

« أحب أن يفهم الناس من ذلك أنها أرائى وشهادتى أمام ضميرى ولا أحب أن تؤخذ على أنها موقف سياسى وحكم نهائى على العكس ، إنى أطالب بالبحث المنصف والتحقيق الدقيق والكشف عن الحقيقة بعد فتح ملف هذه الفترة بأكملها » .

« أن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر هى الكشف عن وجه الحقيقة » .

ولكن فى الصفحة التالية مباشرة يقدم توفيق الحكيم الكتاب قائلا : :

«هذه السطور ليست تاريخاً إنما هى مشاهد ومشاعر أسترجعت من الذاكرة ولا تستند إلى أى مرجع آخر .. للفترة ما بين هذين التاريخين يوم الأربعاء ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى يوم الأحد ٢٣ يوليو ١٩٧٢ » .

وتوفيق الحكيم رجل قانون قبل أن يكون كاتباً وقد ظل طوال حياته ينادى « بالبحث عن الحقيقة » ولكنه يدلى بشهادة أمام ضميره . . ويصدر حكماً وفى قضية بالغة الأهمية والتعقيد من الذاكرة . وقبل أن يستنفذ كل أدلة النفى والإثبات . ولا يغنى فى شىء أن ذاكرته

لا تزال تحفظ أن العهد بدأ يوم الأربعاء وانتهى يوم الأحد بعد عشرين عاماً .

شهد الكاتب الكبير وحكم وكتب رأيه فى عصر متلاطم يمتد عشرين عاماً طويلة عاصفة من الذاكرة وبغير أن يستند إلى أى مرجع آخر .

وقد كتبت عن هذه الفترة آلاف من الكتب والأبحاث والدراسات بكل اللغات ، وصدرت عنها كل الأحكام الممكنة فى أرجاء العالم . ولأول مرة يفتح كاتب مصرى كبير الملف ويشهد ويصدر حكماً من الذاكرة ! .

ولقد كتب فى موضع آخر من الكتاب «هذه المرحلة من مراحل مصر التى استغرقت عشرين عاما سوف تكون موضع دراسة مستفيضة وأرجو لدارسيها أن يكون لديهم العدل والموضوعية وأن لا تطغى على تفكيرهم المبادىء الرزين أى حزازة ومرارة ومجاملة ومبالغة » .

ثم قدم لهم جميعاً مثلا للعكس ! !

وقد يكون من واجب الكاتب أن ينقد نفسه وقد يكون من حقه أن يعذب نفسه ، وقد يكون فى استطاعته أن يفقد وعيه ويسترده ، ولكن يظل عليه دائماً وقبل كل الواجبات والحقوق أن يحترم نفسه .

ويقول توفيق الحكيم :

« أن التنفيذ السريع عقب قيام الثورة لقرارات كانت تستغرق الأعوام والأجيال بهرنا وجعلنا نسير خلف الثورة بغير وعى » .

ويقول أيضا :

« العجيب أن شخصا مثلى محسوب على البلد وهو من أهل الفكر وقد أدركته الثورة وهو فى كهولته ينساق هو أيضا خلف الحماس العاطفى ولا يخطر لى أن أفكر فى حقيقة هذه الصورة التى كانت تصنع لنا ، كانت الثقة فيما يبدو قد شلت التفكير » .

ويقول أيضا :

« غمرنا سحر أو حلم لا ندرى كيف فكرنا وربما كان سحره الخاص ربما كان الحلم الذى جعلنا نعيش فيه بتلك الأمانى والوعود . فما كنا نملك إلا أن نصدق ثم نلهب الكف بالتصفيق » .

ويقول أيضا :

« نحن كهول الثورة ما عذرنا ؟ ما الذى خدر عقولنا .. لم يبق إلا اتجاه واحد وصورة واحدة هى ما ترسمه لنا سلطات محفوفة بدوى الطبول ، سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد . وأسكرونا بخمرة مكاسب وأمجاد فسكرنا حتى غاب عنا الوعى » .

ويزيد فيقول :

« اعتدنا هذا النوع من الحياة الذى جعلتنا فيه الثورة مجرد أجهزة استقبال » .

ويضيف أيضا :

« كيف استطاع شخص مثلى أن يرى ذلك ويسمعه وأن لا يتأثر كثيراً بما رأى وسمع ويظل على شعوره الطيب نحو عبد الناصر . أهو فقدان الوعى . أهى حالة غريبة من التخدير » .

ويدين نفسه فى النهاية قائلا :

« لست أبرىء نفسى بهذا لأن إدانتى الحقيقة هى فقدان الوعى وأنا فى الشيخوخة وبعقل يعيش فى التفكير » .

وهذا ليس نقداً ، ولا تعذيبا ، ولكنه إذلال ، وهو طلب عفو وغفران من مذنب ارتكب كل الكبائر يقدمه إلى أباء الكنيسة وكرادلتها وقبل أن يصدروا ضده قرار الحرمان . مذنب خاطىء يتقدم حافيا جاثيا يطلب الغفران ، ويلتمس المودة .

وقد خرجت الرجعية المصرية بعد وفاة عبد الناصر مستأسدة تطالب بدم كل من شارك من قريب أو بعيد فى العهد الآثم . وتنادى بالتمثيل بهم قبل تعليقهم على الأعواد . . وليس هناك أشد

وحشية من رجعية موتورة تستعيد السلطة أو يهيأ لهـا هذا وهى قد بدت يومئذ إعصاراً لا يقف فى وجهه أحد وتستعد لتسوى كل الحسابات .

وهلع توفيق الحكيم وهرع يسوى حسابه قبل أن توصد الأبواب !

* * *

ولم تكن مصر خلال العشرين سنة بئراً مظلما أغلق على المصريين وسدت النوافذ وأسدلت البوابات .

ولم يحدث أن نوقش نظام ونقد وهوجم وامتدح بكل أنواع الجدل والحوار مثل النظام الذى قام فى مصر خلال حكم عبد الناصر .

وكانت تكفى إدارة مذياع صغير ، لتطل سلسلة من المحطات والموجات ، تهاجم أو تنتقد أو تمجد كل شىء وأى شىء يحدث فى مصر .

وانتشر فى مصر ما سمى ثورة الترانزستور فى أبعد القرى وأفقر الأحياء . وكان أغلب المواطنين . الذين لا علم ولا ثقافة لهم يستمعون إلى كل المحطات فى الشرق والغرب ولا يدعون شيئا يمر بغير نقاش !

وكان توفيق الحكيم أكبر الكتاب ، وفى القمة فى جريدة الأهرام ، وكانت صحيفة مميزة ذات مكانة خاصة طوال ذلك العصر . كانت فى قلب الأحداث وتنفـــــذ لو أرادت إلى كل الحقائق « والملفات » ولو كلف توفيق الحكيم نفسه أقل عناء لاستطاع أن يعرف كل ما يدور . .

وتوفيق الحكيم يجيد بالطبع اللغات الأجنبية . . وكانت ترد إلى مصر ولم تنقطع وترد إلى الأهرام خاصة كل الجرائد والمجلات العربية والأجنبية بكل اللغات ، وكان يستطيع لو اطلع عليها أن يرى كل وجهات النظر الممكنة حول النظام . ويستطيع أن يحتفظ بوعيه وتوازنه ، حتى ولو لم يستطع التعبير !

وفى الأهرام مكتبة كبيرة تضم كل ما كان يصدر عن مصر وعن النظام من كل رأى واتجاه ولم يكن يمضى بعض الوقت بغير أن تصدر كتب وأبحاث ودراسات فى الشرق والغرب كان اهتمام الباحثين والدارسين لا ينقطع . ومن كل الزوايا ووجهات النظر . ولم يكن هناك سبب واحد لكى تنزل الغشاوة على أعين توفيق الحكيم .

وإذا كانت دعاية القاهرة وبطشها من القوة بحيث فعلت هذا

وأبطلت كل الموانع ، فإن توفيق الحكيم خرج من مصر وغاب عنها خلال ذلك العهد ما يقرب من ثلاث سنوات ، وعاشها في باريس مدينة النور ، ومهبط شبابه وأحلامه وأعز ذكرياته .

طلب أن يعين ممثلا لمصر في هيئة اليونسكو وأجيب طلبه على الفور وذهب إلى هناك . وكانت موقعا ملائما ومدة كافية لكي يراجع الأمور ويرى الحقيقة بعيداً عن مؤثرات القاهرة ، وأن يعود برأسه وقلبه في المكان الصحيح .

ولكن الصحيح والواقع أن الثورة أي ثورة بعيدة عن أن يفهمها توفيق الحكيم . . والبطل الثوري غريب تماماً في كل أدبه ، وأبطاله جميعا تعادليون أو تلفيقيون يوازنون ويلائمون أو هم مجرد متفرجين أو هاربين يلوذون بمخبأ أو يرون كل شيء خفية .. لا أحد في أبطاله يواجه القضايا حتى النهاية ، ولا أحد منهم يفكر أو يثق في قدرته على صنع أو تغيير الحياة .

والدراما المجيدة التي عاشتها مصر خلال عشرين عاما وبطلها التاريخي ، يقعان تماما خارج قدرته على الفهم والإدراك .

وهو لا يراها أكثر من مسرحية مملة صاخبة مقطعة الأحداث ، ومليئة بالمآسي تماماً مثل ريفي غريب يشهد تراجيديا شكسبيرية في مسرح مهيب !

وفى أول لقاء بين عبد الناصر وتيتو فى أوائل الثورة خرج تيتو يقول « هذا ثائر كبير » وحينما قيل له أنه ليس ماركسياً قال« لا يهم أنه ثورى بما يكفل أن يصل إلى الحقيقة » وقامت على هذا الأساس علاقة وثيقة حميمة . . استطاع تيتو من أول لقاء أن يستشف جوهر الإنسان . . كما لا يمكن أن يدركه توفيق الحكيم .

ويقول الكاتب « الكبير » فى عودة الوعى وفى معرض الحديث المقارن عن ثورة ١٩١٩ . . أنه كان يعجب بسعد زغلول ، ولكن يؤيد ذهاب عدلى للمفاوضة مع الإنجليز .

وقد كان سعد زعيم الشارع والرعاع وقد نصبه الشعب تلقائياً وبالإرادة الجماعية .

وكان عدلى زعيم الأرستقراطية وسليل الطبقة التى استدعت الاحتلال لكى يقمع الثورة .

ورفض سعد أن يذهب هذا الرجل لكى يفاوض على حقوق مصر زعيم الثورة فقط هو الذى يملك الوكالة والحق .

ولكن توفيق الحكيم كان يود لو ذهب عدلى يفاوض وبقى سعد ليساوم فى « تعادلية » تجارية .

وهو قد يعجب بالثورة ولكنه لا يعادى أبداً السلطة ويوفق بين الاثنين لأجل صفقة ولراحة نفسه .

وجوهر عودة الوعى واكتشافه الكبير هو القانون الأساسى الذى حكم السياسة المصرية فى عهد عبد الناصر ، والذى كان وراء كل المآسى « سارت الأمور كلها فى شئون الدولة خارجها وداخلها على هذا المسلك ولهذا المحرك . . انفعال ورد فعل » .

وقدم توفيق الحكيم المثل النموذجى :

« كان عبد الناصر قد أعد خطبة يلقيها ويعلن فيها خطة أو رؤية السلام فى المنطقة ، غير أنه سمع من السفير الأمريكى وقتئذ كلمة استقبله بها فى زيارة فلم تعجبه الكلمة وانفعل وغير خطبته فى الحال وكان لهذا المسلك الانفعالى تأثيره على مصير الوطن كله » .

ويعزز رأيه قائلا :

« من يدرس بعناية الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التى وقعت فى مصر على مدى حكم عبد الناصر يجد أن المحرك الخفى الحقيقى لها كان هو الانفعال ورد الفعل وليس التفكير الرصين الهادى الرزين المبنى على بعد النظر » .

وهو يصرح هنا أنه درس كل شىء بعناية واستخلص أهم النتائج ، وهو يقدمها فى هذا الإيجاز .

« بادرت الثورة إلى تنفيذ مشروع السد العالى واعتمدت فى

تنفيذه على أمير كا بالطبع فأمريكا هى التى وقفت بجوار الثورة عند قيامها وأسكتت الانجليز المرابطين فى القناة . . وإلا كانوا جاءوا بدباباتهم وطائراتهم وأجهضوا الثورة فى نصف ساعة . ولكن العلاقات بين الثورة وأمريكا ما لبثت أن توترت للأسباب المعروفة وكان أن قال وزير خارجية الولايات المتحدة المستر دالاس ذلك القول الذى أغضب عبد الناصر فكان رد الفعل بالإنفعال المعتاد وصدر تأميم القناة مع دفع تعويضات وفى وقت لم يبق فيه سوى أقل من عشرة أعوام لإنتهاء امتياز القناة وعودتها قانونًا إلى ملكية مصر بدون دفع أى شىء » .

وهكذا فإن ماحدث لم يكن تعبيراً عن تاريخ أو تحقيقاً لمبادىء أو مثل ولكن مجرد انفعالات وردود أفعال . الصدامات الفردية بين رئيس دولة عصبي وسفير سليط ووزير خارجية متعالى !

وقد يكون صحيحاً أن الثورة قامت بغير نظرية مسبقة وأنها تمت قبل موعدها الذى كان محدداً ، وأنها واجهت كل المواقف والمصاعب غير المتوقعة . ولكنها كانت محاولة فى تحقيق الأمانى القومية لمصر . ولم تكن نزوة فرد ولم تقم فى فراغ .

وقبل أن تقوم الثورة وبعد أن انتصرت وخلال كل مرحلة من

مراحلها كان لها الالتزام والإطار والخط العريض الذى تتحرك فى دائرته ولا تخرج عنه .

وكان لها مواثيقها وبرامجها وبدأت بمنشورات حركة الضباط الأحرار قبل الثورة ، ثم « المبادىء الستة » التى أعلنت بعد نجاح الثورة مباشرة ، ثم فلسفة الثورة . . ثم الميثاق سنة ١٩٦٢ وأخيراً بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ . . وكلها تعبير عن مراحل الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية لجماهير مصر !

ولم يكن الصدام بين مصر والولايات المتحدة صداماً بين الرئيس والسفير والوزير ، ولكنه كان صداماً محتوماً بين ثورة وطنية ودولة استعمارية .

وفى سنة ١٩٥٣ بعد الثورة ببضعة شهور جاء المستر دالاس إلى القاهرة . . ذات صباح فى واشنجطن قال للمستر أيزنهاور « حان الوقت لكى أذهب وألقى نظرة على مايفعله هؤلاء الأولاد فى مصر » .

وكان « الأولاد » هو الوصف الذى خلعه السفير الأمريكى فى القاهرة على قادة الثورة الجديدة بعد أن عين نفسه وصياً عليهم .

وتقدم دالاس بطلب الانضمام إلى حلف يقوم فى الشرق الأوسط ويجعل المنطقة كلها امتداداً للغرب وحلف الأطلنطى . ولم ينفعل أحد بل على العكس تماما تقدمت الثورة بالبديل الوطنى والإيجابى

للأحلاف ، وبنظرية واستراتيجية أفضل وهى « الدفاع عن الداخل » ورفضتها الولايات المتحدة ومن يومها بدأ الصراع بين الثورة وبين الاستراتيجية « الكونية » الأمريكية التى كانت تريد أن تحيط الكون كله بسلسلة أحلاف !

ولم تسوء العلاقات بين الثورة والولايات المتحدة ، بقانون الانفعال وردود الفعل وباختلاف الأمزجة ، ولكن لأن الولايات المتحدة أرادت أن تستولى على الثورة وأن تحولها إلى انقلاب كولونيلات بوليفى أو برازيلى .

ولم يرفض المستر دالاس تمويل السد من أثر مشادة ولم تؤمم مصر القنال فى ثورة غضب . وللسد قصته فيما بعد ، ولكن حينما رفض المستر دالاس التمويل أهان السفير المصرى فى واشنجطون إهانة بالغة وأصدر بياناً كان فريداً فى التقاليد الدبلوماسية ودعا الشعب المصرى فيه أن يتخلص من حكومته التى سوف تسوقه إلى المجاعة !

ولم يكن عبد الناصر مفاجئاً بموقف المستر دالاس ، وقبل أن يسافر السفير المصرى من القاهرة أكد له عبد الناصر أن الولايات المتحدة لن تمول السد وأن موقفهم سياسى وحينما أصر السفير على أن ذلك لازال ممكنا ، ودعه عبد الناصر وتمنى له التوفيق .

ثم فوجئت مصر والعالم بأسلوب الرفض ، وكان من الصلف

بحيث لا تملك دولة تريد أن تحفظ كرامتها إلا أن ترد رداً رادعاً ·
وقد كان .

ثم كان لا بد أن تبنى مصر السد مهما يكن الثمن وأن يكون هذا هو الرد الصحيح ولا بد أن تبنيه معتمدة على نفسها ومواردها أولا · أن تكون القوة الذاتية المصرية هى عماد الثورة فى الدفاع والتنمية .

وكانت قناة السويس مصرية خالصة ، وكان الوقت قد حان إن لم يكن قد تأخر — لاستردادها ·

ولم تكن القناة مجرد استثمار أجنبى ولكن كانت جرحاً عميقاً غائراً فى نفوس المصريين جميعاً وقد استغلت مصر واستنزفت وخرجت صفر اليدين من إنشاء القناة ثم احتلت كلها واستعمرت لأجل القناة . مات عشرات الألوف من عمال السخرة ، وابتزت مئات ومئات الملايين من عرق وكد المصريين منذ توقيع عقد الامتياز حتى تجريد مصر من كل أسهمها حتى التأميم . . وكانت القناة دائماً دولة فوق الدولة .

ومنذ البداية كان تأميم القناة مطلباً للمصريين . . وكان الخديوى إسماعيل نفسه أول من طالب به « أن تكون القناة لمصر ولا تكون مصر للقناة » .

كانت القناة منذ البداية مشروعا سياسيا كانت فرنسا تريد إقامة شركة من شركات الاستعمار الكبرى .. وتقيم امبراطورية فرنسية فى الشرق لم تستطع حملة نابليون أن تؤسسها .

وبعد حصول بريطانيا على أسهم مصر فى القناة ثم احتلال مصر أصبحت القناة شريان الحياة الرئيسى للامبراطورية فى آسيا وأفريقيا .

وبعد الحرب العالمية الثانية تضاعفت أهمية القناة بسبب البترول والحرب الباردة وثار صراع حاد فى الحلف الغربى بين بريطانيا وفرنسا وأمريكا حول القناة .

وكان لابد أن تعود القناة كاملة إلى مصر . . وبعد جلاء الانجليز وتحرير « منطقة » القنال عسكرياً كان لابد أن يتم تحرير القناة سياسيا واقتصاديا ، وأن تؤمن وتسترد ، ولا يحل - استعمار جديد محل القديم .

وكان لابد من استردادها وتأميمها .. حتى ولو لم تقم أزمة السد وتأكيداً للسيادة وتأميناً للاستقلال . . لم يكن من الممكن الانتظار عشرة سنوات .

ولم يتم التأميم عفو اللحظة .. ولم تكن دعوة التأميم جديدة أو منفعلة . طالبت قوى كثيرة فى ثورة ١٩١٩ بالتأميم وظلت أمنية

وطنية تجددت بعد الحرب العالمية الثانية وتصدرت برامج أحزاب وتنظيمات « ثورية » وظهرت أبحاث ودراسات عديدة ومفصلة فى القضية . وأعدت الثورة بعد قيامها بقليل طاقماً من الخبراء ومكتباً خاصاً لدراسة مسألة القناة . بحيث كان كل شىء جاهزاً حين أعلن التأميم .

وقد تم ونجح .. وحقق كل نتائجه التى فاقت كل التقديرات .

ولا يتهم توفيق الحكيم الثورة بالانفعالية والمغامرة فحسب ولكن يضعها على حافة « الخيانة » وبالتهمة المكررة المستهلكة .

« اعتمدت الثورة على أمريكا بالطبع فأمريكا هى التى وقفت بجوار الثورة عند قيامها . وأسكتت الانجليز المرابطين فى القناة » .

ويوحى توفيق الحكيم أن ثورة ٥٢ التى أحبها وأيدها ذات يوم كانت تدبيراً أمريكياً . . صنعته ثم قامت بحمايته أمريكا حتى ساءت العلاقات .

والرجعية المصرية التى تود لو استطاعت أن تسلم مصر كاملة إلى الولايات المتحدة كما سلمها أسلافها إلى بريطانيا تجد الجرأة لتشكك فى الثورة وتتهمها أنها كانت مؤامرة وانقلاباً أمريكياً .

ويقول عميل المخابرات المركزية الأمريكية الذى كان مناطاً به شئون مصر وجمال عبد الناصر . . وهو مايلز كوبلاند .

« كانت المخابرات المركزية الأمريكية تعمل جاهدة لأجل انقلاب عسكرى فى مصر . وكانت تبحث بهمة فى الجيش المصرى عن طاقم يصلح لهذا . وكانت تعرف أن هناك حركة وتنظيما للضباط الوطنيين فى الجيش المصرى وكانت تريد بأى ثمن أن تصل إليهم » .

« وأرسلت المخابرات المركزية الأمريكية أكفأ رجالها فى الشرق الأوسط كيرميت روزفلت ليقوم بالمهمة وبدلا من أن يصل إليهم اكتشفوه واستطاعوا أن يضللوه . وأن يحموا التنظيم وحينما قامت ثورة يوليو . . عرفت الولايات المتحدة بالنبأ من الصحف تماماً مثل باقى المواطنين » .

ويقول رجل آخر للمخابرات المركزية إسمه جوستين كان مناطاً به مشكلة عبد الناصر « كنا نكرهه ونمقته كما لانمقت أحداً آخر ، ولكن لم نكن نستطيع شيئاً إزاءه . . لم تكن فيه ثغرة نستطيع أن ننفذ إليه منها » .

وليس هذا وصف العملاء . .

ولم ينكر عبد الناصر فى حديث له مع الكاتب الفرنسى بنوا ميشان إعجابه ذات يوم بأمريكا « كنت أقرأ الصحف والمجلات الأمريكية وأعجب بطريقة الحياه الأمريكية وذلك بالطبع قبل أن أفهم وأدرك أنها دولة استعمارية » .

ولو كانت الثورة من صنع الولايات المتحدة لما قام الخلاف مبكراً جداً منذ ١٩٥٣ وظل يتفاقم حتى حرب ١٩٦٧ وحتى آخر يوم فى حياة عبد الناصر .

وتبقى الإهانة الوطنية للمصريين جميعاً وهى أنه كان فى استطاعة الانجليز أن يقضوا بدباباتهم ومدافعهم على الثورة فى نصف ساعة .

ولم يكن الانجليز قد استطاعوا بهذه الدبابات والمدافع أن يقضوا على كفاح حفنة من التنظيمات الفدائية فى منطقة القناة . ولجأوا فى النهاية إلى إشعال الحريق فى القاهرة فى المأساة المعروفة .

ولم تكن لدى الانجليز ، نية للتحرك كما ثبت بعدئذ . كانوا أكثر الناس دراية بسقوط فاروق وحتمية نهايته . ولا يعيرون مصيره أى اهتمام . وكانوا بدورهم يبحثون عن بديل .

وقد أرسل الملك فاروق استغاثة لم يلبوها وأرسل للولايات المتحدة فسارع السفير الأمريكى ليطلب بلهفة كبيرة حماية جلالته وضمان سلامته .

ومنذ اللحظة الأولى للثورة إلتحمت بها القوى الوطنية والشعبية ولم يكن الانجليز ليستطيعوا فى نصف ساعة أن يقضوا على الجيش والشعب معاً فى ظل ثورة حملت الخلاص .

وينتهى توفيق الحكيم فى النهاية وفى التشخيص الأخير إلى أن عبد الناصر « لم يكن رجلا سياسياً ولم تكن له قط طبيعة رجل السياسة والتى يملكها رجال اتصل بهم وعرفهم مثل نهرو وتيتو ولكنه أقرب إلى طبيعة الكاتب الفنان الحالم والعاطفى ويظهر أن الظروف هى التى دفعته إلى طريق غير طريقه . . ولو أنه ترك لطبيعته لكان كاتباً ناجحاً » .

وذلك بالمعنى الذى يفهمه توفيق الحكيم للسياسى والكاتب . .

ولكن توفيق الحكيم ينقض كل شىء قاله حين يقول فى صفحات أخرى من الكتاب المختلط الحقائق « أذكر يوم جاءنى الصحفى اللامع صديق عبد الناصر بنسخة من كتاب فلسفة الثورة مهداة إلىّ من مؤلفه الزعيم وفكرت بعد قراءته كيف يصح لسياسى أن يكشف ورقه للعالم هكذا » .

« وحدث أن اطلعت بعد ذلك على مقال فى جريدة فرنسية بقلم أستاذ من أساتذة التاريخ والسياسة الفرنسيين حلل الكتاب تحليلا علميا وبين مافيه من أحلام وآمال وتصورات تكاد تشبه الإمبراطورية الواسعة للدول العربية والأفريقية التى تنتظر الزعيم أن يؤلفها فهو يرى أن دول العروبة وغيرها تبحث عن زعيم . وأدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية أن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى

توزيعه فى الخارج جهتان فى نفس الوقت السفارة المصرية والسفارة الاسرائيلية » .

وبهذا فإن عبد الناصر ليس فقط سياسيا بل زعيم منتظر وهو لا يتحرك بالانفعال ورد الفعل ولكن يعرف ما يريد ووضع له فلسفة وخطة ويريد إمبراطورية عربية أفريقية عريضة ، وقد قرأ توفيق الحكيم الكتاب وعجب كيف يكشف سياسى ورقه إلى هذا الحد .. وقد قرأ الكتاب أستاذ فرنسى خبير ويثق فيه توفيق الحكيم فيما يبدو واستخلص كل النتائج .. وقامت إسرائيل لتقرع نواقيس الخطر عن هتلر عربى جديد !

وهذه الحقائق تستحق وقفة عند كل منها .

فلسفة الثورة كان محاولة فكرية وسياسية لتحديد مكان مصر على خريطة العصر ، ودورها فى حياته ، ولم يكن إعلانا لوحى مقدس أو تعاليم « زعيم » أوحد !

وقد جاء فى الكتاب حديث عن دور هائم يبحث عن بطل ولم يكن يعنى بحال افتقاد المنطقة إلى فوهرر نازى جديد ولكن تشخيصاً للفراغ العقائدى والسياسى الذى كان قائماً ، ولعجز القيادات والسياسات القديمة عن مائه ولافتقاد القوى الجديدة إلى قيادة معاصرة تواجه عالما معقداً .

وهذا هو ما فهمه أستاذ أمريكى محايد كان عميداً للجامعة الأمريكية فى القاهرة هو « كليلاند » قال « كان العالم العربى يحقق ثورته الفرنسية أو الأمريكية ويبحث عن واشنجطون أو نابليون» .

كان لابد أن تواصل الثورة البحث عن فكر وعن خط وأن لاتنقطع عن البحث فى عالم متغير . وأن تعلن هذا ولا تخفيه . وعبد الناصر لم يكن سياسياً يريد سلطة ولكنه كان أولا ثائراً . والثائر دائما ذو رؤية يعلنها للناس ويبشر بها . لابد أن يكشف كل أوراقه ليعرفونها .

وهكذا كتب غاندى حياته ونشرها وهكذا فعل نهرو مثلا ، ولهذا كتب كارل ماركس «رأس المال» وأصدر لينين «ماالعمل» ؟ وكذلك فعل كل القادة والثوار والزعماء وهم لا يعملون بالمناورة ولكن بثقة ونضال الناس .

وإذا كان أستاذاً فرنسيا قد فهم فهما آخر فهذا رأيه الخاص ولا يعنى الحقيقة ، ولو ذكر توفيق الحكيم إسم الأستاذ وإسم الجريدة التى ذكرها لما كان صعباً تفسير رأيه . . بمعرفة انتمائه واتجاهه ، والذين اتهموا عبد الناصر بالفاشـــــية والتوسعية هم الاستعماريون البريطانيون والفرنسيون إيدن وجى موليه . . وقد قال هذا ذات

يوم « إن عبد الناصر يريد إقامة إمبراطورية عربية إسلامية تسترد أسبانيا ثم تزحف على فرنسا » !

ولو ذكر توفيق الحكيم أيضا أسماء الصحف العالمية التى نشرت أن سفارة إسرائيل توزع كتاب فلسفة الثورة ، وماذا قالت بالضبط لعرف السبب ، ولكل صحيفة عالمية كبيرة مواقفها المحددة من مصر والعرب وإسرائيل . وتفسر كتاباتها .

وإذا أراد أن يعرف ما هو الكتاب الذى تطبعه الآن إسرائيل وتوزعه بنشاط فإنه كتاب عودة الوعى .

ويروى مستشار بسفارة مصر باليونان « ذات يوم وصلت فى بريد السفارة نسخة عربية من كتاب عودة الوعى ودهشنا حينما وجدنا أنها مطبوعة ومرسلة من قبرص . واستقصت السفارة الأمر . ووجدت أن إسرائيل طبعت كميات كثيرة من هذا الكتاب وتوزعه فى كل مكان » ! .

ولم تحط ذاكرة توفيق الحكيم بشىء من مواثيق الثورة ولا من أحاديث وخطب عبد الناصر الكبيرة ووقفت عند فلسفة الثورة .

وليس عيباً أو تهمة أن يكون السياسى « فناناً وحالما عاطفيا » وأن يقتصر فقط على « الكاتب » وهذا فهم قاصر للسياسى المعاصر أو الكاتب على السواء والسياسة هى تقرير مصير الإنسان ، والسياسى

الخلاق يملك رؤية ويملك الإرادة ليحققها والسياسى لابد أن يكون حالما فنانا عاطفيا لأن قضيته هى الإنسان ، والكاتب ليس هو الذى يحلم فى برج من العاج ولكن يصوغ أحلامه ويشارك فى تحقيقها معا !

وكان هذا الفهم للسياسة هو ماجمع بين عبدالناصر وتيتو ونهرو .. مع اختلاف الواقع وجعلهم الأعمدة التى قامت عليها جبهة سياسية وحضارية عريضة هم « عدم الانحياز » .

ولم يقرأ توفيق الحكيم مراسلات الزعماء الثلاث المتبادلة وكان فى وسعه بل ومن واجبه أن يقرأها ليعرف عمق وبعد « الشخصية » كما تقضى قواعد الكتابة والسياسة وإصدار الأحكام !

يتشبث توفيق الحكيم بتحيزه « أن الإنسان أحيانا يرى الأشخاص من خلال طبيعته فهل كانت طبيعة عبد الناصر هى التهويش » ويجيب بنعم مؤكدة .

* * *

ومحور عودة الوعى والقضية الكبرى التى صدر باسمها وبسببها الكتاب هى الحرية . ويقول توفيق الحكيم « لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث نرى الأمور على مثل هذه الصورة ، العقل المصرى وقد ختم عليه بسبعة أختام فلم يجرؤ بعد على أن يخرج علنا رأى مخالف لرأى الزعيم المعبود أعوام طويلة مضت وفى مصر صحافة

وفيها مجلس نيابى وفيها اتحاد اشتراكى هو الحزب الواحد الذى يضم كل عناصر الشعب ويقال أنه أعلى سلطة فى البلاد هل سمع صوت واحد على صفحات جريدة أو كتاب أو مجلس نيابى أو اجتماع عام جرؤ على أن يبدى رأيا يختلف عن رأى عبد الناصر ؟ .. وإذا كان قد جرؤ فهل تمكنه السلطة من توصيل هذا الرأى المعارض حيث يسمعه الناس ويعرفه الآخرون ؟ أقول أن هذه ربما كانت أول مرة فى تاريخ مصر الحديث يحدث فيها أن يظهر معبود له من القداسة والعظمة والسلطة مالم يكن — يملكه الأنبياء والرسل فالأنبياء المرسلون من السماء كانوا يجدون من يجادلهم ويناقشهم ويعارضهم » .

هكذا .. ؟؟

وحرية التعبير لا يقدمها أو يوفرها أى الحكام ولكن يصنعها الكتاب وفى حوار أو صراع دائم مع النظم . ومع الحاكم .. بل ومقاومة إذا لزم الأمر . . وتاريخ حرية التعبير هو تاريخ الكتاب والمفكرين الذين وقفوا وصمدوا وقالوا لا إذا تهددت — الحرية ، وهؤلاء هم الذين يملكون حق الشهادة . بعدئذ .

وقد كان لدى توفيق الحكيم كل المقومات . . كان لديه القدرة على الحوار والصراع والمقاومة ولكنه لم يفعل ، وهو يقول فى الكتاب .

«أذكر أن صحفياً لامعاً من أصدقاء عبد الناصر زارنى يوما فى مكتبى بدار الكتب وأخبرنى أن رئيس الحكومة جمال عبد الناصر يدعونى إلى تناول الشاى فى بيته دعوة خاصة لن يحضرها أحد غيرنا . . فقلت له معتذراً كيف أذهب إلى رئيس الحكومة وما أنا إلا موظف فى درجة مدير عام فضحك وقال أنه لا يدعوك بصفتك موظفا بل بصفتك مؤلف عودة الروح التى قرأها ويقول أنها أثرت فى تكوينه الوطنى فقلت له ولو أرجوك إبعدنى عن رجال الحكم» ؟ ؟

والكاتب الذى يتصدى لقضايا السلطة والحكم . . والذى يعلن التزامه لابد أن يجادل ويحاول رجال الحكم ولا يمكن أن يبتعد لأنه لا يمكن أن يحكم عليهم أو يحاكمهم إلا إذا واجههم وعرفهم أوثق معرفة ممكنة .

وقد كان أول واجب لتوفيق الحكيم مادام الخلل قد تسرب وتهدد كل شىء أن يذهب وأن يطالب ويلح وأن يستأنف تأثيره على تكوين الزعيم ومساره الوطنى لا أن يعتصم بمكتبه ويرفض . .

وإذا كان الحاكم يسعى إلى المفكر فلا يمكن أن يبتعد هذا ويخاف ثم يقف فارسا ينعى الحرية . بعد عشرين عاما ولم يكن صحيحا أن

توفيق الحكيم يرفض المقابلات ويتشبث بالبعد عن رجال الحكم .

ويصحح « الصحفى اللامع من أصدقاء عبد الناصر » القصة فيقول .

« حدث أن أصدرت الثورة قانوناً يسهل لمن بقى له سنتان فى مدة الخدمة من الموظفين أن يحال إلى المعاش إذا أراد بمعاش كامل .. وكانت الثورة تريد افساح الطريق أمام الموظفين وتصفية موظفى العهد القديم .. واتصل بى الأستاذ توفيق الحكيم وقال أنه عرف أن الوزير قد قدم مذكرة لتطبيق القانون عليه .. وأنه لا يريد المعاش وطلب إلى التوسط لدى عبد الناصر .. وتحمست ، كيف يحال توفيق الحكيم إلى المعاش ويعامل كاتب كبير معاملة موظف حكومة .. وفاتحت الرئيس عبد الناصر .. وكان موقفه نفس الموقف وقال لا يمكن أن تحيل الثورة كاتباً كبيراً مثل الحكيم إلى المعاش .. لقد قرأنا كلنا كتبه وأثرت فينا ، خاصة عودة الروح .. ولا تسمح الثورة أن يحال الكتاب الكبار إلى الاستيداع فى عهدها .. وأضاف عبد الناصر .. إذا كان لا يؤدى أعماله الحكومية فى دار الكتب يعين له وكيل أو مساعد يقوم بهذه الأعمال .. ووقف الأهرام مع الموضوع وجعل منه قضية خاصة « المفكر ضد البيروقراطى » وأثار هذا الوزير الذى قدم استقالته وقبلها عبد الناصر . وقوفاً فى صف المفكر » .

«وجاء الأستاذ توفيق الحكيم إلى مكتبي يشكر ويطنب في الشكر، وقال أن هذا موقف تاريخي .. وأن التاريخ كله، يحوى حالات قليلة وتعد على الأصابع انتصرت فيها السلطة والثورة للمفكرين ضد الموظفين، وأن هذه من أرفعها .. وهي أفضل دليل على طبيعة الثورة ونواياها .. وطلب الأستاذ توفيق الحكيم في نهاية الحديث أن يقابل عبد الناصر .. ليقدم الشكر بنفسه، ونقلت رغبته للرئيس عبد الناصر الذى وافق وقال يحضر في أى وقت وبلغته بذلك .. ولكن استولت على الدهشة حين قال تحضرلى إذناً من وكيل الوزارة»

«وسألت مستغرباً إذن من وكيل الوزارة لتقابل رئيس الحكومة بعد أن قبل استقالة وزير بسببك وهو يوافق على مقابلتك .. وعقدت الدهشة لسانى وتفكيرى حين قال.

«نعم إذن من وكيل الوزارة. أنا موظف، ووكيل الوزارة باقي. ولكن عبد الناصر من يدرى قد يبقى اليوم ويذهب غداً».

«ولم أروى القصة لعبد الناصر ولم أناقشه بعدئذ في المقابلة .. ولم يرى توفيق الحكيم عبد الناصر إلا لحظات حينما قلده الوسام .. ثم يوم افتتاح الأهرام وكانت الشكوى الوحيدة التي شكاها إليه هي ارتفاع الأسعار في كافتيريا الأهرام .. وأمر عبد الناصر على الفور أن تكون كل طلبات توفيق الحكيم مجاناً على حساب الأهرام».

وحدث أن قابل توفيق الحكيم بعدئذ الرئيس السادات وخرجت صورة بعد المقابلة توحى بأنه سعيد كل السعادة . وقابل العقيد القذافى . واستغرق معه فى جدل طويل حول مبادىء ومناهج الحكم .

بل وظهرت صورته جنبــا إلى جنب مع الملك حسين ملك الأردن فى حوار تم فى الأهرام .. لم يكن قط قاضى القضاة الذى يذهب الحكام إلى مجلسه وبعد عناء ولا يذهب قط إليهم . !

* * *

وربما كانت الحرية فى مصر فى عهد عبد الناصر غير نموذجية وربمــا كانت القيود والحدود قائمة ومستفزة ولكن المشكلة حادة وقائمة فى الغرب كما هى فى الشرق ، وليس هناك نظام بعد يتمتع فيه الكاتب بكل حريته المطلقة .

وأزمة التعبير وأدب الاحتجاج . والأدب المطبوع على الآلة الكاتبة .. مشكلة فى الغرب حيث لا يجد الناشر ومشكلة فى الشرق حيث لا يجد الناشر ويخشى الرقيب !!

ولم يكن الأستاذ توفيق الحكيم يقرأ الصحف والمجلات المصرية التى ينبغى أن تقرأ والتى لم تنقطع فيها المساجلات والمعارك وأثيرت على صفحاتها كل القضايا ..

وفى صحف الثورة المساء والجمهورية والشعب

ولم يكن يشهد المسارح .. فنه الأول وهو يعرض أدب الثورة والتمرد والنقد الاجتماعى .. سارتر وبريخت وابسن وبرناردشو .. وفيض إبداع الكتاب المصريين الجدد .. وأغلبهم إن لم يكن كلهم ثوريون تقدميون لاتنقصهم الجرأة والوعى .

ويطيب للرجعية المصرية ألتى أمضت سنين الثورة قابعة تتربص ، أن تثير قضية الحرية وأن تجد الجرأة لتنعى على الكتاب والمفكرين المصريين تخاذلهم أمام الطغيان .

وقد تكون مهمة الكاتب هى أولا نقد الواقع ونقد الثورة .. أن ينقد الواقع حتى يتغير جذريا وأن ينقد الثورة حتى لا تقف أو أن تنحرف .. ولكن مهمة الكاتب أيضاً ليست هى الرفض المطلق والدائم . والكاتب الذى يقول لا مطلقة لا يختلف فى أثره من الكاتب الذى لايقول إلا نعم .. والكاتب الذى لايقول نعم لما هو صحيح أو مجيد لايمكن أن يقول لا لما هو باطل أو زائف .. ولم يكن فى استطاعة كاتب مصرى أن لايؤيد ويمجد الانجازات العظيمة التى تمت ، وأن ينقد فى نفس الوقت ويعارض السلبيات الكبيرة فى أقصى نطاق ممكن وقد حدث هذا دائما وبلغ الحوار ذورته بعد النكسة وطرحت كل القضايا فى مساجلات حادة ورفيعة ..

وقد دفع عدد كبير من الكتاب والمفكرين المصريين ثمنا غاليا لأصرارهم على حقهم فى التعبير والا يصمتوا قط . . وكان لديهم الموضوعية بعدئذ ليقولوا نعم . ويعرفهم جيدا توفيق الحكيم . !

وهؤلاء لايصيحون ويصخبون اليوم ولا يتباهون . . وهم يرون ما حدث يفهم أبعد وموضوعية أعمق . لقد كفلت الثورة حق التعليم لكل مواطن وبنت مدرسة كل يوم وكسرت الحصار الثقافى على مصر وذهبت البعثات إلى كل جامعات الشرق والغرب . . وهاجمت الثورة الفكر الاستعمارى والمتخلف وفتحت الطريق أمام ثقافة أصيلة جديدة . . ولم تكن هى التى تختم على عقل مصر وروحها . بسبعة أختام ولا أحد يستطيع .

ولم يكن أمام توفيق الحكيم خاصة ما يخشاه إذا ما كتب . . ويروى « الصحفى اللامع من أصدقاء عبد الناصر » .

« سلمنى توفيق الحكيم ذات يوم مخطوطاً وقال لى هذا للقراءة وليس للنشر وكرر على هذا التحذير . . وقرأت « بنك القلق » وقررت النشر وأرسلت الفصل الأول للمطبعة وظهر فى أهرام الجمعة ، وجاءنى الحكيم قلقاً منزعجاً وهدأته وقلت إذا كانت لديك الشجاعة لتكتب فإن لدينا الشجاعة لننشر » واطمأن ، وأثار النشر ضجة شديدة وسخطاً لدى بعض الأجهزة وسارعوا بالشكوى إلى عبد الناصر ، واستدعانى وكان

أيامها مريضاً فى السرير . وسألنى ماذا كتب الحكيم .. أنا لم أقرأه وقرأت له الفصل الأول وقال لى وماذا فى الأمر .. كل هذا صحيح ويستحق النقد !. وما دام كتب يوميات نائب فى الأرياف قبل الثورة فلا بد أن يستطيع أن يكتب نقداً أفضل للثورة وطلب إلى الاستمرار فى النشر وأن لا أهتم .. وتشجعت ، وبدورى كتبت المقال المشهور « زوار الفجر » وأكملنا نشر بنك القلق .

وهذا هو « الطاغية » الذى لم يترك توفيق الحكيم موضعاً وإلا وسدد إليه سهما دامياً .. وقد كان الكاتب الكبير يظن « أن الشعبية تنبع فقط من القلوب أو من صور الأمانى والوعود والأوهام والأكاذيب ، ولكن ما كنت أظن أنها يمكن أن تصنع وتؤلف تأليفا وتوزع لها أوراق هتاف كأنها نوته موسيقية للغناء » .

كانت شعبية عبد الناصر فى رأى الحكيم مصطنعة مزيفة ، صنعت بالخداع مرة وبالإرهاب مائة مرة ..

وهناك مثل سياسى مشهور يقول أن الثورة عيد الفقراء ومآتم الأغنياء ، وزعيم الثورة بطل للفقراء والكادحين ، وطاغية للاقطاعيين والرأسماليين ..

وحينما يقف الكاتب فى هذا الجانب فانه يرى وفاء الجماهير وإعجابها « صباح هستيرى » ويرى الجماهير نفسها كما يقول توفيق

الحكيم . فطبع « معين لكل جماعة منهم أربطة أول الصف أو فى الوسط وعلى رأس كل مجموعة واحد يشير إليهم بالبدء . . كما يحدث فى كورال الموسيقى وكورس المسرحيات » .

والجماهير المصرية تحمل هموم مصر ومعركتها من البداية إلى النهاية ، وهى تعيشها وتعانيها منذ أول انتفاضة فى القرن الماضى حتى حرب اكتوبر .. وقدعركتها الأحداث والمآسى والانتصارات الكثيرة وهى قد ترغم أحيانا أو تخدع بعض الوقت ولكنها بوعيها فطرتها لا تعترف بالقهر والتضليل عشرين عاما طويلة . ثم تهلل له وتمجده .. وهذا وصم لكل حركة الشعب ووطنيته فى مصر .

وقد خرجت الجماهير وهو مهزوم تطلب إليه البقاء . وخرجت بعد أن مات لتبكيه وتودعه كأعز الأبناء والأبطال . . وخرجت هذا العام فى ذكراه . لتعلن أنه لازال بطلها تماما كما كان ..

الجماهير لا تمجد ولا تظل وفية لرجل إذا « مات وترك مصر وليس لها وعى ولا حرية بل ولا كرامة إنسانية » كما يختم توفيق الحكيم كتابة ..

والجماهير لا تتشبث بالطاغية الذى ساقها بعصا غليظة أو لمحتال الذى سحرها بعصا مايستروا وبالمستبد الذى « أدمج مصر كلها فيه واستطاع أن يقنع مصر البالغة من العمر خمسة آلاف عام أن عمرها

هو عمر الثورة ونظامها وأن لا عمر لها قبل ذلك ولا بعد ذلك يستحق الذكر » .

« وهذه هي العملية البارعة لضغط مصر العملاقة ووضعها في علبة الثورة ونظامها لقد خنق مصر وأفقدها الوعي بحقيقة حجمها الهائل عبر التاريخ » .

ولهذا « كان لابد لكتاب عودة الوعي أن يكتب في يوم من الأيام » .

وليكن صحيحاً كل ماقاله توفيق الحكيم .. وهو قد استرد وعيه كاملا.. منذ يوم الأحد ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٢ وصدر الكتاب وذاع وشاع .

والكاتب الملتزم بعد عشرين عاما كالحة لابد أن ينطلق كالقذيفة لا يسكت عن حق ولا ينام على ضيم ولا يرى منكراً أمامه إلا دفعه بحياته ، إن لم يستطع بيديه أو بقلمه ..

وكان أهم ماقام به توفيق الحكيم بعد استرداد الوعي .. عريضة كتبها وطلب إلى الكتاب جميعاً أن يوقعوا عليها ، واستجابوا ثم رفعها لرئيس الدولة الرئيس السادات .

ودفع معظم الموقعين على العريضة ثمنا غالياً لتوقيعهم على العريضة ، لم يعرفوا له سبباً ، ولم ينل صاحب العريضة شيء إلا

أنه ذهب وقابل الرئيس وخرج سعيداً متفائلا . وطلب إلى باقى الموقعين أن يواصلوا النضال !

ومنذ بعض الوقت صدر كتاب وثائق حرب أكتوبر ويحوى حديثاً أجراه موسى صبرى رئيس تحرير الأخبار مع الرئيس السادات وفيه الحلقة المفقودة من القصة ، والتى لو عرفها الموقعون على العريضة لما وقعوا .

يقول الرئيس السادات :

« طلبت أن أقابل الرجل الطيب توفيق الحكيم بعد العريضة .. ولكن دهشت حينما علمت من حاتم أنه ذهب إليه يقول له لقد أردنا بالعريضة أن نهيىء له الجو إذا ما أراد المفاوضة مع إسرائيل » .

وفزع الرئيس السادات من أن يكون هذا هو هدف العريضة التى وقع عليها كل كتاب مصر .. الذين وثقوا فى توفيق الحكيم. ولم يصدر الكاتب الكبير تكذيباً أو تفنيداً للواقعة التى تمس الشرف الوطنى الذى كتب باسمه « عودة الوعى » .

ولا يسترد الإنسان وعيه ليفاوض به إسرائيل ! !

الفصل الثالث

الديموقراطية

(هناك ثلاث قضايا أثيرة لدى الرجعية المصرية في هجومها على عبد الناصر . . وهى قضية الديموقراطية والسد العالى وحرب اليمن . . وقد كانت محور البحث تقريباً في عودة الوعى) .

وقضية الديموقراطية قضية عريقة في تاريخ مصر لأنها أول بلد في الشرق نفذت إليه مبادىء الثورة الفرنسية مع حملة نابليون وعلمائها . ولأن رفاعه رافع الطهطاوى قدم في عصر محمد على أول ترجمة عربية للدستور الفرنسى (دستور الثورة) ولكتاب مونتسكيو روح الشرائع ولكثير من الأدب السياسى الفرنسى ولأن الديموقراطية

كانت حجر الزاوية فى ثورة مصر الوطنية والتى بدأت فى الثلث الأخير من القرن الماضى .

وقد قامت تلك الثورة لتحرير الحكم من استبداد الخديوى وإقامة سلطة وطنية دستورية ولتحرير الاقتصاد من ربقة الرأسماليين الأجانب وقد سيطروا على الاقتصاد عن طريق الديون وسخروه لخدمتهم .

وقد تكلل كفاح الثورة ، بتولى الوطنيين السلطة وإعداد مشروع دستور سنة ١٨٨١ ، وهو أول وثيقة من نوعها فى تاريخ الشرق وأعدت خطة مصرية لسداد الديون والإصلاح الاقتصادى والاجتماعى العام .

ولكن انتهت الثورة ، بالغزو الأجنبى ، وأسقطت السلطة الوطنية وألغى الدستور وأعلن الاحتلال أنه جاء لتثبيت عرش الخديوى وليقضى على العصاة أى (الثورة) وليضمن المصالح الأجنبية، أى استنزاف مصر .

ومن ذلك الحين لم تنفصل قضية الديموقراطية عن القضية الوطنية والاجتماعية ، وأصبح واضحاً أن لن تقوم ديموقراطية حقيقية قبل تصفية الاستعمار والاستغلال وأن يتحرر الشعب نفسه إقتصادياً واجتماعياً ليصبح أهلا لممارسة هذه السلطات !

ولم يكن الفشل فى أول معارك وتجارب الديموقراطية نهاية الكفاح ، بل على العكس ، أصبح (الدستور) أول مطالب الحركة الوطنية المصرية .

كان الدستور أحد المطالب الأساسية للحزب الوطنى وإقامة حياة ديموقراطية نيابية سليمة وظل شعار (الدستور) أول شعارات وهتافات الوطنيين المصريين .

ولم يصدر الدستور المصرى مع هذا إلا سنة ١٩٢٣ بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، وكفاح جماهير الشعب المصرى .

وقامت فى ظله أول حكومة وطنية دستورية بعد انتخابات عامة ، وتدفق فيها حماس الشعب وفاز زعيم الأمة والثورة سعد زغلول والوفد بأغلبية ساحقة ، وأصبح أول رئيس حكومة مصرية ديموقراطية برلمانية .

ولكن بعد أشهر قليلة من قيام الحكومة دخل المندوب السامى البريطانى مجلس الوزراء على رأس كتيبة عسكرية مقدماً إنذاراً شديد اللهجة وسلسلة من المطالب المستحيلة ، وأدت إلى استقالة الوزارة ، وكان ذلك لأن الضابط البريطانى (سيرلى ستاك) قائد الجيش المصرى أغتيل فى الشارع ، ولم يكن شيئاً غير عادى فى فترة عنف طويلة خلال الثورة .

وأهدرت الديموقراطية وتأكد أن السلطة فى يد الإحتلال لا زالت ولم تنتقل إلى الشعب . وقال سعد زغلول بمرارة « كانت غلطتنا أننا صدقنا أننا مستقلون » .

وفرضت بعدئذ حكومات غير دستورية ، وحكمت مصر (باليد الحديدية) أو بدستور مزور ، وأقيلت الحكومات بأمر من الملك أو ممثل الاحتلال وأقيمت الأحزاب ، وتتابع انحدار الحياة السياسية ، وتحول الكفاح إلى صراع محلى على السلطة لا كفاح وطنى ضد المستعمر .

وظل الدستور مع هذا هو حجر الزاوية وكان تاريخ مصر منذ عام ١٩٢٣ هو الكفاح لحمايته وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً . . وفشلت كل المحاولات لإلغائه أو إستبداله حتى عاد . وفى ظله أجريت آخر انتخابات عام ١٩٤٩ ، وقامت حكومة وفدية بأغلبية ساحقة . وطالبت هذه الحكومة باسم الأغلبية التى انتخبتها بالجلاء ، وبعد مفاوضات طويلة فاشلة ألغت المعاهدة مع بريطانيا ، والمعاهدة حول السودان ودعت الشعب ليستخلص حقه بالكفاح المسلح ، ولكن تطورت الأحداث ، واحترقت القاهرة ، تم أقيلت الحكومة ، إقالة غير دستورية . وتولى الملك السلطة ... وبدأت تصفية شاملة لكل القوى الوطنية .

وثبت واضحاً أن لا ديموقراطية فى مصر قبل تصفية الاستعمار

والاستغلال تماما .. لن تقوم ديموقراطية إذا كانت هناك سلطة فوق كل السلطات ، ولن تقوم إذا كان الشعب نفسه ، مستغلا مستعبداً . لا يملك الأهلية أو القدرة على الحكم .

وهذا هو جوهر قضية الديموقراطية ومعركتها الحقيقية فى مصر .

والديموقراطية لن تكون حرية بضعة كتاب ليعبروا عن أنفسهم ، والديموقراطية ليست مجرد نصوص قانونية لا تنفذ ولا تطبق ، وليست مجرد تكوين أحزاب قد تدور فى حلقات مفرغة ، ولكن الديموقراطية هى تصفية الكيانات والعلاقات الاستعمارية والاستغلالية وأن يقوم مجتمع على أسس حقيقية يمكن أن تزدهر فيه الديموقراطية .

ولهذا فأن أعظم الأعمال الديموقراطية بالنسبة لمصر كانت خلع الملك ، وتصفية الإقطاع ، وتوزيع الأرض ، وتحرير الاقتصاد .

وكانت طرد البريطانيين واسترداد السيادة وتتويج الإرادة الشعبية مصدر كل السلطات .

وكانت الوقوف فى وجه الاستعمار الجديد وأن لا يحل محل القديم ، وحتى لا يقيم حكومة ديكتاتورية عسكرية تقتلع كل جذور الديمقراطية .

وكان صدور القوانين الاشتراكية عام ١٩٦١ وبأن تنقل الثروة

وهى عاد السلطة من أيدى المستغلين والمستبدين إلى أيدى الشعب ليملك ويحكم فعلا .

وهذاهو السجل والذى لا يقارن به أى سجل آخر فى تاريخ مصر .

ومع هذا فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد طرد الملك عقد أول اجتماع لمجلس الثورة ، وطرح فى هذا الاجتماع شكل الحكم الجديد ، وهل يكون ديموقراطياً أم ديكتاتورياً .. وأجمعت الأغلبية على الرأى الثانى ، وأن هذا ضرورة وحتمية ، ولتصفية الميراث الثقيل القائم ، ولكن خرج على هذا الاجتماع إثنان هما جمال عبد الناصر رئيس المجلس وخالد محيي الدين ، وحينما أصرت الأغلبية على رأيها قدما استقالتهما وخرجا ... وأسرع كل الأعضاء إليهما وسويت المسألة .

ومن بعدها أصبح شعار الثورة هو (نحن نحمى الدستور) أن الثورة لن تحكم ولكن سوف تهيىء أفضل الظروف لتقوم حياة سياسية ديموقراطية صحيحة .

ودعت الثورة الأحزاب والتنظيمات القائمة للتفاهم والتعاون ، وأن تبدأ صفحة جديدة .. كانت الثورة قوة فتية جديدة حققت المهمة .. وهى كانت تعبيراً عن قوى واتجاهات متآلفة ومتحالفة ، وحافظت على وحدتها واستقلالها ذاتيتها لتكون لها دائماً كل حرية الحركة .. ولكن ما لبثت أن وجدت كل الأحزاب والتنظيمات

تريد أن تفرض وصايتها لا أن تتفاهم .. تريدها أن تكون أداتها الضاربة وأن تكون تابعة لها .

وفى سنة ١٩٥١ أعلن الوفد حزب الأغلبية والحركة الوطنية .. الكفاح المسلح ودعا الشعب إلى استخلاص حقوقه بنفسه .. ولم يعد الكفاح السياسى أو الدبلوماسى مجدياً .. وتسابقت كل الأحزاب الوطنية والثورية إلى الدعوة لحمل السلاح .. ولإعلان الجهاد العام .. ثم تطور الأمر إلى منافسة ثم إلى مزايدة وقام صراع وتبادل الإتهام بالعجز والتقصير فى تنظيم الكفاح .. ومع هذا لم يستطع حزب الأغلبية أو الأحزاب منفردة أو مجتمعة أن تقدم الصيغة والطليعة التى تعد حرب التحرير وتقودها كما كان يحتم الموقف ..

وخلال الأيام العصيبة عرض الضباط الأحرار خطة على الوفد تقضى بخلع الملك والاستيلاء على الجيش وإعلان انضمام القوات المسلحة إلى الجماهير ، وشن الحرب الشاملة .. ولكن تشكك الوفد ثم رفض وكان السبب أنه يؤمن بالملكية الدستورية لا زال ..

وكان العرابيون يريدون خلع توفيق وإعلان الجمهورية قبل ذلك بسبعين عاماً .

وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، أحرقت القاهرة وكان عملا نموذجياً من أعمال الاستعمار حينما تبلغ الأزمات ذروتها .

وفى رواية مشهورة « القنصل عند غروب الشمس » لكاتب انجليزى جيرالد هنلى ، حول سقوط الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس ، قال الحاكم البريطانى . عند اشتداد الأزمة فى مستعمرة أفريقية «لتشمل حريقاً كبيراً وليلتهم كل شىء . . ويفاجئهم ويتركهم مذهولين . . يتركهم لا يدرون كيف حدث ولا ماذا يفعلون بإزائه . لتشمل حريقاً كبيراً الآن . وقبل أن تفوت اللحظة . . قبل أن تغرب الشمس » .

واحترقت القاهرة . . وشلت إرادة كل الأحزاب . . تماماً كما يتمنى « القنصل » .

ولم يتقدم حزب أو قيادة من أى ركن ليبطل مفعول الحريق . . ويعلو على الموقف ويمسك بزمامه . ويمضى بالانتفاضة إلى الثورة ولو حدث لكان القائد والبطل حتى الآن .

ولكن عجزت الأحزاب جميعاً وقبلت مستكينة إعلان الأحكام العرفية وحظر التجول ثم بدأ الإرهاب والتصفية الإنتقامية .

وحدثت الثورة واليأس يكاد يلف كل شىء ويقطع آخر أمل . . وانتفض الشعب . كمن انتشل من هوة سحيقة . . وتدافعت الملايين تؤيد الثورة . . ولكن بدأت حسابات قيادات الأحزاب ، كيف يتقبلوا قوة وقيادة جديدة . ويتبعونها ولا تتبعهم . وكيف تتوزع

السلطة بين الذين قاموا بالفعل وبين الذين فشلوا فى القيام به . وفى أى طريق تسير السلطة ومن الذى يحدد هذا الطريق . . برنامج الثورة أم برامج الأحزاب .

واشترط الوفد للتعاون أن تعدل الثورة عن إصدار قانون الإصلاح الزراعى ، وأن تستبدل به الضرائب التصاعدية ، وكان الوفد هو حزب الشعب ، وقاعدته الأولى هى الريف !

واشترط الإخوان المسلمون للتعاون الحكم بالدين ولم يكن هناك تفسير أو تطبيق واضح للدين يحكم به ، أو برنامج محدد يقدمونه .

وانقسم الشيوعيون ، وكانوا حلقات وتنظيمات عديدة إلى من قبلوا التعاون على أن تتجه الثورة يساراً ، والذين رفضوا تماما لأن الثورة مؤامرة أمريكية لاجهاض الثورة الشعبية .

ورفض الاشتراكيون الديموقراطيون إلا اذا وجد (الزعيم) مكاناً فى الصدارة من الثورة .. يكون جديراً بزعامته .

وفشلت محاولات التعاون والتفاهم . . وبدأت الأزمة ونشب الصراع الداخلى مع الأحزاب .

وجدت الثورة أن لابد أن تتولى السلطة كاملة لتحمى نفسها

وتنفذ الأركان الأساسية لبرنامجها.. ولكى تواجه مناورات ومؤامرات السياسيين المحترفين المحنكين .

وردت الأحزاب بأن اجتمعت وتحالفت ، وقررت العمل المشترك لاسقاط الديكتاتورية العسكرية .

وتسللت الأحزاب إلى صفوف الثورة واستطاعت أن تشقها ، وأن تجتذب إلى صفها (محمد نجيب) الضابط الكبير الذى وضعه الضباط الثوار كواجهة .

وقررت الأحزاب العمل المباشر والنزول إلى الشارع لإسقاط الثورة جماهيريا ، وسارت المظاهرات تهتف بسقوط الدكتاتورية العسكرية وعودة الضباط إلى الثكنات ... وتم لها ما بدأ أنه نجاح عظيم ، فقد اجتمع مجلس قيادة الثورة وسط أزمة حادة عصبية ، وقرر الاستجابة والانسحاب وتسليم السلطة إلى السياسيين .

وتحرك الضباط الأحرار وقامت القوى الوطنية والشعبية لترد على المؤامرة وأعلن الإضراب العام ، وعادت الثورة وانتصرت .. بعد أن تعلق كل شيء بخيط دقيق .

ولم تكن الأزمة عام ١٩٥٤ معركة بين الديموقراطية والديكتاتورية ولكن بين التقليدية والراديكالية . وبين الثورة والمحافظين ، وكانت آخر محاولة للنظام القديم للبقاء . . أو لاحتواء الثورة .

وكان حتما أن تفشل .

كانت مصر فى حاجة إلى قيادة جديدة لتواجه بها عصراً مختلفاً وعالماً عاصفاً ، أنتهى عالم ما بين الحربين ، ولم تعد قيادة الباشوات والبكوات الوطنيين تصلح.. وولدت قوى جديدة ذات مثل وأمانى طموحة وتريد تحقيق مصر التى تحلم بها .

كان عصر ثورة التحرير العالمية .. والمعركة النهائية ضد الاستعمار وكان عصر الكتل والدول الأعظم ، وانقسام العالم إلى معسكرين متواجهين.فى حرب مذهبية وسياسية واقتصادية باردة ، ولكن شاملة .

وكان عصر الثورة التكنولوجية ، ثورة الذرة والإليكترون . . والآلات والأسلحة التى خرجت منها .

وكانت مصر فى حاجة إلى قائد من طراز جديد يعيش روح العصر ، ويحمل كل هموم مصر ويستطيع أن يحسم قضاياها عبر صراعات وأعاصير هذا العالم المتلاطم .

ومصر تنجب دائماً رجلها فى الساعة المناسبة وكان طبيعيًا أن تنتقل إليه السلطة شرعية وكاملة .

وقد أدركت عناصر وقوى سياسية كثيرة ومن كل الاتجاهات بعد عام ١٩٥٤ عجزها أو خطأها واعتزلت ، أو صححت مواقفها ، أو انضمت إلى مجرى الثورة . ولكن القيادة المتطرفة المتعصبة

من الإخوان وهى التى لعبت الدور الأساسى فى الأحداث لم تقبل النتيجة ولم تصدق أنها خسرت .

وقررت أن تجرب سلاحها الذى اعتمد عليه الإخوان المسلمون من البداية وكان يؤدى بهم من فشل إلى فشل آخر وكارثة أشد وهو الإرهاب .

وقد قامت الثورة وتمت بيضاء ، بغير دم ، وبقى الصراع حتى فى أشد أوقاته سياسياً . ولكن أنهى الإخوان المسلمون هذا الطريق . ودبرت مؤامرة اغتيال جمال عبد الناصر بالاسكندرية وفشلت فشلا أنكى وأمر وكان نهايتهم من الحياة السياسية فى مصر وخرج عبد الناصر بطلا اهتزت قلوب الشعب والتفت حوله . . لفظاظة وحماقة الفعل .

وتتالت وتفاقمت المواقف والنتائج . أصبحت حماية الثورة ضرورة أساسية ، تتقدم كل الاعتبارات .

ورسبت عقدة عميقة ضد الأحزاب والحزبية . . ونفذت شخصيات كثيرة من البيروقراطيين . . والتكنوقراطيين ومن الانتهازيين إلى الثورة بعد إبعاد (السياسيين) وإلغاء الأحزاب .

وتولى العسكريون كل السلطة وكل المناصب وبدأ مولد فئة

حاكمة جديدة (بورجوازية عسكرية) متحيزة ضد الحركة السياسية .

وأقامت الثورة تنظيما سياسياً هو هيئة التحرير تحول إلى الاتحاد القومى ، ولكن ظلت تنظيمات (إدارية) تقام من أعلى ومن مواقع السلطة ، وللدفاع ضد بقايا الأحزاب أكثر منها لاستقطاب واستيعاب الجماهير .

وكانت هذه هى مشكلة الديموقراطية الحقيقية .

وقامت علاقة من نوع فريد مباشرة بين القائد وبين الجماهير .. وأصبحت حركة الجماهير .. ثائرة متفجرة ولكن خارج إطار التنظيمات .

واشتدت المشكلة تعقيداً باحتدام الصراع الخارجى والعربى ضد الثورة .. ولم تكن الأحزاب المصرية وحدها هى التى سعت وسارعت إلى احتواء الثورة والاستيلاء عليها .

وقيام نظام ما فى مصر ، لا يقف أثره أو مغزاه عند حدودها ، بل يمتد إلى أبعد من ذلك بكثير .

وقد كان الاستعمار الجديد يريد احتواء الثورة ، لتكون النظام العسكرى الذى يحكم به حكم (كولونيلات) وقد تخصص فى فرضه على شعوب أمريكا اللاتينية ، ويريد نقله إلى الشرق العربى .

وكان الاستعمار القديم .. يريد احتواء الثورة ، وأن يجعل منها النظام الذى يعتمد عليه المحافظون البريطانيون فى الإبقاء على الامبراطورية فى الشرق الأوسط .

وكانت إسرائيل تريد اجتذاب واحتواء الثورة ، لتكون النظام القوى الذى يستطيع أن يفرض الصلح والإعتراف على كل العرب .

وكانت الرجعية العربية تريد احتواء الثورة ، ربما أكثر من أى طرف آخر ، لأن قيام نظام ثورى فى مصر ، يعنى . سريان الخطر إلى كل العالم العربى .

وحينما رفضت الثورة الإغراءات وكل التهديدات تحالفت كل هذه القوى ، ونسقت كل متناقضاتها .. ووضعت الخطط لإسقاط الثورة .

وبدأت الأجهزة وأقلام المخابرات تفكر وتدبر وتعد مشاريع الإنقلاب ، والغزو من الداخل والخارج .

وكان لابد للثورة من أمن وحماية داخلية تواجه الخطر الهائل غير المتكافىء .

وحينما تبدأ حرب الأجهزة لابد أن تعانى الديموقراطية . وكان هذا هو الوجه الثالث للمشكلة .

وتبدأ الثورات دائماً بيضاء . الثورة أنبل الأعمال ، ولكن

لاتلبث أن ترغم على الدفاع الشرعى عن النفس . . بالدم .

وقد بدأت الثورة الفرنسية سياسية سلمية فى ملعب التنس ، ولكن الرجعية الفرنسية والأوروبية أغرقتها فى بحر من الدماء، وكان كل ضحايا الثورة الروسية ستة قتلى ، ولكن الرجعية العالمية ، شنت حربا صليبية عليها وسال محيط من الدم .

ومع هذا فإن ماحدث فى مصر لم يكن مماثلا ، ولا يقارن .

وبهذا لم يجد عبد الناصر فى مصر ديموقراطية مزدهرة قضى عليها وقمعها ، ولم يكن حكما ضد إرادة الجماهير وعلى أشلائها . . بل على العكس تماما ، فضح جمال عبد الناصر الديموقراطية الزائفة العاجزة التى كانت قائمة وحطم العوائق التى كانت تقف بين الشعب وأن يمارس كل حقوقه وحرياته .

وليس هناك حق أو مبرر واحد للطبقات القديمة والمخلوعة التى يعلو صوتها الآن أن تتحدث باسم الشعب أو عن ديموقراطيته وحريته.

لقد كانت هذه الطبقات تملك كل السلطة والثروة لسنين وحقب طويلة .. وقد استعبدت الشعب وأذلته وقهرته .

وهذه الطبقات هى التى حكمت فى حماية الاحتلال ، والتى احتكرت كل الثروة وكل السلطة ، وحرمت الشعب من كل الحقوق والحريات .

وليس من حق أى الفئات والطبقات التى كانت ذات يوم وطنية أن تنعى على عبد الناصر ديكتاتوريته وأن تطالب اليوم بالحرية والديموقراطية.

لقد كان الوفد حزب الأغلبية وحزب الديموقراطية، ولكن كانت حكومات الوفد تقال بخطاب من جلالة الملك أو إشارة من المندوب السامى فترضخ للاقالة، وتتقبل الأمر، وكانت تنزوى حتى تتأزم الأمور ويستدعى الوفد وتجرى الانتخابات، ويتسلم السلطة، ويظل حتى تخرج المؤسسة الحاكمة من الورطة .. ثم يقال الوفد مرة ثانية. وبنفس الرضوخ والاستسلام.

وقد كان آخر عمل للوفد فى السلطة، وآخر القرارات فى سجله والذى خرج به نهائياً من تاريخ مصر هو إعلان الأحكام العرفية يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة، ثم قبول إقالة جلالة الملك لحكومته وهى حكومة قد انتخبت قبل ذلك بعامين بأغلبية ساحقة دهش لها الوفد نفسه وكانت تعبيراً عن الوعى ومدى التحدى.. وذهب الوفد طائعاً، وسلم السلطة إلى الملك والاحتلال، ولم يفته أن يؤكد تمسكه بالملكية الدستورية. كان إشهاراً للعجز والإفلاس فى أشد اللحظات حرجاً..

وفى الصراع بين وطنيته وشعبيته .. اختار الوفد ممثلا فى

سكرتيره العام مصالحه الطبقية وانضم لكل الاقطاعيين غير الوطنيين من أجل الأرض وضد الإصلاح الزراعى .

والحزب الذى عجز عن تحقيق الاستقلال أو حماية الديموقراطية أو تمثيل الشعب ، لا يحق لفلوله .. الآن أن ينعوا الديموقراطية .

ولم تكن الديموقراطية لتقوم قبل تصفية المجتمع القديم .. قبل تصفية الاستعمار والإقطاع ، والقضاء على الإحتكار والرأسمال الأجنبى وإقامة الاشتراكية .

ولم يكن هذا ليتم بالحوار بين الثورة وبين المستعمرين والمستغلين ، كان لابد أن يتم بالقهر والقمع .. وقد وقع معظمه على من يستحقونه ومن قمعوا وقهروا الناس أزماناً طويلة ، ولكنه وقع أيضاً على بعض الأبرياء ، وتجاوزت بعض الأجهزة والسلطات حدود الشرعية والإنسانية ، ولكن هذه ضريبة محتومة ربما فى كل الثورات وثمن التغير والتحول الكبير .

وما حدث فى مصر رغم عدم شرعيته ، كان فى أضيق الحدود ولم يتجاوز حالات تعد على الأصابع .. ولم يكن قط فى وطأة ماحدث فى ثورات عالمية ، أو ماحدث فى انتفاضات وثورات عربية قريبة .

وهو لا يمكن أن يتخذ ذريعة ، للتنديد بالعهد والثورة عامة وأنها

لم تكن سوى سجن واحد كبير لتعذيب الأبرياء والأحرار .

ولم يصدر الذين يصيحون حول القهر والبطش والتعذيب ، كتابا يضم هذه الحالات ويعددها ، ويفصل ظروفها ، لأنها كانت حالات معدودة وشاذة ، وقد اتخذت الإجراءات القانونية ضد الذين ارتكبوها حينما كان ذلك مستطاعاً ، وحوكم ستة من كبار الضباط بعد حادث أحد القادة الشيوعيين وفصل مدير السجون .

وأجهزة القمع والأمن قديمة عتيقة فى مصر وهى ذات تراث وتاريخ طويل ، وتسبق كثيراً على الثورة .. وقد وجد البريطانيون تراثاً حافلا واضافوا إليه كل خبرة الامبراطورية وخاصة فى بلد لم يشعروا قط بالأمن والاطمئنان فيه .

وقد كان كثير من رجال أجهزة الأمن والقمع من العهد القديم ومن تلاميذ المدرسة البريطانية .. وكثير منهم كانوا معادين للثورة ، وكثيرون منهم كانوا مرضى بأمراض المهنة وهى عادة (السادية) وكانوا يتصرفون بدافع أمراضهم أو رغبتهم فى تشويه الثورة والنكاية بها .

والتغلب على انحرافات أجهزة الأمن مشكلة المشاكل لكل الثورات وهى تتغلب عليها — لو استطاعت — بأن تعهد بها إلى

أفضل العناصر سياسياً وخلقياً . . وتضع كل هذه الأجهزة تحت الرقابة الشعبية والسياسية الدائمة للحزب وأجهزته .

ولم يكن ذلك ممكناً تماماً أو على الوجه الأكمل فى الثورة وترك ثغرة مفتوحة لعدد من الانحرافات لم تكن بلا شك من طبيعة الثورة التى لم يكن من أهدافها . . التنكيل بالشعب أو بأى أحد . .

ولم تكن الثورة أيضاً تأكيداً للديموقراطية لتحل كل الأجهزة وتصفيها وتترك مصر مستباحة لكل المؤامرات والانقلابات التى كانت لا تنقطع محمومة للاطاحة بكل النظام .

ولقد كان الحل الوحيد والأمثـــل لمشكله (البوليسية) والبيروقراطية هو بناء الحزب والتنظيم وهو الذى (يسيس) هذه الأجهزة ويضمن سلامتها ويقوم رقيباً عليها . . ويمكن أن يحول دون انحرافاتها .

ولكن بناء الحزب والتنظيم السياسى كان أشق المهام قبل الثورة . . وهو أشق بعدها .

ويقوم الحزب أو التنظيم ويبنى فى اختبار واحد هو الوصول إلى السلطة ثورياً أو دستورياً . وبالكفاح المسلح أو الكفاح السياسى وفى كلا الحالين بتأييد الجماهير .

وإذا ما قامت الثورة بغير طريق الحزب أو التنظيم السياسى ، فأن من أشق المشاكل بنائه بعدئذ ولا يتم إلا ، خلال اختبارات وامتحانات كثيرة وعسيرة .

وإذا ما قامت مؤسسة أو تنظيم آخر غير الحزب بالثورة فأن من الصعب أن يسلم كل شىء إلى سلطةأخرى لا يثق بها كل الثقة .

وقد كان عبد الناصر بطلا تاريخيا .. يصنع التاريخ ، ويمنح الجماهير كل الإيمان والثقة ، وكانت مشكلة الحزب ، والتنظيم ، تبدو خلال حياته ثانوية ، أن كل الضمانات موجودة ومكفولة فى شخصه .

وحينما كان لينين حياً كان هو الحزب والدولة والسلطة ، حينما كان غاندى حياً كان هو حزب المؤتمر ، وكل الهند ، وحينما كان روزفلت حياً كان هو الحزب الديموقراطى وهو الحكومة الأمريكية وكل شىء .

وهذه الشخصيات التاريخية تجسم فى وجودها كل شىء وتحجب كل شىء لأنها تصنع التاريخ وتغيره .

ولم ينفذ أحد إلى قلب وعقل الجماهير فى مصر وخارجها مثل عبد الناصر وكان يبدو الحزب والحكومة والجيش والتاريخ كله . .

وكان قيام الحزب أو عدم قيامه يبدو فى وجوده سواء .

وزاد المشكلة تعقيداً أن الأحزاب قد عمقت من معاداتها للسلطة رغم هزيمتها وانحسارها .

وخلال حرب سنة ١٩٥٦ ذهب عدد من ممثلى الأحزاب القديمة إلى عبد الناصر يطلبون إليه التسليم للبريطانيين إنقاذاً لمصر .

ومضى الإخوان فى عدائهم حتى إعلان كفر الثورة .. أن الثورة قد ردت المسلمين إلى الجاهلية وحكم الطاغوت ، ولهذا أصبح ضربها والجهاد ضدها هو أول الفرائض وأوجبها .

وتعثر الشيوعيون وتخبطوا من أسبوع إلى أسبوع فى تشخيص الثورة وتفسيرها وتحديد موقف منها ، وهى أحياناً وطنية وثورية واشتراكية وأحياناً بورجوازية وانقلابية ديكتاتورية وعميلة .

لم يكن هناك التصاق بالواقع أو فهم نظرى أو تطبيق له .

وكان ذلك يرسب العقدة المزمنة ضد الأحزاب والحياة الحزبية أو التنظيمات . وقد كانت الثورة ديناميكية تتطور تطورات سريعة . من الوطنية المصرية إلى القومية العربية ، ومن الرأسمالية الحرة إلى الرأسمالية الموجهة إلى تدخل الدولة فى الاقتصاد المختلط إلى الاشتراكية وكان التنظيم السياسى الذى تقيمه الثورة لايلبث أن يبدو متخلفاً عن مهمته .

وقد بدت الفرصة حقيقية ومواتية بعد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية وصدور الميثاق وإعلان الاتحاد الاشتراكى سنة ١٩٦٢ ، ولكن مقاومة البورجوازية التقليدية ، البورجوازية والعسكرية الجديدة ، اشتدت ونشب الصراع المستميت ضد الاشتراكية وعملت القوى المضادة على تجميد الميثاق كأساس فكرى وإلى الإستيلاء على الاتحاد الاشتراكى من الداخل وعرقلة قيامه .

وقد قامت أفضل الظروف لقيام التنظيم السياسى بعد عام ١٩٦٨ ، بعد سقوط البورجوازية العسكرية نهائياً ، وبعد عودة العسكريين إلى مهامهم الحقيقية بعد تفجر قوى الجماهير .

وقد صدر بيان مارس سنة ١٩٦٨ وأجريت الانتخابات ، وقام تنظيم سياسى جديد ، وتفاعلت وتحالفت فيه كل القوى . كان بداية يمكن أن تؤدى إلى أفضل النتائج ولكن مات عبد الناصر .

والمتباكون على الديموقراطية والحرية .. لا يريدون ديموقراطية حقيقية تبقى وتدوم وتتطور ولكن مجرد حرية وديموقراطية الهجوم على عبد الناصر وعلى حكمه . مجرد ديموقراطية الهجوم على الثورة التى قام بها .

ولا يعنى هذا كله أن كل شىء كان على أفضل أشكاله خلال عهد عبد الناصر وأن ليس هناك ماينقد .. على العكس تماماً .

ولكن الفرق بين النقد والرفض بعيد ، والفرق بين النقد الذى يريد العودة إلى الماضى وبين النقد الذى يريد المضى بالأشياء شوطاً أبعد .

وهناك فرق بين النقد الموضوعى ، وبين الهجوم السطحى المغرض .

والنقد باسم الديموقراطية لا يمكن أن يكون حقاً لكاتب ، لم يخل أى كتاب من كتبه من المهانة والإزدراء لكل ماهو ديموقراطى .. من الحوار بين (محسن) و (إيفان) حتى تأملاته فى السياسة وبكل سجله فى العمل فى أخبار اليوم .

ولا يمكن أن يكون حقاً لكاتب سكت عشرين عاما طويلة عن كل الانحرافات ، ولم يكلف نفسه عناء النصيحة بأى شىء من أجل ما يعتقد أنه الشرعية والديموقراطية . ولم يتكلم إلا بعد أن أصبح الحديث سهلا ورخيصاً .

والنقد باسم الديموقراطية لا يمكن أن يكون لحساب الطبقات المعادية للشعب وذات السجل الحافل باستبداد واستغلال الشعب ، كل الشعب .

ولا يمكن أن يكون لحساب القوى المعادية للاشتراكية ، والتى

ترى فى الاشتراكية أساس كل المصائب والنقائض والتى ترى أن الديموقراطية هى استرداد الأرض واسترداد ، المصانع ، وتصفية المكاسب الاجتماعية والاقتصادية للشعب .

إن النقد باسم الديموقراطية لا بد أن يكون لحساب الجماهير أى تعبئتها وتنظيمها وتوعيتها لتستكمل كل حقوقها ، النقد لمزيد من الاشتراكية ، ولتصحيح التطبيق الاشتراكى ، ولتصفية كل المفاسد والانحرافات التى لحقت به

والنقد باسم الديموقراطية . . يعنى المزيد من تصفية كل القوى المعادية للديموقراطية والاشتراكية ، وأن تكون كل الحرية للشعب .

والنقد باسم الديموقراطية ، لا يقف عند حد مهاجمة عبد الناصر ، والتدنى فى هذه المهاجمة ، ولكن لا بد أن يعنى وخاصة لكاتب مثل توفيق الحكيم . . تقديم الطريق أو على الأقل المساهمة العلمية الموضوعية فيه بتعريف علمى للحرية والديموقراطية وطريق عمل صحيح إليها فى ظل واقعنا القائم .

ولا شك أننا نستطيع أن ننقد عبد الناصر لأنه لم يحقق المعجزة ، رغم كل شىء ويقيم الحزب أو التنظيم السياسى الثورى والجماهيرى ،

والذى يكون الوريث الشرعى لثورته والحارس العام عليها . . والذى يكون أيضاً الحزب الأم للثورة العربية .

ونستطيع أن ننقد عبد الناصر أنه لم يبن تنظيمات شعبية ونقابية . . تستطيع أن تجمع العمال والفلاحين والمثقفين وتعمق قواهم . . نقابات عمالية ونقابات زراعية . . واتحادات تعاونية . . ونقابات مهنية . . وظلت البيروقراطية والبوليسية تعشش فى هذه التنظيمات .

ونستطيع أن ننقد عبد الناصر لأنه وقد قرر الاختيار الحاسم للاشتراكية لم يوجه ضربات أشد تقتلع القوى المعادية للاشتراكية ، ولا تسمح لها أن تطل مرة أخرى بعد وفاته وعلى هـذا النطاق . . وكان هو الوحيد الذى يستطيع أن يوجه هذه الضربات .

ولكن مالا يمكن أن يدعيه أحد أن جمال عبد الناصر قد قهر الجماهير وسحقها وأبعدها عن العمل السياسى . أن الجماهير التى خرجت معه غداة الثورة أو التى خرجت معه فى مارس عام ١٩٥٤ أو التى خرجت معه يوم تأميم القناة ، أو يوم تقديم الإنذار البريطانى الفرنسى سنة ١٩٥٦ ، أو يوم ٩ و ١٠ يونيه تتشبث ببقائه .

والجماهير التى خرجت يوم جنازته كلها تشيع رجلها الذى ذهب . ولم يبق له حول ولا طول .

والجماهير التى لا تزال وفى مواجهة هجمات ضاربة ترد وتحمى كل تراثه .هذه الجماهير ليست للعبرة مسحوقة .

أن أحداً فى تاريخ مصر أو فى تاريخ العرب وقليل من زعماء العصر من تغلغل فى قلوب الجماهير مثل جمال عبد الناصر .

ويوم مات وقفت الحياة فى كل العالم العربى واقتلعت الأعرابيات فى صحارى مصر الخيام وهو ذروة الهلع والكارثة ونكس المحاربون فى فيتنام أعلامهم حداداً .

ولكن خرج توفيق الحكيم . . لكى يعلن أنه لم يكن أكثر من طاغية فاقد التوازن ، وأنه بطش بكل شىء وهدمه ، وبدأ بالشعب وحرياته وحرماته وأن (العقل المصرى ختم عليه بسبعة أختام) وأصبحت مصر دولة بلا كرامة ولا حرية !

الفصل الرابع

السد العالى

والقضية الثانية التى استرد توفيق الحكيم وعيه بشأنها هى السد العالى .

وتوفيق الحكيم ليس مهندساً ، وليس اقتصادياً ، وليس خبيرا فى السدود ، وهو لم يزر السد العالى ويعايش إنشائه ، ربما مرة واحدة وزيارة سريعة وكانت كافية ليكتب أنشودة ويمجد فيها تحول مجرى النيل واهب النعم . . وذلك عند الاحتفال بافتتاح السد .

ولكن بعد موت عبد الناصر ، بدأت حملة بكل الحجج والذرائع ضد السد . . بل واعتبر أخطر ما خلف العصر من كوارث .

ولم يعلن أحد رأيه صراحة أو يطرحه للجدل ، ولكن باسم

العلم والفن الهندسى تحدث مهندسون كبار « سابقين » وتحدث باسم الاقتصاد اقتصاديون ، وباسم الزراعة المصرية العريقة زراعيون وباسم نهر النيل طاقم كامل من العهد القديم ... لقد ضاعت مصر سياسياً وهندسياً وبالطبع اقتصادياً ببناء السد . وأدلى توفيق الحكيم بدلوه وقال أن « مشروع السد العالى كان موجوداً فى أدراج حكوماتنا السابقة ويبدو أنه فحص ولم ينفذ إما لضخامة تكاليفه وإما لأسباب أخرى لم تكشف لنا بوضوح ولم يسمح بمناقشة علنية مفتوحة ليعرف الناس الرأى وضده ولكن الثورة تبنته وآمنا به جميعاً ولم يسمح لأحد بمعارضته ولم نسمع بأحد عارضه إلا مهندس كبير هو الدكتور عبد العزيز أحمد ويظهر أنه أحس بغضب الثورة عليه فغادر البلاد » .

وفى بضعة سطور ساذجة لخص الكاتب الكبير كل شيء وشكك فى كل شيء .

والسد العالى أقامه عبد الناصر وسيظل من أعظم الشواهد على عصره . . وكتب أحد الأمريكيين « كينث لوف » عنه قائلا :

« لا أحد يذكر سياسات أو سياسيين فى عصر الهرم الأكبر وخوفو . . فقط يذكرون « خوفو » وسوف يذكر عبد الناصر ويمجد طالما بقى السد » ولهذا لابد من وصمه وتلوثه .

والسد العالى بناه المصريون ، وضرب مثلا لقدرة مصر وشعبها على كسر الحصار الاقتصادى ، وعلى إنشاء الأعمال التى كان الغرب يحتكرها ويكفى هـذا ليثير مرارة كل هؤلاء . وأقيم بالتعاون مع الاتحاد السوفييتى . . وهذا وحده أم الكبائر !

وقد بدأت الحملة على السد بسلسلة مقالات نشرتها مجلة أمريكية بعد موت عبد الناصر بقليل . . وأصبحت حديث المجالس والدوائر فى مصر « البورجوازية » وتصدى الخبراء المصريون والسوفييت وفندوها تماماً . . بل واشترك خبراء أمريكيون فى الرد ولكن الهجوم لم يكن علمياً أو هندسياً بل سياسياً .

ومشكلة مصر الأولى والأخيرة هى الفقر . . وتتمتع مصر بالمركز الثانى بعد الهند فى هذا . بحر من الجوع كانت مصر تتميز به ويصدم المصرى أو الأجنبى . وكان البحث عن مخرج منه هدف كل انتفاضات وثورات الشعب !

وقد كان فقراً مفتعلا ، لأن مصر لم تكن بلداً فقيراً ، وهى تملك أرضاً من أخصب أراضى العالم وتملك أرضاً مثلها تستطيع استصلاحها ، وتملك مصر كل مقومات الصناعة ، ويمكن أن تكون قاعدة صناعية رئيسية فى المنطقة . وتقع مصر على طرق

التجارة والتبادل الرئيسية فى العالم وتملك شرياناً أساسياً للملاحة والتجارة هو قناة السويس . ولدى مصر تراث تاريخى وحضارى يمكنها من أن تكون بلداً سياحياً مفضلاً وتنعم بجو مناسب صيفاً وشتاءاً .

وأهم من هذا كله تملك مصر شعبها وبكل الخبرات والمهارات والمواهب ، المهندس المصرى والطبيب المصرى والمعلم المصرى . ثم الفلاح والعامل المصرى .

ولكن إفقار مصر وشعبها كان سياسة مقررة ، لابد أن تظل مصر فقيرة لكى تظل أسيرة .

وقد كان كسر هذا الحصار يتطلب تصفية الكيان الاقتصادى « الاستعمارى » ثم توفير عنصرين أساسيين لبناء إقتصاد وطنى حديد ، الماء للزراعة ثم الكهرباء للصناعة .

وكان هناك مشروع يستطيع أن يحقق كلا المطلبين ، وكان مشروعاً سابقاً على الثورة ولكنه ظل محفوظاً فى الملفات إذ قاوم البريطانيون تماماً إنشاءه . .

وقد أقام البريطانيون خزان أسوان وأقاموا عددا من القناطر والترع . ولكن فى إطار مزرعة القطن الملحقة بمصانع لانكشاير . .

ووقفوا ضـد كهربة خزان أسوان نفسه والذى أقاموه . لـكى لا تتوفر الـكهرباء التى توفر مقومات الصناعة . .

كانت المعادن فى صحارى مصر ، وكان المسح الجيولوجى الجزئى الذى تم ، يثبت توافر العديد منها وفى مقدمتها الحديد . ولـكن الثغرة الأساسية كانت القوى المحركة ولهذا كان الاعتماد على الـكهرباء ولـكن كانت القاعدة فى السياسة الاستعمارية أنه إذا قويت مصر وشبعت سوف تتمرد وتتحرر .

وبعد الثورة بقليل تقدم صاحب مشروع السد العالى بمشروعه ومرة أخرى أحيل للبحث الدقيق وكانت الدراسات والأبحاث السابقة عليه كثيرة ، وتبين أنه أفضل المشاريع القائمة . وتقرر البدء فى إنشائه .

وفى ذلك الحين كانت سياسة احتواء الثورة فى ذروتها ، وكان الغرب واسع الآمال فى إمكان اجتذاب النظام الجديد ولهـذا تقدم يعرض المساهمة فى إنشائه لربط الاقتصاد المصرى كله بفلك الغرب . . وتقدم البنك الدولى يعرض بدوره أن يساهم فى المشروع الـكبير . .

وتولى خبراء العالم كله فى السدود دراسة المشروع وألف البنك الدولى لجنة لدراسة كل نواحيه الفنية والاقتصادية . وأجمعوا على

صلاحيته . بل على أن ليس لمصر وسيلة أفضل لحل مشاكلها الأساسية .

ولكن تبين بعد ذلك بقليل أن مصر تريد أن تبنى السد لحسابها وتدعيما لاستقلالها وأنها لا تريد وضع سيادتها أو اقتصادها فى قبضة أحد .

وقررت الدول التى كانت متحمسة لإقامة السد العالى رفض التعاون فى إنشائه فجأة وأصدرت الولايات المتحدة بيانا كان فريداً فى إهانته لمصر وفى دعوته الشعب المصرى لإسقاط النظام .

وردت مصر بتأميم القناة لتبنى السد معتمدة على نفسها ومواردها ورد الغرب بالعدوان الثلاثى .

وفشل الغزو .. وقررت مصر المضى فى إقامة السد .. واستطاعت أن تحصل على معونة الاتحاد السوفيتى فى إقامته .. ودرس الخبراء السوفييت المشروع .. ثم أقيمت هيئة خبرة مشتركة من الخبراء السوفييت والغربيين درسته مرة أخرى ووافق الكل بالإجماع على صلاحيته .

لم يكن ممكنا أن نترك ثغرة فى مشروع بغير مجرى النيل وبغير كل حياة مصر ..

وظل غصة فى حلق الولايات المتحدة ..

والولايات المتحدة لا تريد دولة صناعية فى الشرق الأوسط سوى اسرائيل التى لا تملك مقومات الصناعة . .

وحقق السد العالى أفضل نتائجه . . استطاعت مصر أن تقيم قاعدة للصناعات الثقيلة والاستراتيجية . . وأن ترسى أسس ثورة تصنيع كاملة .

ومكن السد العالى لمصر أن تستصلح مليون فدان ، وأن تزرع زراعة دائمة سبعمائة ألف فدان كانت تزرع مرة واحدة فقط فى العام .

ووفر السد العالى لمصر غذاء بكميات تكفى الاستهلاك الشعبى العام وهو السمك من بحيرة ناصر . .

وأهم من هذا كون العمل فى السد العالى . . آلافا من العمال المهرة ومن الفنيين .. والمهندسين القادرين على الإنشاءات الكبيرة ويعتمد عليهم فى الخطط والمشاريع الأساسية للبناء والتعمير . .

مكن السد العالى مصر من الصناعة الكبيرة ومن الزراعة المصرية ، أن تزرع القطن طويل التيلة ويمكن أن تنافس فى زراعته الولايات المتحدة ، وتستطيع أن تزرع قدراً أكبر من القمح حتى يمكن به أن تستغنى عن فائض القمح الأمريكى والمن الأمريكى .

مكن السد العالى مصر من أن تبنى اقتصادياً وطنياً مستقلا لا تحاصره وترسم حدوده الرأسمالية والإمبريالية العالمية .

وقد عارض بناء السد العالى مهندس مصرى واحد «عبد العزيز أحمد» وكان مهندساً قديماً ارتبط إسمه بالشركات البريطانية التى أنشأت خزان أسوان . . وقد عارض ذات يوم معارضة عنيفة مشروع كهربة خزان أسوان والذى تقدمت به وزارة الوفد سنة ١٩٣٧ . وكان يومها من أهم المشاريع ومظهراً لاستقلال مصر ورغبتها فى التقدم . . وأدت معارضته ومعارضة الذين كان يمثلهم إلى العدول عن المشروع وتم المشروع بعد الثورة وتكلف مائة ضعف فضلا عن الفوائد التى ضاعت على مصر خلال تلك المدة .

وقد ذهب هذا المهندس بعدئذ إلى بريطانيا . . وأقام هناك حتى توفى .

وتحفظ على بعض جوانب فى المشروع مهندس مصرى كبير « على فتحى » كان عميداً لإحدى كليات الهندسة . ولكن إزاء موافقة كل الخبراء العالميين . . لم يكن هناك مجال للأخذ بتحفظاته وهو لا زال فى مصر . . ومن مهندسيها الكبار .

ولكن أحاطت الدعاية هذين المهندسين بهالة الشهداء الذين

راحوا ضحية البطش والعسف . . وقهر عبد الناصر ! .

ومعارضة السـد تأتى أساساً من الذين عاشوا صنائع ووكلاء للشركات والاحتكارات الأجنبية الـكبيرة .

وتقوم دعايتهم على أنه كان أفضل لمصر أن تقيم عدة مشاريع رى صغيرة وأن تقيم سلسلة صناعات صغيرة . . أى صناعات يتولون هم أمرها وفى نطاق الرأسمال الغربى وهم لا يريدون زراعة كبيرة تملـكها الدولة أو يديرها ويملـكها الفلاحون الصغار ، ولا يريدون صناعة كبيرة فى إطار القطاع العام . وهذا هو جوهر الحرب على السد العالى .

وهؤلاء هم الذين يردد توفيق الحـكيم حججم .. وينصب نفسه لسان حال لهم فى السياسة والاقتصاد والحرب .

لم يكلف توفيق الحـكيم نفسـه بضمير الـكاتب أو موضوعية العالم أو نزاهة القاضى . وهو يؤكد دائماً أنه يجمع الثلاثة . أن يستوفى الحقائق لـكى يصدر حكما على السد . . وألقى به سهلا بسيطاً وقاطعاً . . بلا حيثيات .

وأقسى ما يمـكن أن يقع على المصريين هو التشكيك فى السد ،

ويعنى أن يعيشوا حياتهم أسرى ندم دائم لأنه ليس هناك بديل سوى هدم السد .

ونقد السد لهذا هو أدق التزام يقع على الكاتب أو المهندس أو المواطن عامة . . كما لم يفعل توفيق الحكيم .

الفصل الخامس

حرب اليمن

والقضية الثالثة التي ينتهي ويكتمل بها عودة الوعي هي حرب اليمن .

وهي ثالثة الاثافي وكبيرة الكبائر في حساب الذنوب ، لقد استنزف عبد الناصر مصر ومواردها في حرب جبال وصحراء قاحلة في أبعد البلاد وأشدها تخلفاً .

وبعد مئات الملايين .. التي أنفقت وآلاف الرجال الذين ماتوا انسحبت مصر أو على الأصح طردت مصر يلعنها أولا الذين حررتهم .

ولم يكن هذا كل شيء ، ولكن اليمن كانت المقدمة والسبب في هزيمة أشد وأنكى هي نكسة ١٩٦٧ ، ولو لم تذهب القوات

إلى اليمن وتستنزف هناك لما أنهكت قواتنا ، وتهددت ولكانت قائمة متأهبة لصد العدوان .

وقصة الحرب فى اليمن لا بد أن تروى وتعرض فى إطارها الصحيح وقد بدأت أحداث اليمن بعد عام تقريباً من الانفصال فى سوريا ، وقد أرادت كل القوى المضادة أن تتخذ من ذلك الحدث بداية الانحسار العام ، وأعلنت مزهوة أن المعركة سوف تنتقل بعد الآن إلى قلب القاهرة .

وفجأة .. وفى غمرة الإحساس بالزهو والنصر انفجرت ثورة اليمن .

ونجحت الثورة وأطاحت بأشد النظم رجعية وقامت جمهورية فى قلب شبه الجزيرة العربية ، ووقفت الثورة منتصرة هناك .

وانقلبت الخطط من قيادة الهجوم الزاحف إلى القاهرة إلى الدفاع المفزوع عن الحدود .

واستغاثت الثورة الوليدة بمصر ، ولم يكن هناك أحد آخر تستغيث به

وتحرك الجيش المصرى إلى اليمن كما تحرك من قبل إلى سوريا وإلى العراق وإلى الجزائر . . وإلى كل مكان تهددت فيه الثورة .
لم يكن للجيش المصرى مهمة أفضل من مساندته للثورة العربية .
ولا يمكن أن يتخلى جيش مصر عن مسئولية تاريخية ! .

وذهب الجيش المصرى وحقق معركة نموذجية من أشرف معارك الثورة العربية وأشجعها . وقد ردت المعركة ضربة الانفصال ، وأعادت هيبة الثورة عامة ، وأكدت دور مصر ، وألزمت الرجعية العربية حدودها العاجزة .

وقد تكاتفت ضد الجيش المصرى كل القوى وعبئت كل الموارد واستعملت كل الأسلحة وطرق الحرب ، وسخرت القوات القبلية والنظامية والمرتزقة ، وشنت حملة دعاية عنيفة محمومة داخل مصر وخارجها وفى كل مكان ، وأن مصر تستهلك أموالها وأبناءها .. إن مصر تحارب الإسلام والأراضى المقدسة . إن مصر تحمل (الشيوعية) إلى قلب شبه الجزيرة .

وكانت شبه الجزيرة هى القلعة التى لا ينبغى أن ينفذ إليها أحد . ولهذا كان العمل محموماً اشتركت فيه الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وألمانيا الغربية معاً .

ومع هذا انتصرت الجمهورية وامتدت الثورة إلى جنوب اليمن . وصرح كيسنجر (أن كل شىء مهدد حتى قلب إيران) .

وقد كانت الرجعية المصرية أشد حنقاً وسخطاً على حرب اليمن وتحظى شبه الجزيرة بمكانة خاصة لديهم .

بعد البترول أصبحت شبه الجزيرة هى الحلم والمجال الحيوى وهى بثروتها وبتخلفها تقدم أوسع مجال للخبرات والقدرات المصرية .

وبعد الثورة وخلع الطبقات القديمة أصبحت شبه الجزيرة هى المهرب والملاذ . وهى أيضاً الأمل فى العودة .. أصبحت هى (الفردوس) الذى وجدوه .

وجاءت حرب اليمن لتهددهم فى ملاذهم الأمين .. ولهذا لم يكن هناك حدود .. للحقد ، ولا يمكن أن يغفر هذا الذنب لعبد الناصر .

وربما كانت هناك أخطاء كثيرة وكبيرة فى اليمن ، وأخطاء عسكرية وسياسية معاً .. ولكنها تظل جميعاً أخطاء ثانوية .. لقد حققت حرب اليمن أهم أهدافها ، وقامت جمهورية عصرية فى اليمن الشمالية وقامت جمهورية ديموقراطية وشعبية فى اليمن الجنوبية ، هى التى أغلقت باب المندب فى حرب أكتوبر وقدمت القواعد للأسطول المصرى . وسرت ريح الثورة عبر كل رمال شبه الجزيرة وغيرت كل المشاريع والموازين .. مهما تكن الأخطاء .

ذهب الجيش المصرى إلى أرض غريبة وذهب فى أسرع وأقصر وقت . ولإنقاذ موقف مهدد .. وكان طبيعياً أن يصادف كل العقبات والعثرات .

وحشدت ضـــد الجيش المصرى كل أنواع القوات القبلية والنظامية وانضمت إليها قوات المرتزقة الأوروبيين ممن حاربوا فى الحرب الاستعمارية فى الـكونغو وتميزوا بفظائعهم ووحشيتهم .

ولـكن فشلت كل هذه القوات فى النهاية وقامت الجمهورية وصمدت ، وقدم الجيش المصرى نماذج باهرة وخلاقة فى العسكرية وفى المبادرة والشجاعة .

وقد وقعت أخطاء سياسية كثيرة . . كان الجيش المصرى يفتقر إلى التـكوين السياسى ويفتقر إلى الضباط السياسيين ، وهم عنصر أساسى فى مثل هذه الحملات .

وكان الجيش المصرى عامة يفتقر إلى « التسييس » ولـكن ذلك كان لأسباب ومعادلات صعبة ودقيقة .

كانت القيادة حريصة كل الحرص على تأمين القوات المسلحة ضد الاختراق . . وكان السلاح الوحيد للاستعمار الأمريكى وأجهزته فى العالم الثالث هو اختراق الجيوش والنفاذ إليها وذلك لتدبير الانقلابات العسكرية .

وقد ركز أقصى جهده ، على الجيش المصرى . . وهو قام بالثورة وتسلح بأسلحة سوفيتية وأصبح أكبر قوة ضاربة ضـــد الاستعمار فى المنطقة .

وكان أبعاد الجيش عن السياسة ضرورة تحتمها الثورة وحماية الجيش نفسه .

ولكن النقص كان فى عدم التفريق بين الإبعاد عن السياسة ، وبين التكوين السياسى والذى لابد منه للجيوش الوطنية والثورية والذى هو أفضل تحصين للجيوش ضد الاختراق وعملائه ولكن مع هذا لم يفتقر الجيش المصرى قط إلى الوطنية والبسالة الخارقة .

ولم يفشل فى اليمن . وتظل كل الأخطاء ثانوية إزاء العمل الكبير الذى تحقق .

وكان كل مارآه توفيق الحكيم من حرب اليمن هو علب الطعام المحفوظ التى كانت تلقى وتفسد فوق جبال اليمن بينما المصريون جياع !

وحرب اليمن فى رأيه ليست الخطيئة العسكرية الوحيدة لعبد الناصر وهى واحدة من خطايا أكبر (هل اكتفينا بحربين وهزيمتين لا .. لابد من ثالثة .. وكانت حرب وهزيمة سنة ١٩٦٧ أى أنه فى مدى عشرة أعوام من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦٧ قد استهلكنا أو على الأصح استهلكتنا ثلاث حروب بثلاث هزائم ولا ندرى بالضبط كم كلفتنا من آلاف الأرواح . ولا كم من آلاف الملايين من الجنيهات ولكن

ماخسرناه فى الحرب الأخيرة يقدر بأربعة آلاف مليون جنيه ولو أنفق هذا المبلغ على قرانا المصرية وعددها أربعة آلاف لكان نصيب كل قرية مليون جنيه ولكن بقيت قرانا على حالها المحزن والتعس وراحت آلاف الملايين من عرق مصر لتذهب فى الوحل وفوقها هزيمة منكرة) .

ويحمد الإنسان للقوى التى يتحدث باسمها توفيق الحكيم أنها تذكرت قرانا وأنه يمكن أن يصرف عليها مليون جنيه لكل قرية، وقد حكمت هذه الطبقات والفئات مصر طويلا ولم تنفق شيئاً على القرى وعلى العكس تماما كانت السبب فى حالها (التعس) الذى تنعيه .

ويحمد لتوفيق الحكيم أنه أيضاً أدرك مشكلة القرية وأنه لابد من أن يصرف على كل منها مليون جنيه ، وكانت مشا كلها قائمة لم يذكرها كثيرا خلال عشرين عاما من الثورة . ولم يرها منذ كتب (يوميات نائب) .

ولكن قصة عبد الناصر والجيش والحرب مختلفة .

الفصل السادس

الحروب

تلقى الرجعية المصرية والعربية على جمال عبد الناصر مسئولية كل الحروب التى (ورط) مصر فيها والتى انتهت بالهزائم الذريعة، وهو كان يحولها أحياناً بتزييف الوقائع والأحداث وبأبواق الدعاية إلى انتصارات وهمية على الورق.

وقد تطرف أحد هؤلاء ذات يوم (أحمد أبو الفتح) وألقى بما يكاد يكون مسئولية الهزيمة سنة ١٩٤٨ على عاتق عبد الناصر بل وازداد حماساً بأن ألقى الشك على صلات مريبة بين عبد الناصر الذى كان ضابطاً محاصراً فى الفالوجا وبين الإسرائيليين.

وخلال ذلك الحصار طلب الإسرائيليون أن يخرج ضابط مصرى لاجتماع معهم لبحث طلب هدنة .. وخرج أركان حرب

القوة المحاصرة ، الصاغ جمال عبد الناصر ، والتقى بالعدو وفق قواعد وقوانين الحرب .

وكتب الضابط الإسرائيلي الذى كان منتدباً لهذا اللقاء مقالا بعد ذلك بسنوات وبعد قيام الثورة فى مصر .. وكان أجمل وأفضل تحية لعبد الناصر .

قال : (أن عبد الناصر رد على قائلا ربما يكون موقفنا وفق قواعد العسكرية ميئوساً منه ولا بد أن نستسلم ولكن مع ذلك لن نفعل وليس هذا فى جدول أعمالى . . ثم التفت إلى وقال أريد أن أعرف منك كيف تنظمون المقاومة ضد البريطانيين وأراد بحث موضوع آخر كانت قضية مصر تشغله حتى فى تلك اللحظات العصيبة) .

وكان أحمد أبو الفتح ذات يوم أكثر الناس صلة بعبد الناصر ويعرف هذه الحقائق .

ولكن هذا نموذج للتفكير والسلوك الآن .

وتنكر الرجعية العربيـــة والمصرية أى فضل لعبد الناصر فى انتصار أكتوبر ، وعلى العكس تماماً ترجع ما حدث من نصر إلى غيابه ، لقد جاء بالهزيمة والاحتلال ، وبعد أن غاب ، تحقق النصر والتحرير .

ويرجع النصر إلى الإيمان بالله الذى لم يكن قائماً فى عهده ، ويرجع إلى تحرر (الإنسان) العربى من قهره وأثناء حرب أكتوبر كتبت مجلة من مجلات الاستعمار الجديد يصدرها عربى فى باريس (جين أفريك) تقول أن ذهاب عبد الناصر جاء بالانتصار .

ويبدو لهذا إنصاف التاريخ ومراجعة الحقائق أمراً واجباً .

* * *

كان التحدى الأساسى ولا زال فى تاريخ مصر وكل كفاحها هو بناء قوتها العسكرية .

وكان قاعدة رئيسية للاستراتيجية الغربية أن لا تقوم مصر وأن لا تكون لها قوة عسكرية .

وقد نفذت وطبقت هذه القاعدة بدقة فى كل عصر .

فى أوائل القرن الماضى بنت مصر قوة عسكرية فى عصر محمد على وأرادت أن تقيم دولة عربية عصرية وأن تحل محل الأمبراطورية العثمانية المريضة وتجمعت كل أوروبا فى المرة الوحيدة التى اتحدت فى تاريخها وقضت على هذه القوة وبعدها فرضت على مصر معاهدة شهيرة هى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وأهم بنودها أن لا يزيد عدد الجيش المصرى على ١٨ ألف جندى .. ما يكفى لحفظ أمن مصر فى الداخل .

وفى عصر اسماعيل استطاعت مصر أن تعيد بناء قوتها العسكرية وبضباط وخبراء أمريكيين وسويديين ، وأرادت مصر إقامة دولة أفريقية كبيرة فى القارة المجهولة وبذلك لا تستفز أوروبا أو تصبح طرفاً فى فى المسألة الشرقية واستدرج الجيش المصرى إلى حرب الحبشة ووقفت أوروبا وراء ، الأمبراطور المسيحى) وقضى على الجيش المصرى هناك .

وكان درس حرب الحبشة بليغاً ورسب فى أنفس الضباط الفلاحين . . . وأدركوا أن المعركة الحقيقية هى فى مصر أولا وفى تحريرها .

وتكون تنظيم وطنى ثورى فى الجيش ليحوله إلى قوة أساسية للثورة (العرابية) وتقدمت بريطانيا وفرنسا للقضاء على (الفتنة) ثم تراجعت فرنسا وبقيت بريطانيا واحتلت مصر .. وتمت تصفية الجيش المصرى ثم أبيد ما بقى منه فى حرب السودان . . (حملة هيكس) .

وجردت مصر خلال الاحتلال من كل مقومات العسكرية بل ووصف الشعب المصرى كله بأنه خانع غير محارب ، ويستحيل أن تقوم منه قوة عسكرية أو مقاتلة .

وقبيل الحرب العالمية الثانية وبعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ تغيرت

الأمور بعض الشيء وتمت بعض تعديلات كان هدفها أن تقوم قوات مصرية محلية تكون ملحقة ومساعدة للقوات البريطانية حين تنشب حرب عالمية .. ووضع الجيش تحت إشراف بعثة عسكرية بريطانية، وقيادات تدربت على يد البريطانيين واتفق على أن مصدر التسليح الوحيد هو الترسانة البريطانية .. وقام الجيش المصرى بدوره المرسوم خلال الحرب واستحق شكر الساسة والجنرالات البريطانيين .

وبعد الحرب العالمية مباشرة نشب صراع حاد محتـــدم حول الجيش المصرى .

كان الملك فاروق ، يؤكد الولاء له فى صفوف الجيش ، وأن يكون الجيش دعامة لسلطته فى مواجهة الأحزاب والمد الشعبى المتزايد .. أن يصبح كل الجيش حرساً ملكياً لعرشه وأداة لأطماعه .

وكانت بريطانيا ترى أن الجيش فرقة بريطانية وهى التى كونته ودربته وسلحته ، ولابد أن يكون أداة لها . وكان إيدن رئيس وزراء بريطانيا يتباهى (بأصدقائنا الكثيرين فى الجيش المصرى) .

وكان هناك طرف جديد فى الصراع هو الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت وقد وفدت إلى المنطقة ونقلت أسلوبها فى السيطرة والاستيلاء وهو انقلابات الكولونيلات بدأت ذلك فى سوريا

فى انقلابات الزعيم ، ثم الشيشكلى . . وبقى العمل الحاسم الذى لا بد أن يكون فى مصر .

وبدأ البحث عن انقلاب يقوم به الملك فاروق نفسه مع الجيش ويصفى كل القلق والشغب .

ثم طرحت قصة فاروق وبدأ البحث فى صفوف الجيش عن انقلابين لحساب الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة وبذلك يصبح الجيش المصرى مثل القوات التركية والقوات العراقية والإيرانية يومئذ فرقا تابعة للقيادة العليا فى البنتاجون .

وكان عملا تاريخيا فذا أن يقوم فى داخل ذلك الجيش ، تنظيم وطنى ثورى لحساب المصريين ، وأن يضع استراتيجية للاستيلاء على الجيش ، وتحريره من الملكية والإمبريالية وتحويله إلى طليعة الثورة .

كان العمل الأول لجمال عبد الناصر أن يستولى الضباط الثوريون على الجيش وأن يضموه إلى صفوف الشعب ويستعدوا لمواجهة فاصلة مع الاستعمار . . إما أن يجلوا وإما أن نبدأ فى حرب تحرير كاملة .

وكان عبد الناصر قد كون التنظيم الجديد واستطاع أن يحافظ على سريته وعلى سلامته وسط دولة بوليسية وأطماع دولية تركزت على الجيش . . واستطاع أن يحافظ على وحدة التنظيم الذى

كان يضم كل القوى والاتجاهات الوطنية المختلفة فى الجيش . . من اليمين والوسط واليسار ، واستطاع أن يحافظ على استقلاليته وذاتيته وأن لا يكون متصلا أو تابعاً إلى القوى السياسية القائمة .

واستطاع أن يحدد ساعة (الصفر) للثورة وهو أخطر القرارات والذى يعتمد عليه نجاح أو فشل العمل . وبعد الثورة تحددت الأهداف المباشرة وكانت ستة أهداف ، من بينها إقامة جيش وطنى قوى . كأول الأهداف .

وبدأ العمل بتصفية الجيش القديم ، (الملكى) بضباطه ولوائحه وإجراءاته ليقوم الجيش الوطنى والمعاصر .

أزيحت النظم البالية والضباط القدامى وغير الأكفاء . وتقررت الخدمة العسكرية الإجبارية وكان يمكن الإعفاء منها مقابل عشرين جنيهاً فقط . وأدخلت التربية العسكرية فى المدارس والمعاهد والجامعات . وتعدلت البرامج والمناهج فى المعاهد والكليات العسكرية .

ثم اتخذ القرار (الثورى) ربما أهم القرارات وهو مجانية التعليم العسكرى . وأن يدخل كل أبناء الشعب ويتخرجوا ضباطاً وقادة .

وكان واحداً من خمس قرارات حددت طبيعة ودور الجيش وغيرت تاريخ مصر .

وكان القرار الأول هو قرار محمد على إنشاء جيش نظامى عصرى من الفلاحين وأن يستبدل الفرق العثمانية بجيش جديد قوامه الفلاحون المصريون ، وكان يقوده ضباط جدد مثقفون ويدربه ضباط أوربيون منهم عدد كبير من (الثوريين) فى ذلك الحين !

وكان القرار الثانى هو قرار سعيد باشا بالترقية من تحت السلاح وأن يرتقى الجنود الأكفاء والممتازين إلى رتب الضباط . . وبهذا القرار وصل أكثر الضباط (العرابيين) إلى رتبهم . . وكان بداية الثورة العرابية .

وكان القرار الثالث هو تصفية وإبادة الجيش المصرى بعد الاحتلال والذى اتخذ بعد احتلال القاهرة مباشرة . وقد حوكم وفصل وأعدم ونفى كل الضباط الوطنيين ثم أبيد ما بقى من الجيش فى حملة السودان حملة هيكس وعزل الجيش تماماً عن الشعب وقضية مصر .

وكان القرار الرابع هو قرار حكومة الوفد سنة ١٩٣٦ بدخول أبناء الطبقات الوطنية والصغيرة إلى الكلية الحربية ، والذى دخل بمقتضاه كل الضباط (الأحرار) وقادة ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

وكان القرار الجديد هـذا استمراراً لتراث العسكرية المصرية الوطنية ، ومحواً لآثار الاحتلال ، وضمانة أساسية لاستمرار الثورة .

ولكن بقيت مشكلة السلاح . .

وهو قبل كل شيء قضية سياسية .

وفى يناير سنة ١٩٥٣ جاء إلى مصر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية يعرض مرة أخرى وفى صورة جديدة مشروع (الحلف) أن يقوم حلف فى الشرق الأوسط من باكستان إلى مصر وأن تصبح قاعدته .

وردت الثورة الجديدة باستراتيجية أفضل هى (الدفاع من الداخل) أن يمنح العرب حريتهم وأن يزودوا بالأسلحة الكافية وأن يترك لهم واجب الدفاع عن أنفسهم وهم بذلك لا يكونون تابعين أو مرغمين ، ويدافعون ضد أعدائهم الحقيقيين لا الوهميين ، ثم لا يكونون أداة فى حرب باردة أو ساخنة لا تعنيهم من قريب أو بعيد .

وانضمت مصر إلى الجبهة العريضة الواسعة التى تكونت فى باندونج من أقطار آسيا وأفريقيا . . فى مواجهة الكتل والأحلاف وبذلك بدأت القطيعة ثم الحرب الباردة ضد مصر .

رفضت بريطانيا أن تزود مصر بالأسلحة ، ورفضت فرنسا أن تزود مصر بالأسلحة ورفضت الولايات المتحدة أن تزود مصر بالأسلحة ثم تحركت إسرائيل لتهاجم مصر . (ولتسقط هيبة الجيش المصرى وهيبة النظام الجديد فى مصر) بغارات كبيرة على المواقع المصرية فى غزة وأصبح الحصول على السلاح محتوما .

كان هناك مورد آخر باق للسلاح فى العالم . . هو الاتحاد السوفييتى .

وكان الاعتقاد الثابت والسائد أن القادة العرب ، وقادة ثورة ٢٣ يوليو من بينهم ، قد يعادون الغرب والاستعمار ولكنهم يرتجفون رعباً من الشيوعية ومن أى علاقة بالاتحاد السوفييتى وخاصة علاقة عسكرية . . وما دام الغرب سيظل مصدر السلاح فسوف يبقى هو الحكم النهائى .

واتخذ عبد الناصر القرار الذى هزأ بهذا (اليقين) . . وكسر الاحتكار الاستراتيجى على مصر وعقد صفقة الأسلحة السوفيتية . وسد الثغرة الرئيسية . . وكان سنده ودافعه الثقة بمصر وشعبها .

وبعد صفقة الأسلحة مباشرة أعلن ديان الذى كان يعكس دائماً رأى البنتاجون أن « لابد من ضرب مصر قبل أن تستوعب الأسلحة والخبرة السوفييتية الجديدة » وبدأ الاستعداد على الفور لحرب سنة ١٩٥٦ .

ورفض الغرب تمويل السد العالى مساهمة فى الإعداد لهذه الحرب وكان استعادة قناة السويس ذريعة لها . . . وكان الهدف كما قال ديان (لابد من القضاء على مصر وهذا يبدأ بالقضاء على قوتها العسكرية وهذا يبدأ بالقضاء على سلاح الطيران) .

ودبرت حرب السويس فى مؤامرة ثلاثية بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، وباتفاقية سرية عقدت على قرية فرنسية نائية «سيفر» .

وكانت حرباً غير متكافئة بالطبع بين إسرائيل المعبأة دائماً المسلحة تماما ثم بريطانيا وفرنسا الدولتين الكبيرتين وبين مصر وحدها بعد أربع سنوات عصيبة من الثورة وبعد سنة من صفقة الأسلحة الجديدة ، ولم يكن قد ورد أكثرها أو تم استيعابه .

ولهذا كانت ثقة المعتدين كاملة أن الغزو ناجح لا شك بل وكانوا على يقين من أن الشعب نفسه سوف يقابلهم كمحررين ينقذونه من الطغيان .

وكانت الخطة أن تبدأ إسرائيل الهجوم وأن تكتسح سيناء وأن تصل إلى القناة ، وأن تحتلها ، وحينئذ تتدخل بريطانيا وفرنسا وتطالب إلى كل من إسرائيل ومصر أن ينسحبا إلى مسافة كافية على الضفتين وتوضع القناة تحت إدارة دولية حتى يفصل نهائياً فى مصيرها .

وكانت مسرحية محكمة الصنع لاستعادة القناة وإسقاط النظام ، ووضع خريطة جديدة للمنطقة .

ولكن فشلت كل الخطة . ولسبب واحد هو أن إسرائيل لم تستطع

أن تكتسح سيناء وأن تصل إلى ضفة القنال وتحتلها فى الموعد المحدد وفقاً للخطة .

وكان ذلك بسبب واحد اعترف به ديان وهو أن المصريين حاربوا بطريقة مختلفة . . وأن نوعية الضابط والجندى المصرى تغيرت كثيراً .

وفى كل المعارك والاشتباكات التى وقعت خلال الهجوم لقى الإسرائيليون مقاومة ضاربة بددت كل الحلم الذى توقعوه مقدماً بنزهة عسكرية حتى قناة السويس .

وكان هذا هو ما اضطر بريطانيا وفرنسا إلى تقديم موعد الإنذار المشترك وإلى إنزال القوات البريطانية والفرنسية فى بورسعيد وبورفؤاد . . لكى تزحف معاً لإتمام المهمة التى لم تتمها إسرائيل ويحتلون معاً كل القناة .

وعندئذ يحاصرون الجيش المصرى الذى أبدى هذه المقاومة فى سيناء ويوفرون للاسرائيليين الفرصة لإبادته تماماً .

وفوجئت القوات الغازية ، بأمرين لم تتوقعهما أن القوات المصرية استطاعت أن تنسحب من سيناء . . ربما كان انسحاباً عسيراً ولكنه أفسد الفرصة على إسرائيل بإبادتها .. ثم المقاومة فى بورسعيد

وقد وصفها القائد العام البريطانى بأنها كانت قوية عنيدة ، وكانت نظامية وشعبية معاً .

واستماتت المقاومة المصرية النظامية والشعبية وصمدت بما يكفى لتحرك كل العوامل والقوى لتوقف الحرب ، وبفشل الغزو .

لم يكن أحد ليتوقع أو ليمكن أن يطالب مصر بانتصار عسكرى حاسم على إسرائيل وبريطانيا وفرنسا معاً .

ولكن أحداً أيضاً لم يتوقع أن تستطيع مصر أن تقود المعركة على الجبهة العسكرية والجبهة السياسية والدبلوماسية بهذه القدرة .. وأن تصل بها إلى الهدف الذى وضعته ، والحرب ليست كسب المعارك فحسب ولكنها فى النهاية كسب الحروب .

وقد استطاعت القيادة أن تعبىء الشعب كله المقاومة حتى النهاية (إذا سقطت القاهرة سنحارب حتى أسوان) وفوجىء الغزاة كما كتبت صحيفة أمريكية (أن الجبهة الداخلية كانت بهذه القوة لم تفتح ذراعيها للمحررين) .

واستطاعت القيادة أن تستثير الجماهير العربية فى كل مكان ، وتبدت على أوسع مدى القوى القائمة والكامنة للثورة العربية .

واستطاعت أن تستثير كل قوى العالم الثالث ، قوى باندونج التى رأت قضية مصر .. قضية كل الشعوب .

واستطاعت أن تكتسب تأييد الاتحاد السوفييتى وكل المعسكر الاشتراكى وأن تضعه أمام كل واجباته (الأممية) إزاء حركة التحرير الوطنى .

واستطاعت أن تستنفر الأمم المتحدة وأن تستنفر حماسها لتثبت أهليتها وأقصى ما تستطيع فى قضية وامتحان لها .

وأثارت مصر أشد المتناقضات فى الحلف الغربى بين الولايات المتحدة وحليفاتها ، ووضعتها فى كل الحرج أمام العالم وفى الأمم المتحدة .

بل واستثارت مصر كل قوى الحرية والسلام فى فرنسا وفى بريطانيا .. ووقفت كل القوى الديموقراطية والعمالية معها .

وبذلك لم تكن حرب سنة ١٩٥٦ هزيمة ألبستها الثورة وجمال عبد الناصر ثوب النصر كما تدعى الدوائر الموتورة ، ولكنها كانت بعضاً من (أمجد أيام مصر .)

كانت بوتقة انصهرت فيها قيادته ، خرج منها بطلا قومياً بل أحد أبطال العصر . . ولم يتفضل عليه أحد بهذا .

كانت حرب سنة ١٩٥٦ نقطة تحول لا فى حياة مصر والمنطقة ولكن فى كل حياة العصر وموازينه وانتهت الأمبراطورية البريطانية التى عاشت وسادت قروناً وكان يكفى أن ترسل مركباً واحداً إلى أى بلد لكى يركع ولكن أرسلت الأسطول والجيش والطيران وعادوا خائبين وأعلن نهائياً افلاس الأمبراطورية .. انحسار بريطانيا من دولة عظمى إلى إحدى الدول .

وانتهت الأمبراطورية الفرنسية وبعد حرب الهند الصينية ، كانت فرنسا تستميت للاحتفاظ بأمبراطوريتها فى شمال وغرب أفريقيا وقد اشتركت فى حرب السويس ، لتقضى على مصدر الخطر الأساسى ، وهو القاهرة التى تساعد ثورة الجزائر التى تقوض الأمبراطورية .

وكان الفشل فى السويس بداية الصراع الداخلى الحاد الذى انتهى بمجىء ديجول ، وتصفية الأمبراطورية ثم بنشوب الصراع الفرنسى الأمريكى .

وانتهت حرب السويس بسقوط (بن جوريون) نبى العنف والحرب فى إسرائيل والذى جىء به (ليقضى على عبد الناصر والنظام فى مصر . . ويعود مرة أخرى للتأمل فى الصحراء) وهو الذى وضع المخطط من غارة غزة حتى حرب السويس مع تلاميذه ديان وبيريز .

كان يريد أن يكمل حربه (التى لم تتم سنة ١٩٤٨) وعاد

فاشلا وبدأت إسرائيل تفكر فى استراتيجية جديدة وقيادة أخرى لأن الحرب ضد مصر ليست نزهة سهلة .

وربما يكون من الموضوعية أن نقرر أن إسرائيل حققت كسباً كبيراً بفتح خليج العقبة وكسر جناح من طوق الحصار الاقتصادى والاستراتيجى العربى حولها ، ولكن هذا لم يكن فى استطاعة مصر أن تمنعه بعد الانسحاب من سيناء ثم بعد تولى الأمم المتحدة مهام الفصل بين المتحاربين .

ولكن لو كانت الدولة التى تحمل الآن لواء الهجوم على شخص عبد الناصر وتراثه قد قامت بما يوجبه التزامها أو لو كانت الأردن التى اتخذت من هذا الحدث ذريعة للهجوم أيضاً قد أدت التزاماتها ربما لما استطاعت إسرائيل النفاذ إلى خليج السويس .

كانت حرب سنة ١٩٥٦ نجاحاً لاستراتيجية عبد الناصر فى الاتجاه إلى الشعب مباشرة فى مصر والاتجاه إلى الجماهير العربية . لقد أثبتت كلها أنها كانت عند حسن ظنه وهبت لتقف كلها معه فى اللحظات الحاسمة .

ولكن هذه تحسب خطيئته وأولى الخطايا الكبرى .

* * *

وبعد حرب السويس مباشرة لم تنعم مصر .. بما كانت تستحقه وتحتاجه من هدوء أو استقرار .

وخرجت مصر من حرب السويس مباشرة إلى مواجهة أشد وأثقل .

أعلنت الولايات المتحدة نظرية جديدة بشأن الشرق الأوسط سميت (نظرية ايزنهاور) .

وفى سنة ١٩٤٧ خرجت الولايات المتحدة بأول نظريات الحرب الباردة وهى نظرية (ترومان) بشأن الشرق الأوسط وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وبعد عشرة سنوات خرجت بنظرية جديدة لايزنهاور . لابد أن يكون للجمهوريين نظرية .

وقضت النظرية الجديدة بأن نهاية النفوذ البريطانى والفرنسى فى المنطقة بعد السويس تركت فراغاً ، وأن هذا الفراغ كبير وخطير ولابد أن تملأه الولايات المتحدة وذلك حتى تملأه الشيوعية .

ولم تكن هناك إهانة أشد لشعوب المنطقة وفى مقدمتها مصر وأول ما تعنيه أن ليس هناك شعوب وليست ذات أهلية أو شرعية لكى تملأ بنفسها (الفراغ) .

وكانت تعنى أن خروج المستعمر الأجنبى من المنطقة هو (كارثة) تترك المنطقة عارية وتهددها كل الأخطار .

وتعنى أن كفاح العرب لاسترداد حقوقهم وسيادتهم لا يمنحهم الحق ولا السلطة على وطنهم الخاص .

كان صاحب النظرية وواضعها الحقيقى هو وزير الخارجية دالاس ، ولكن اسمه كان قد اضحى دلالة على التعصب والتطرف والوقوف عند حافة الحرب ، وكان ايزنهاور قد اكتسب صورة مزوقه لرجل السلام الذى (أوقف الحرب فى السويس) ولذا فإن اقترانها باسمه سوف يدفع بلا شك إلى قبولها .

وكانت الولايات المتحدة قد أعلنت لدى نشوب الحرب انها فوجئت بالغزو ، وفوجئت أكثر بالاتفاق الثلاثى ، وإن كل شىء تم بدون علمها ، واستنكرت الولايات المتحدة الغزو ، ثم وقفت مع باقى أعضاء الأمم المتحدة فى طلب إيقاف إطلاق النار .

وبعد نهاية الحرب مارست الولايات المتحدة ضغطاً على إسرائيل للانسحاب من سيناء .. وكان بن جوريون قد أعلن أن ليس هناك مبرر للانسحاب لأن سيناء أرض إسرائيلية تم تحريرها لا الاستيلاء عليها ، وتمت مكالمة تليفونية بين إيزنهاور وبن جوريون انصاع بعدها إلى الطلب . ونفذ التعليمات . ولهذا كان كل شىء يدعو وينبىء بقبول (النظرية) .

كانت النظرية فى جوهرها مشاريع دالاس القديمة للشرق الأوسط فى قوالب جديدة وكان الحلول محل بريطانيا وفرنسا فى آسيا وأفريقيا هدفاً رئيسياً للسياسة والاستراتيجية الأمريكية .

وفى داخل الحلف الغربى . . كان يدور صراع مستميت وغير متكافىء بين الدولتين وبين الولايات المتحدة خاصة حول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا .

كانت بريطانيا وفرنسا يريدان أن يكونا شركاء على قدم المساواة فى الحلف الغربى وليسوا حلفاء ضعفاء أو تابعين محتاجين .

وكانت بريطانيا خاصة تريد مركزاً خاصاً فى الحلف الغربى ، أن يكون بقيادة مشتركة بينها وبين الولايات المتحدة . . وكلاهما (أنجلوسكسون) وهذا ليس العصر الأمريكى ولكن (الأنجلوسكسونى) وبريطانيا تملك خبرة لا يملكها مثلها فى السياسة والسيادة .

وكانت بريطانيا وفرنسا تريدان خاصة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أن تنفذ الأهداف والمشاريع الأمريكية عن طريقها وبالوكالة ولا تقدم مباشرة إلى (الأهالى) ! .

ورفضت الولايات المتحدة منذ البداية . (أبت الولايات المتحدة أن تأخذ المركز الثانى فى مناطق لم تكن المسئولية الأولى فيها من

حقها) كما قال ايدن بمرارة وهو يتحدث عن مصر والشرق الأوسط في مذكراته

وقررت الولايات المتحدة الحلول مباشرة محل فرنسا بعد طردها من سوريا ولبنان بعد نهاية الحرب مباشرة سنة ١٩٤٦ ، وفى سنة ١٩٤٩ قامت بأول محاولة لتدشين العصر الأمريكى بانقلاب (الزعيم) فى سوريا على نسق الانقلابات الأمريكية اللاتينية ووضعت الولايات المتحدة بعد نزول قواتها فى شمال أفريقيا خلال الحرب ، خطة طويلة المدى لوراثة الأمبراطورية الفرنسية هناك . . وأقامت سلسلة من القواعد البرية والبحرية والذرية تأكيداً لهذا .

وكان هذا من أهم أسباب مرارة فئات كبيرة من الطبقات الحاكمة الفرنسية والتى عبر عنها بعدئذ ديجول !

واحتدم صراع مماثل بين الولايات المتحدة وبريطانيا خاصة حول السعودية ، أكبر مورد بترول .

ولكن بقى الصراع الرئيسى حول مصر .. (مفتاح المنطقة كلها) وقاعدتها السياسية والاستراتيجية والحضارية .

وكان سقوط بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط بعد حرب السويس لهذا فرصة لا يمكن أن تبدد . . ولابد أن تتقدم الولايات

المتحدة لتصبح صاحبة النفوذ المطلق الأول والأخير .

* * *

ولم تكن ادعاءات الولايات المتحدة حول الحرب والسلام مبررات كافية لتملأ (فراغاً) غير قائم ، فضلا عن أنها كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة .

وهى أولا لم تباغت بالحرب .

كان إسقاط النظام فى مصر . . بعد مواقفه الداخلية والعربية والدولية ، هدفاً أمريكياً بقدر ما كان فرنسياً وبريطانياً وإسرائيلياً .

ولم تكن مجرد صدفة أو صراع إسرائيلى داخلى أن تسقط حكومة موسى شاريت زعيم (الحمائم) فى إسرائيل بعد رفض مصر المقترحات الأمريكية ، وأن يعود (بن جوريون) من صومعته فى الصحراء . . ليقود (الصقور) مرة أخرى .

و (بن جوريون) كان على صلة وثيقة صميمة بدالاس وكان هو وتلاميذه ، وأقربهما ديان وبيريز ممثلى (البنتاجون) المؤسسة العسكرية الأمريكية .

وقد بدأ إعداد هؤلاء للحرب بعد صفقة الأسلحة السوفيتية

مباشرة ، وسافر (بيريز) إلى أوروبا للحصول على الأسلحة من الترسانات الأوروبية والأمريكية .

كانت الولايات المتحدة تفضل حتى ذلك الحين التعامل غير المباشر مع إسرائيل ، أن تحصل على السلاح من فرنسا وبريطانيا ، وعلى المعونات الاقتصادية والتعويضات من ألمانيا . وبذلك تستطيع أمريكا الحوار مع العرب .. من موقف محايد .

وتثبت الوثائق التى نشرت وكشفت عن حرب السويس .. هذه الحقائق .

حدث بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية . أن تلقت المخابرات المركزية الأمريكية تعليمات بتدبير انقلاب يطيح بالنظام فى مصر وأن تستعين بخبرة المخابرات البريطانية فى هذا الصدد . وكان يرأس المخابرات الأمريكية آلان دالاس شقيق وزير الخارجية ، وبعد عدة اجتماعات بين ممثلى الإدارتين لرسم الخطة ، تقرر أنها غير ممكنة ، وليس فى مصر من يمكن الاعتماد عليهم فى عمل كهذا .. وأكد هذا بالطبع الاتجاه نحو الغزو من الخارج .

أصدر إيزنهاور بعد هذا التاريخ قراراً بأن تحول إلى إسرائيل مجموعات من طائرات (السوبر ميستير) الفرنسية ، وكانت قد أنتجت لحساب حلف الأطلنطى ، ولكن أعطيت لإسرائيل وهى طائرات

طويلة المدى .. للهجوم على أبعد دولة وأشدها خطراً .. وهى بالطبع مصر .

ذهب السياسى الفرنسى شابان دالماس والذى أصبح رئيس وزراء فرنسا فيما بعد إلى السفير الأمريكى فى باريس (دوجلاس ديلون) وأخبره بالاتفاق السرى الذى عقد فى قرية فرنسية بين (بن جوريون وسلوين لويد وكريستيان بينو) وبالخطة التى أعدت للحرب ، وأرسل السفير المعلومات إلى وزارة الخارجية الأمريكية التى ردت بأن لديها بالفعل معلومات مماثلة .

صرح آلان دالاس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية وشقيق وزير الخارجية الأمريكية بأن إدارته كانت على علم بالغزو منذ أسابيع .

قبل الهجوم الإسرائيلى تلقى كل الرعايا الأمريكيين فى مصر تعليمات بالاستعداد للرحيل فى خلال ٤٨ ساعة وبالفعل تم هذا الترحيل . . مما ينبىء أن المعلومات كانت متوافرة .

بعد إيقاف القتال ، ونهاية الحرب ، ذهب وزير خارجية بريطانيا بتلر وزميله الفرنسى بينو لزيارة جون فوستر دالاس وكان قد دخل المستشفى مريضاً بمرضه الأخير ، وسألهم مستنكراً ، (لماذا أوقفتم الحرب .. لماذا لم تستمروا حتى تسقطوا هذا الرجل ناصر .. لو كنت فى الوزارة لما حدث شىء مثل هذا . . ولكن الخطأ خطأ إيزنهاوز) .

وخرج الوزيران يضربان كفاً بكف حسب روايتهما .

كان هناك اتفاق على اجتماع قمة عربى فى بيروت فى نوفمبر بدأ مريباً وغير ذى موضوع ثم تكشف أنه كان معداً لإعادة رسم خريطة المنطقة العربية بعد سقوط ناصر والنظام فى مصر .

وحينما عقد الاجتماع . كان نموذجاً للفضيحة .

وكان موقف دالاس بعد الغزو وفى الأمم المتحدة نموذجاً للمواقف المزدوجة التى اشتهر بها والتى تكشفت أكثر بعد ذهابه وكانت أيضاً حسابا واقعياً دقيقاً للنتائج .

وإذا نجح الغزو وسقط النظام فى مصر ، وذهب عبد الناصر . سوف تتقدم الولايات المتحدة بمكانتها الدولية وحلفائها وأصدقائها العرب ، وتضع خريطة جديدة للمنطقة يكون لها فيها نصيب الأسد لأنها سوف تكون الحكم الأقوى وغير المنحاز ، وقد قام الآخرون بالعمل القذر ولم تلوث يدها فيه .

وإذا فشل الغزو . فسوف تكون النتيجة أفضل ، سوف ينتهى الوجود البريطانى والفرنسى ولن يملأه أحد سواها ، وسوف تتولى هى مباشرة ومع إسرائيل ، المهمة وتحققها بطرق أدق وأبرع ومن مراكز قوة وتحكم .

وكانت الولايات المتحدة ترى أن القوة الثانية فى العالم والتى

قد تعرقل مشاريعها وهى الاتحاد السوفييتى يمر بفترة دقيقة عصيبة بعد المؤتمر العشرين ، وكانت أزمات وتقلصات (التحرر من الستالينية) تشتد وتتفاقم فى كل أرجاء (المعسكر) وبلغت ذروتها فى أحداث المجر .

وقد فوجئت الولايات المتحدة وكانت هذه هى المفاجئة الحقيقية بصمود مصر ، وبحدة انتفاضة شعوب العالم إلى أبعد مدى ثم بقدرة الاتحاد السوفييتى على تصفية الموقف فى شرق أوروبا والتدخل الحاسم الرادع فى الشرق الأوسط .

وكان لابد للولايات المتحدة أن تواصل معارضتها للغزو حتى النهاية وأن لا تترك المجال للاتحاد السوفييتى ، ودول العالم الثالث .

وبعد الوقوف ضد الغزو ، وقفت مع الانسحاب من سيناء . . وذلك استعداداً لنظرية إيزنهاور . . لتقنع الرأى العام العربى بحيادها ولتقدم للأنصار والموالين سبباً يعزز دعاويهم وحماسهم .

ولكن الولايات المتحدة لم تستخلص الدروس الحقيقية لحرب السويس .

وكان أول دلالات عدم الإدراك ، هو إعلان نظرية إيزنهاور وبالصيغة التى أعلنت بها .

* * *

كانت تعنى فى مضمونها تصفية الثورة بعزل مصر وحصارها أولا . وتصفية العلاقة المصرية السوفييتية (الوجود السوفييتى) ثانيا .

وأرسل إيزنهاور مبعوثا خاصا يحمل نظريته ويفسرها ومعه مائتا مليون دولار لتعزيز الفهم والإقناع .

وطاف المبعوث الخاص ريتشاردز البلاد العربية ، المشرق والمغرب ولديه الوعد والوعيد أيضا .

ورفضت مصر المشروع ، ولم يستغرق الأمر وقتا ، وقد رفضت الحلف الرباعى سنة ١٩٥١ قبل الثورة ، ورفضت حلف الشرق الأوسط الذى عرضه دالاس بنفسه سنة ١٩٥٣ فى بداية الثورة ، ولا يعقل أن تقبل الحلف مرة أخرى فى صورة مختلفة بعد انتصار تاريخى للثورة .

وبالنسبة لمصر ، لم يكن هناك فراغ ، كان هناك تحرير واسترداد أرض ولو كان هناك أى فراغ فإن الذى يملأه هو الثورة لا سيد آخر ، والعرب أنفسهم لا استعمار جديد ، ولا يعقل بعد أن يسقط العرب بأنفسهم السيطرة البريطانية والفرنسية أن ينقلوها من الأوروبين إلى الأمريكيين . . إن الدفاع عن حريتهم هو مسئوليتهم وحدهم ، وتبدأ من داخلهم ومعتمدة على قوتهم وضد أى عدو من أى اتجاه .

وكان رفض مصر لطمة جديدة ، كيف ترفض بعد كل ما فعلته

أمريكا وبدأت الحرب باردة وحامية وفى النهاية ساخنة .

وزعت الأدوار .. كميل شمعون وشارل مالك وزير خارجيته فى لبنان ، وبالطبع نورى السعيد فى العراق والأخرون فى المشرق والمغرب .

كانت تعبئة عامة أخرى للرجعية القبلية والطائفية والعصرية .

وبدأ العمل .

أسقط الحكم الوطنى فى الأردن ، بانقلاب عسكرى محكم تولت تحويله وساهمت فيه الرجعية العربية مباشرة .. وكان الحكم الوطنى قد قام لفترة قصيرة بعد انتفاضة شعبية وانتخابات ديموقراطية جرت لأول مرة ، وبدأ يحول الأردن من خط الدفاع الثانى عن إسرائيل إلى الصف القومى .

وحوصرت سوريا حصاراً عاماً تحركت الجيوش والقوات من كل الاتجاهات ، القوات التركية فى الشمال والعراقية والأردنية فى الشرق ثم تحرك الأسطول السادس فى اتجاه السواحل .. وأعطيت الإشارة لكل القوى السورية المعادية فى الداخل والخارج . أشرف على المهمة والتنسيق أكبر خبراء الانقلابات الأمريكية (هندرسون) .. وتدفقت الأموال بلا حساب .. واعتبر هذا هو العمل الحاسم .

أعلنت الحرب الاقتصادية والسياسية على مصر جمدت أموالها فى بنوك أمريكا ، كما جمدت فى بريطانيا وفرنسا ، وحجزت عنها شحنات القمح الأمريكية ، ولم يكن لديها ما يكفى إلا لبضعة أسابيع .. ورفض بيع الدواء لها لجرحى الحرب ، لكى يموت المصابون ، ويثور الجنود لمصير زملائهم .

وبدأت حملة دعاية ضارية ضد مصر ، طلب النجدة من زحف الأمبراطورية (الناصرية) الذى ويهـــدد كل الدول العربية (الصغيرة) كميل شمعون يستثير عطف وقلق الغرب حول مصير الأقليات والطوائف من أطماع التوسع (الإسلامى) المصرى واستنفار كل المؤمنين لنصرة الإسلام ضد الذين جاءوا بالإلحاد والملحدين إلى أرض الإيمان .

وهكذا لم تكن مصر هى البادئة ، أو المستعدية ، بعد حرب سنة ١٩٥٦ فرض عليها التحدى الأمريكى كما فرض عليها التحدى البريطانى من قبل ، ولم يكن ممكناً أن لا تواجهه .

ودارت معركة طويلة مريرة متشابكة بطول العالم العربى وعرضه مواجهة مباشرة وبالطبع غير متكافئة ، وحافلة بالانتصارات والانتكاسات .. وحينما فشلت أسلحة الحصار والعزل ، والمعارك

الجانبية وغير المباشرة لم يبق سوى الغزو المباشر من الخارج . والذى حدث سنة ١٩٦٧ .

***

وقد بدأ تبادل الضربات مبكراً .

حينما اشتد الحصار على سوريا وتهدد الموقف فى الداخل والخارج ذهبت القوات المصرية إلى سوريا وكان عملا جريئاً ومفاجئاً ، اخترقت الحصار البحرى على سوريا وأضافت عاملا حاسماً إلى القوى الوطنية والتقدمية فى سوريا ، وأكدت تماماً التزام مصر .

وردع نزول القوات المصرية فى سوريا مخططات العزل والعدوان وبدلا من عزل البلدين ، توثقت الصلات . . وازدادت أحكاماً .

ومن ناحية أخرى تحرك الاتحاد السوفيتى دولياً ، وأنذر تركيا ودول حلف بغداد وشلت تماماً مشاريع الغزو والانقلاب ، التى كانت على حافة التنفيذ .

ولكن لم تنقطع محاولات النفاذ إلى سوريا وهى الجائزة (الثمينة) التى يتوقف عليها كل شىء إذا انضمت إلى لبنان والعراق والأردن وتركيا وإسرائيل فسوف يأمن الشمال ويقوم حائط منيع ضد (الثورة) ونفاذ (عبد الناصر) كانت أثمن الجوائز .

وأعلنت الوحدة بين سوريا ومصر في النهاية لم يعد هناك أمن حقيق لسوريا إلا في وحدة كاملة بينهما وبين مصر .

وقلبت الوحدة كل الموازين وفجرت سيلا عارماً من الثقة والأمل .

وكان تسلسلا مفزعا للأحداث بالنسبة للولايات المتحدة ولمخططي السياسات والانقلابات في وزارة الخارجية وفي البنتاجون (المؤسسة العسكرية) وفي إدارة المخابرات المركزية ، بدلا من احتواء سوريا ومصر وتصفيتهما اتحدتا وأصبحتا قوة كبرى .

أصبحت الوحدة العربية بقيادة عبد الناصر هي الخطر الأول بالنسبة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، ولم تخف هذا قط في التصريحات العلنية أو الخطط الخفية .

كانت الوحدة العربية حبلا يلتف حول عنق إسرائيل ، وعلى عنق كل النظم والدول العربية الموالية أيضاً .

إذا توحدت النظم والقوى الوطنية الثورية بقيادة مصر وزعامة بطل تاريخي فسوف تكون القوة الأولى والأخيرة لا بد من دفعها .

واستنفرت كل القوى .

أثير الخطر (الناصري) في إسرائيل . والخطر الطائفي في لبنان

والخطر الشيوعى فى العراق ، والخطر على الإسلام فى شبه الجزيرة .

وأعطيت الإشارة وتحركت كل القوى الطائفية فى لبنان ، وبدأت باغتيال صحفى كبير من دعاة العروبة والتقدم ، وكان مسيحياً وتتالت الأفعال وردود الأفعال ، وانتهت بانتفاضة لبنان ، أكبر انتفاضة فى تاريخه منذ الاستقلال .

هبت كل القوى النزيهة من كل الطوائف والأديان ، إن ذاتية لبنان وواقع لبنان الخاص ، لا يأمن ولا يتحقق إلا فى الإطار العربى القومى ، ولا يمكن عزل لبنان أو فصله أو تسليمه للغرب أو أن يقوم ضد حرية ووحدة العرب وشوكة فى ظهر دولة الوحدة .

وانتهت الانتفاضة بسقوط شمعون وشارل مالك . . وبسقوط (النظرية) .

ولم يكن ماحدث فى لبنـــان مفزعاً بقدر ماتلاه . . حين وقع حدث الأحداث وامتدت الثورة إلى قدس الأقداس فى (العراق) .

كان (كل شىء يبقى آمناً طالمـا بقى العراق بموقعه وموارده) وطالمـا لم يمس الحزام الشمالى الذى ابتدعه دالاس من باكستان إلى إيران إلى العراق إلى تركيا . . وكان العراق حلقة الوصول الرئيسية بينهم وكان العراق دولة بترولية رئيسية مهيمنة على الخليج (وتحرر)

العراق وانتقاله إلى صف قوى الثورة . . يعنى انهياراً تاماً ولو قامت دولة عربية ثورية من النيل إلى الفرات فلن يبقى شيء !

وجن جنون الحلف الغربى ، وأسرع الأسطول السادس إلى بيروت ونزلت القوات الأمريكية قوات البحرية الأمريكية المشهورة هنـاك .. وسارعت قوات المظلات البريطانية من قبرص ونزلت فى الأردن ، واستعدت كلاهما ، للمواجهة ، كان تحدياً وإرهاباً يسبق الهجوم .

وعبأت مصر قواها ، واستنفرت كل القوى العربية والدولية ، واستصرخت الـكل ضد حق كل الشعوب فى تقرير مصيرها ، وضد كل قيم العصر وروحه ، وضد كل الأسس والمبادىء التى أقيمت عليها هيئة الأمم .

واستطاعت الحملة السياسية والدبلوماسية أن تجمـد القوات البريطانية والأمريكية وأن تنسحب فى النهاية ولا تفعل أو تغير شيئاً .. وأصبح لا بد للغرب من البحث عن استراتيجية أخرى .

وهناك بديلان لا غيرهما ، أما الغزو من الخـارج أو التخريب من الداخل ، ولـما لم يكن ممكناً التسليم بما حدث فى العراق فقد بدأ البحث والتنقيب فى الداخل ، وليس هناك أفضل من البحث فى

صفوف الثورة ذاتها ، إذا عجزت وسقطت قوى اليمين فلابد من البحث فى خلافات الثوار أنفسهم .

ونجحت الجهود هذه المرة ، وانفجر الخلاف عنيفاً ، بين الشيوعيين وبين الوحدويين وبين الماركسيين والناصريين وبين العراق ومصر وسوريا وبين جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم وانشقت صفوف وحدة الثوار والقوميين .. وتأزم الموقف بين الثورة العربية وقوى الثورة العالمية .. وحول مسألة تبدو الآن ثانوية ، هل تتحقق وحدة فيدرالية بين الأقطار الثلاثة أم وحدة شاملة !

ولا شك أن المسئولية كانت مشتركة ودفع الجميع الثمن وكان غالياً جداً . وبدأ الانحسار ولكن لم يكن الانهيار كما استبشر وتوقع الاستعمار .

* * *

انطوى العراق على نفسه وانعزل ولكن دولة الوحدة ، واصلت السير نحو أهدافها .

أممت مصر قناة السويس وإدارتها وحصلت على إيراداتها ، ومصرت كل رؤوس الأموال الأجنبية ، واستردت سيادتها الاقتصادية ، وحصنت مواردها ضد الاستنزاف والاستغلال الأجنبى .

وأعدت مصر خطة شاملة للتنمية والتصنيع تحول مصر إلى دولة صناعية زراعية عصرية .

وبدأت مصر بناء السد العالى ، الذى دارت بسببه وحوله أقصى المعارك .

ودعمت مصر مكانتها فى الجبهة الآسيوية الأفريقية وأصبحت القطب الثالث لعدم الانحياز .

ووثقت مصر علاقتها بكل قوى الثورة والحرية فى العالم وبدول المعسكر الاشتراكى وخاصة الاتحاد السوفيتى .

ثم قفزت دولة الوحدة خطوة أعمق وأبعد وأشد أثراً .. كانت تحولا تاريخياً فى كل المنطقة اختارت الاشتراكية .. وخرجت نهائياً من فلك الرأسمالية العالمية .

وأمنت سوريا من كل أخطار الغزو ومن كل القلق وعدم الاستقرار .

وحققت سوريا الكثير من التغيرات الاجتماعية الجذرية التى كانت تحتاجها أشد الحاجة ولا تستطيعها واسترد الشعب فى سوريا الطمأنينة الداخلية والخارجية التى لم يعرفها من زمن طويل .

ولكن مع هذا وقع الانفصال فى سوريا فى سبتمبر سنة ١٩٦١ ،

وبعد ثلاث سنوات من الوحدة وثلاثة أشهر من إعلان القوانين الإشتراكية .

وقامت به بالطبع القوى المعادية . . كل القوى التى كانت تتربص منذ البداية بسوريا . . وقد أضيفت إليها قوى جديدة مغامرة وقصيرة النظر . . لم تفرق بين الأخطاء الثانوية والتكتيكية والضرورات والحقائق الاستراتيجية والمصيرية .

وأسكر الانفصال كل القوى الرجعية والمغامرة ، لم تكن تحلم به بهذه السهولة ، وبعد تاريخ طويل من الفشل فى سوريا ، ورفعت شعاراً هو (نقل المعركة إلى القاهرة) وبعد سقوط سوريا أصبح الطريق سهلا معبداً .

وقامت الثورة بنقد ذاتى صريح فى مصر . . واستوعبت دروس الانفصال ، وأصبح محور العمل هو تحصين وتوطيد النظام فى مصر . . ودعى مؤتمر للقوى الشعبية وصدر ميثاق ، وتحددت الأسس النظرية والفكرية للثورة وهى الإشتراكية العلمية ، وتحددت معالم الطريق (الخاص) إلى هذه الإشتراكية ، وتحددت قوى الشعب الحقيقية والعاملة ، ودعيت لانتخاب تنظيم سياسى يمثلها هو الاتحاد الاشتراكى العربى ... وانتهى الاتحاد القومى الذى سقط فى متناقضاته .

كان هذا تأميناً للداخل فى مصر .

وفى هذه الظروف الثقيلة الدقيقة وقع الحدث الذى قلب كل الخطط ، وأثار كل الفزع والذى لم يخطر على بال أحد . . وهو ثورة اليمن .

وتدافعت كل هذه القوى المنتشية المزهوة لتدرأ الخطر .

وبدأت قصة اليمن .. كما أوردناها .

وفى نفس العام سنة ١٩٦٢ ، وقع حدث مماثل ولا يقل أثراً ، أعلن إستقلال الجزائر ، وقامت دولة ثورية عربية بدلا من المقاطعة الفرنسية وأصبحت الدولة الأساسية فى المغرب العربى . ورفضت الدولة الجديدة كل مشاريع العزلة والانفصال والمغرب العربى الكبير .. وأقامت جسراً سياسياً وروحياً بين القاهرة والجزائر بشر بتكامل كل شمال أفريقيا العربية . وبدت المشاريع الأمريكية لوراثة الاستعمار الفرنسى أبعد ماتكون .

ثم فى العام التالى سنة ١٩٦٣ سقط حكم الإنفصال فى سوريا .

وفى نفس العام سقط الحكم القائم فى العراق .

وتصدر حزب البعث العربى الاشتراكى الانقلابين . . وفى سوريا استولى على الإنقلاب واستأثر به من حلف تكون بقيادة الوحدويين ، وفى العراق كان طرفاً أساسياً فيه .

ويضع حزب البعث العربي الاشتراكي الوحدة العربية هدفه الأول والرئيسي ويتقدم كل الأهداف (وحدة .. حرية .. اشتراكية) ولكن يختلف الأمر كثيراً في التحقيق وبدأت مباحثات للوحدة بين الأقطار الثلاثة مصر وسوريا والعراق . كان لابد للحزب أن يثبت التزامه أمام الجماهير ولكن لم تؤد المباحثات إلى وحدة بل إلى جفوة جديدة .

كانت القوى الحزبية محملة برواسب وتحيزات ، وبضيق أفق وسوء رؤية ، وكانت تجعل الأشجار الصغيرة تحجب الغابة الكبيرة ، والحقائق الثانوية تغلب الحقائق الأولية .

ولاشك أدت القوى البارعة التي تستطيع زرع الفرقة والخلاف بين صفوف الثورة دورها في ذلك الحين وفي البلاد الثلاثة !

واستمرت مصر في طريقها المرسوم . وبقيت الجمهورية العربية المتحدة وتبني الاشتراكية في بلد واحد ، وتقيم القاعدة الأساسية للحرية والاشتراكية وتثق أن متناقضات العرب العميقة الزاخرة لابد أن تنتهي ذات يوم .

وفي سنة ١٩٦٤ ، أتمت مصر المرحلة الأولى من السد العالي ، وأقيم احتفال عالمي شهده خروشوف ممثلا للاتحاد السوفييتي وللثورة

الاشتراكية العالمية ، وشهده زعماء وقادة التحرر العربى بن بيللا والسلال وعارف وعبد الناصر .

كسبت مصر التحدى وهزمته وتحول مجرى النيل . وكان بداية النهاية للتخلف ، والانتقال من عصر إلى آخر .

وفى معركة مستميتة ممتدة الرقعة مثل معركة (السنين العشر) إن صحت التسمية كان لابد أن تقترن الإنجازات والانتصارات بنكسات وتغيرات وانقلابات ، لا مناص . وفى سنة ١٩٦٥ ، اشتد الصراع الداخلى فى الجزائر بين أطراف الثورة ، وبلغ ذروته فى انفجار وانقلاب .. انتهى بعزل بن بيللا .. وتولى بومدين وبوتفليقه القيادة الجديدة . . وقد كان الإنقلاب داخلياً محلياً ، صراع فى صفوف الثورة ، ولكن تحمست له ورحبت به كل القوى والأجنحة والأطراف المحلية وغير المحلية التى لم تتحمس أو تتقبل توثق العلاقات بين مصر والجزائر .

ولكن فى عام ١٩٦٤ ولد الكيان الفلسطينى ممثلا فى المجلس الوطنى الفلسطينى ومؤكداً الذاتية الفلسطينية ، وقضية شعب فلسطين كقضية قومية لا مشكلة إنسانية اللاجئين .

وتثبيت الكيان الفلسطينى ، كان إمتحانا ، إزاء الهدف

الإسرائيلى الأمريكى المحدد والاستراتيجى، وهو امتصاص الفلسطينيين واستيعابهم فى العالم العربى أو خارجه .

كان قيام المجلس الوطنى الفلسطينى محاطاً بإجماع القادة والأمة العربية مرحلة جديدة من الصمود ومواجهة التحدى .

وفى سنة ١٩٦٥ انطلقت الشرارات الأولى لحدث جديد ، تماماً لم يقدر أكثر العرب مداه ولكن أدرك الإسرائيليون ما يمكن أن ينتهى إليه وهو الثورة الفلسطينية ، وتحول لاجئون مشردون فى الخيام أو فى أرجاء الأرض إلى ثوار وفدائيين يحملون السلاح ، ويعتزمون أن يعودوا عودة جماعية إلى وطنهم ، ويستردونه .

وفى سنة ١٩٦٥ أتمت مصر بنجاح مشروع الخمس سنوات الأول ، واستعدت لمشروع الخمس سنوات الثانى ، كان نجاح المشروع الأول إثباتاً لأن التنمية فى مصر لا تتم إلا بخطة وأن الخطة لا تتحقق إلا فى إطـــار الاشتراكية وأن النجاح الأول لابد أن يتلوه نجاح أكبر .

وطرحت أسس الخطة الثانية للنقاش العام وكانت تعطى الأولوية والأهمية للصناعة الثقيلة واشتدت الحرب الاقتصادية على مصر .

وانتهت الحرب إلى منع القمح الذى كانت توده الولايات

المتحدة من فائض المحصول وإلى محاربة مصر فى أسواق العالم وموارد التمويل لكى لا تحصل على التسهيلات والقروض أو المساعدات من كل دول الغرب .

واستطاعت مصر أن تتغلب على الصعاب استطاعت أن تشترى القمح وتحصل على الاستثمارات والمساعدات وأعلن عبد الناصر أن (أمريكا هى زعيمة الثورة المضادة فى العالم) ولكنها لن تستطيع أن تثنى مصر عن إرادتها أو عن طريقها .

« وإذا لم يرض الأمريكيون فليشربوا من البحر وإذا لم يكفيهم البحر الأبيض فليشربوا من البحر الأحمر) .

وفى سنة ١٩٦٦ سقط الجناح اليمينى المعادى لمصر فى حزب البعث الحاكم فى سوريا وتولى جناح يسارى تقدمى جديد مقاليد السلطة فى سوريا .. بدأ فى دعم التغييرات الاجتماعية الجذرية فى التخلى عن سياسة معاداة مصر والانفصال عنها . واستئناف علاقة لا مناص منها ، ومنح تأييده لطلائع الثورة الفلسطينية وشرارتها الأولى .

* * *

ومنذ بداية الحرب الباردة سنة ١٩٤٧ ، كانت منطقة شرق البحر الأبيض والشرق الأوسط ، منطقة متكاملة مترابطة فى

الاستراتيجية (الـكونية) الأمريكية ، ولابد أن يسودها الاستقرار والأمن (الأمريكى) .

وفى سنة ١٩٥٦ عاونت منظمة (ايوكا) منظمة تحرير قبرص ، والتى كانت تنظم المقاومة ، ضد البريطانيين مصر وأمدتها بالـكثير من المعلومات والحقائق عن التحركات البريطانية والفرنسية ، ونشأت صلات مصرية وثيقة مع حركة التحرر القبرصية .

كانت قبرص قاعدة استراتيجية هامة للغرب وحلف الأطلنطى وموجهة أساساً ضد الاتحاد السوفيتى وضد العرب معاً .. أهم قاعدة مراقبة وحراسة كما سموها، وكان تأمين القوى التقدمية وغير المنحازة فى قبرص ، يهم كل العرب ، ومصر وسوريا خاصة ، وتوثقت العلاقات بين القاهرة وبين القوى الوطنية والتقدمية القبرصية ثم اليونانية عامة .

وكان الصراع حول اليونان معركة شديدة منذ نهاية الحرب العالمية .

وقد كان أول عمل قام به الحلف الغربى بعد نهاية الحرب العـالمية مباشرة هو سحق هـذه القوى فى اليونان ، بدأت القوات البريطانية بأمر تشرشل هذا العمل سنة ١٩٤٦ وحينما عجزت تولته القوات الأمريكية . . وحققته فى النهاية وضمت اليونان إلى حلف

الأطلنطى وأصبحت أهم قواعده فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وفرض النظام الملكى الرجعى على اليونان بقوة حلف الأطلنطى وحرابه .

وفى سنة ١٩٦٦ فاض مد ديموقراطى واشتراكى فى اليونان وبعد كل مابذل خلال عشرين عاما تقريباً ، ووقفت اليونان على أهبة انتخابات ديموقراطية حقيقية كانت سوف تبدأ تصحيح كل سوءات الماضى .

ونفذت الاتجاهات الديموقراطية والتقدمية إلى الجيش اليونانى .

وتداولت الأنباء عن قيام منظمة (للضباط الأحرار) فى الجيش اليونانى على نسق التنظيم المشهور فى مصر .

وبدأ القلق يعم ويتفاقم حول المنطقتين الحساستين والبالغتي الأهمية . . وهما شرق البحر الأبيض والشرق الأوسط . . إن مد الثورة يضطرد ويتعاظم ، ولابد من إيقافه . . الثورة لابد أن تضرب فى المهد . أو قبل أن يصبح الوقت متأخراً .

وحدث انقلاب عسكرى فى اليونان فى أوائل سنة ١٩٦٧ أطاح بالحكومة التى كانت على وشك إجراء الإنتخابات وبطش بكل الأحزاب والقوى الديموقراطية واليسارية ، وأعاد الأمن والاستقرار لليونان !

وفى منتصف العام .. انقض الهجوم على مصر . قامت إسرائيل بالمهمة .. لم يكن ممكناً تدبير الإنقلاب أو الغزومن الداخل ، ولا بد من ضربة قاصمة من الخارج . لابد من تسوية الحساب الذى بدأ وتراكم منذ ١٩٥٧ .. والعقاب على رفض مشروع إيزنهاور .

* * *

كانت حرب سنة ١٩٦٧ . هزيمة ساحقة وغير ضرورية أيضاً .. والمسئول الأول عنها هو القيادة العسكرية بالطبع . ولم يعرف تاريخ الحروب سوى حالات قليلة نادرة وإن كانت قيادة عسكرية فيها نعلم الموعد الذى حدده العدو بالضبط للهجوم والاستراتيجية التى وضعها ، ثم تخسر الحرب فى ساعاتها الأولى ، خسارة نهائية .

وقد جمع عبد الناصر هذه القيادة قبل الهجوم بأيام وأنبأهم بالمعلومات التى وصلت إليه من مصادر موثوقة وأن الهجوم سوف يبدأ صباح ، ٥ يونيه وبهجوم خاطف للطيران .. وأن علينا أن نستوعب هذا الهجوم ثم نرد عليه .

وتكفى قراءة أى الكتب الإسرائيلية العادية لمعرفة أن الاستراتيجية الموضوعة هى القضاء على مصر بالقضاء على قوتها العسكرية والقضاء على هذه القوة يبدأ بالقضاء على الطيران .. وقد كانت هذه هى الاستراتيجية التى طبقت سنة ١٩٥٦ والتى كان على القيادة العسكرية أن تحشد كل شىء لها سنة ١٩٦٧ .

وفى ساعات التعبئة الكاملة يتحتم وفقاً لأبسط قواعد الاستراتيجية أن يكون ثلث سلاح الطيران على الأقل فى الجو .. وأن يكونُ الباقى متأهباً مستعداً فى أقصى الاستعداد . ولهذا تبقى هناك فصول كثيرة مجهولة إن لم تكن مريبة فى كارثة الطيران سنة ١٩٦٧ . وأن يقضى على سلاح الطيران تماماً والطائرات رابضة فى المطارات وفى أقل من ساعة ونصف !

وبعد الكارثة ، لم تبق هناك جدوى من أى معارك أو مقاومة إلا لإنقاذ مايمكن إنقاذه من الشرف الوطنى والعسكرى .. وبلاطيران تبقى كل القوات عارية مكشوفة فى الصحراء .. وصيداً سهلا للعدو أفضل ما تستطيعه هو الانسحاب خيراً من الفناء .

وقد عصرت الهزيمة قلب مصر وعقلها وكرامتها ولكنها ظلت هزيمة فى جولة طويلة ممتدة منذ نهاية حرب السويس وربما قبلها بكثير .

كانت الحرب حرباً إسرائيلية — أمريكية ، ولم تكشف كل الحقائق والوثائق ، ولكن ما كشف عنه حتى الآن ، يثبت أن الخطة وضعت بتعاون تام بين المؤسسة العسكرية الإسرائيلية والبنتاجون فى الولايات المتحدة وأنها عرضت على جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وصدق عليها وباركها ، وأنها سميت (أبيض

وأحمر) رداً على خطبة عبد الناصر الشهيرة حول (ماء البحر) وظل جونسون فى مكتبه يوم ٥ يونيه يترقب الأنباء وحينما وصلت فرك يديه سعيداً وقال :

— هذه أحسن أنباء منذ زمن طويل !

وحينما أعلن (عبد الناصر) التنحى فاض الفرح وعم كل الدوائر فى واشنطن انتهت قضية الشرق الأوسط .

حينما انتشى جونسون بالأنباء من الشرق الأوسط لم يكن مبالغاً أو مازحاً .

بالنسبة له شخصياً ، انتقم وانتصر على خصم كان يحمل له كراهية وحقداً خاصاً ، لايقل عن دالاس أو إيدن ، ولم يكن يخفيه يوماً ويصر على الثأر .

وبالنسبة للولايات المتحدة فى «عهده » انهزمت الثورة وسقطت القلعة التى كانت تثير كل القلق ، وذهب الرجل الذى كان مصدر كل المصاعب والمتاعب ، وثبت عجز الحليف الذى اعتمدوا عليه فى الحرب والسلم أى الاتحاد السوفييتى وانتصرت الولايات المتحدة بالوكالة .. انتصاراً باهراً ساحقاً لم يسبق مثله !

وفى ستة أيام فقط قضت إسرائيل فى حرب خاطفة على ثلاث

دول عربية تواجهها ، وإحداها هى أكبر قوة عسكرية عربية ، وصلت القوات الإسرائيلية إلى مشارف دمشق واستولت على الجولان واستولت على الضفة الغربية للأردن وكل فلسطين ووصلت إلى الضفة الشرقية من قنال السويس واحتلت كل سيناء .

وعجب العالم كله واهتز لهـذا العمل الذى قامت به دولة صغيرة وحدها ، وقامت أعجوبة وأسطورة عسكرية .

ثم ثبت الفراغ وتأكد . لا أحد هذه المرة يستطيع أن يفكره أو ينازع فيه ، ليس هناك حلفاء أوروبيون يصرون على حقوقهم المكتسبة ولا وجود سوفييتى يقف حائلا أو مانعاً ، ولا تحرر عربى يسد الطريق ويعكر الهدوء والاستقرار .

الفراغ قائم شامل . ولا أحد يستطيع ولا أحد يجرؤ أن يتقدم ليملأه سوى الولايات المتحدة الأمريكية .

وبعد الصراع الأوروبى الطويل حول المسألة الشرقية والصراع الأوروبى الأمريكى حول البترول ومناطق النفوذ الموروثة ، وبعد الصراع الشامل بين الغرب والشرق فى الحرب الباردة ، ينتهى الشرق الأوسط كاملا .. إلى الولايات المتحدة وحدها .. إن الحزام الشمالى من باكستان إلى إيران إلى تركيا فى حوزتها ومصر مفتاح كل المنطقة

أصبحت فى قبضتها وسوريا أصبحت تحت فوهات مدافعها . . وليس هناك نصر أروع من هذا . . وخاصة لم يسقط فيه جندى أمريكى .

لم يكن هناك برهان أقوى أو أفضل على حنكة الاستراتيجية والدبلوماسية الأمريكية .

ويحق لجونسون أن يفخر ويتيه ، وأن ينسى قليلا الوحل والفشل الذى كان غارقاً فيه فى فيتنام .

هذا الانتصار الحاسم الجديد يبدأ نقطة التحول . . ومن يسود الشرق الأوسط يسود الشرق ومن يسود الشرق يحكم كل موازين القوى .

وسوف ترسم خريطة جديدة تؤمن الاستقرار لأطول مدى ممكن وسوف لا يملك العرب المهزومون الذين لا يثيرون سوى الرثاء أو الإزدراء إلا أن يرضخوا فى النهاية !

هكذا كانت النشوة بالنصر ، ولكن لم تدم أكثر من يوم واحد . . إن لم تكن ساعات وردت بعدها أنباء مختلفة من نفس الأمكنة !

* * *

خرجت قوة خفية لم تكن فى حساب أحد وأطاحت بكل الاحتمالات وقلبت كل التوقعات .

انشقت الأرض فجأة فى مصر ، عن طوفان من البشر ، وتدافعت ملايين بعد ملايين وأمواج من الناس فوق أمواج ونزلوا إلى الشوارع فى الظلام ووسط طلقات مدافع . . ورفضوا كل النتائج ، وأعلنوا التحدى العام . .

وبعد الهزيمة وقف عبد الناصر وأعلن مسئوليته الكاملة عن كل ما حدث وأنه يتنحى لأنه خسر المعركة ولا بد أن يذهب ليتولى من هو أصلح وأنسب .

ولم يكن الخطاب قد انتهى ، حينما تدفقت مصر كلها إلى الشارع وهاتفة هتافاً واحداً هو إسمه . . . واندفعت الجماهير فى سيل طاغ نحو بيته . . حيث قضت الليل كله حوله . . إن ذهابه هو تصديق على النهاية ، وهو ما لا يمكن أن يكون .

كانت مصر بعقلها الباطن والواعى ، وبكل التراث العريق العميق للثورة والحضارة .

كانت هى الجماهير التى ترث كل كفاح وتاريخ مصر والتى عاشت وصنعت ثمانية عشر عاماً عاصفة هى أخصب السنين وأحفلها بالإنجازات . . عاشوا وصنعوا سقوط الملك ونهاية الإقطاع وجلاء الاحتلال ، ثم تأميم القنال ، وفشل العدوان ، تمصير الثروة . . ثم تأميمها وبناء الاشتراكية . . كانوا هم الذين تحققت بهم ولهم الحرية .

وانتقلت إليهم السلطة والثروة . . وتفتحت الحياة . . ليبنوا ويحققوا مصر التي يريدونها .

وكانوا الجماهير التي عاشت الكثير من الهزائم ، والكوارث ، ومرارة الفشل .

وقد حدث ذات مرة أن هزمت الثورة ، ونفى عرابى ، ودخل الانجليز ، وقضوا على كل شيء واستباحوا كل شيء ، وبقوا ٧٤ عاماً طويلة حتى أرغموا على الجلاء . قفزت هذه العقدة من عقل مصر الباطن . . وتقرر أن لا يتكرر التاريخ ، وأن لا يذهب عبد الناصر ويحل الأمريكيون يملأون الفراغ ، وتبدأ مأساة أكبر .

خرجت الجماهير وأملت إرادتها . . هزمت جماهير مصر العزلاء في شوارع القاهرة . . الاستراتيجية « الكونية » المعاصرة وكل خطط ومشاريع القوة والسياسة الأمريكية بعد ساعات من الثقة بأن كل شيء قد تم وتحقق .

انهزمت مصر العسكرية في سيناء ، ولكن بقيت مصر الثورية ، وخرجت لترد على الهزيمة وتحتويها مجرد معركة وليست نهاية عصر .

كانت إحدى المرات القليلة النادرة التي خرجت فيها الجماهير بهذا المدى لتصنع التاريخ مباشرة « كما قال معلق عالمي وأقامت بأجسادها السد المنيع الذي حال بين العصر الأمريكي وأن يبدأ في الشرق الأوسط .

وكانت صدمة قاصمة لجونسون ورجله « ديان » .

وكانت خيبة الأمل بنفس القدر أيضاً لقوى خرجت من أوكار أقصيت إليها منذ الثورة وهى القوى المضادة ، وقد انتشرت هذه تشوه من جلال الأحداث ، وتردد أن هذه فورة انفعال لجماهير جاهلة أو أنها مناورة ومؤامرة مدبرة من البداية والنهاية وأن النكسة هى النتيجة الطبيعية للقهر الذى عانوه أى تجريدهم من السلطة والثروة وللمغامرة فى السياسة العربية والخارجية ، أى مساندة الثورات والانتفاضات العربية وتحدى الاستعمار والصهيونية ، وقالوا أيضاً أن المسئول يجب أن يذهب .. وأن مصر لن تقوم ثانية إلا إذا فعل ولم يصغ إليهم أحد .. كانت فورات وتقلصات حقد أسود يثير الرثاء ولا يستلفت الاهتمام .

واستأنفت مصر المسيرة .

مادام عبد الناصر قد بقى فكل شىء مستمر .

وما دامت الجماهير هى صاحبة الحق والسلطة ، فلن يبقى شىء مستحيلا سوف يعبر عبد الناصر بالبلاد من المحنة الكبرى .

كان يبعث من الثقة والقوة الروحية .. ومن الإحساس بالأمن والطمأنينة فى أحلك الساعات والظروف مايملأ قلوب الجميع .. مادام هناك فكل شىء ممكن .

ولم يكن الانطلاق سهلا مع هذا .. وقد أقلقت انتفاضة الجماهير القوى المحافظة واليمينية داخل الثورة كما أقلقت اليمين الآخر خارجها.. وخرج هؤلاء يشيرون بالحكمة وبالتروى فى معالجة الفترة الدقيقة القائمة .. إن أهم أسباب النكسة أن مصر قد تجاوزت قدراتها وحدود إمكانياتها فى الداخل والخارج وأن جرعة الإشتراكية التى قررتها كانت أكبر كثيراً مما يحتمل بناؤها الإجتماعى وميزانها «الطبقى» وهى لم توازن بين ضرورات الوحدة الوطنية ومتطلبات العدالة الاجتماعية .. وفى السياسة الخارجية كان عدم الانحياز غير متساوى الأبعاد بين طرفى القضية وأنه مال كثيراً إلى جانب دون الآخر ، وأن معاداة الاستعمار ومواجهة الإمبريالية قد تطرفت كثيراً إلى استفزاز ومناطحة « الوحوش » الكبار .

ولهذا يبقى على مصر أن ترشد سياستها ، أن تهدى من خطاها ، وفى الداخل أن تجمع كل أبنائها .. أغنيائهم وفقرائهم وأن تعيد تنظيم الصفوف مرة أخرى . . وفى الخارج أن توازن وأن تحيد أن لا تناطح « العمالقة » لأن السياسة هى فن « الممكن » !!

وكانت هذه القوى فى نهاية الأمر وخلف هذه الحكمة تدافع عن بقائها وعن مصالحها .

وقد كان خروج الجماهير ، وبهذا القدر والمدى .. وقدرتها على

أن تفسد وتصد الغزو الذى كان قادماً جديراً بأن يكون بداية عهد جديد . . أن تبدأ ثورة جديدة من قلب الثورة ، وأن تعلن تعبئة جديدة ، وتقوم قيادات ووجوهاً جديدة ، وأن تعلن خططاً وسياسات أبعد وأعمق ثورية . . أن تتولى جماهير ٩ و ١٠ يونية ١٩٦٧ السلطة وتكون حقاً وفعلا مصدر كل السلطات وتبدأ تاريخاً آخر .

إن مواجهة الثورة المضادة الداخلية أو الدولية لا تكون إلا بالاعتماد ومزيد من الاعتماد على قوى الثورة .

وكانت موازين القوى فى داخل السلطة وخارجها مختلطة معقدة . . وقوى اليمين دائماً أكثر قدرة وأعلى صوتاً .

وكان على عبد الناصر أن يشق الطريق وسط محيط من المتناقضات عرف فيما بعد أنه كان أشد تناقضاً وتعقيداً مما يتصور أحد .

وأدركت الجماهير أن عليها أن تخرج ، أن تصنع ما تريده بنفسها وخرج العمال ثم خرج الطلبة .. وبدا أن هذا ما كان يحتاجه عبد الناصر ويتمناه لقد أجمعت الجماهير على شعار واحد هو « التغيير » وطالبته رأساً ومباشرة أن يتولى التغيير .. كان الهتاف واحداً . مثبتاً مدى الوعى والحكمة الشعبية وإصالتها ، واستجاب عبد الناصر وصدر بيان ٣٠ مارس وثيقة جديدة تبدأ المرحلة الجديدة . وأجريت انتخابات جديدة . . وقام تنظيم سياسى جديد . . ضم هذه

المرة أوسع قدر من القوى الوطنية والتقدمية ، وبدأ التحالف والتفاعل بينهما وثيقاً .

وتأكد أن التغيير الواجب والذى يريده الناس هو التغيير إلى الأمام .. والأخطاء لم تكن إلا فى التطبيقات وفى الذين وقفوا دائماً عقبة تعرقل سيرها وتشكك فيها ومع تصحيح المسار السياسى والإجتماعى ، بدأ أيضا تصحيح المسار العسكرى .

كانت الجماهير تدرك أن التى سقطت قيادة عسكرية فاشلة وبورجوازية عسكرية فاسدة ، وليست القوات المسلحة المصرية .

وكانت المهمة الأولى هى إعادة بناء هذه القوات ورد ثقتها وإرادة القتال لديها ، ولا يفعل هذا شىء مثل القتال نفسه ، ودارت معركة رأس العش بعد أسابيع فقط من الهزيمة .. معركة نفسية أكثر منها عسكرية وحققت كل نتائجها .

وضع عبد الناصر الاستراتيجية القادمة . (ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة) إن الكفاح بالسياسة أو الدعاية أو الدبلوماسية قد يكون ضرورياً ولكن العمل الحاسم لن يكون إلا فى الميدان .

وصفيت البورجوازية العسكرية التى كانت أهم أسباب الهزيمة وحينما حاولت فلولها الإستيلاء على السلطة حوكمت محاكمة علنية كانت فى نفس الوقت نقداً ذاتياً لكل عيوب الثورة . وأصبحت

مهمة القوات المسلحة الأولى والأخيرة هى الحرب والتحرير ، واستردت القوات المسلحة تسليحها ، وحصل عبد الناصر بما كان له من احترام وثقة على بديل لكل الأسلحة التى فقدت ونظمت الخبرة وتبادلها بين القوات المصرية المسلحة وخبراء الاتحاد السوفييتى ، كان لابد من تعميق الاستفادة من العلم والفن العسكرى السوفييتى ومن القدرة على استعمال الأسلحة ومن استيعاب الخبرة إلى كل مستويات القوات المسلحة ، واستطاع عبد الناصر أن يعمق التزام الاتحاد السوفييتى عامة بقضية الشرق الأوسط أن تصبح التزاما أساسياً .

واتخذ عبد الناصر القرار الآخر الحاسم فى تاريخ العسكرية المصرية ، وهو تجنيد الجامعيين وذوى المؤهلات جنوداً فى القوات المسلحة ، ولإقامة جيش مقاتل مثقف يجيد الأسلحة الحديثة ويعرف تماماً لماذا يقاتل وفى سبيل أى قضية .

وتقرر أن يكون التكوين السياسى والفكرى للقوات المسلحة بنفس أهمية التكوين والتدريب العسكرى .

ولما كانت الحرب أفضل مدرسة للحرب نفسها ، فقد بدأت حرب الاستنزاف واشتدت يوماً بعد يوم وزعزعت أسطورة التفوق الإسرائيلى خاصة التفوق الذى كانت تحرص عليه أشد الحرص ، وهو التفوق الجوى وتساقطت الطائرات متتالية فى أسبوع .

ولقد قلق حلفاء مصر وأصدقاؤها فى البداية من حرب الاستنزاف وكانت هزيمة مصر صدمة لهم واعتقدوا أن وقتاً طويلا لابد أن يمر قبل أن تستعيد مصر قدرتها وأن عليها أن لا تتعرض لمخاطرة أو مغامرة . ولكن اشتباكات وبطولات حرب الاستنزاف أقنعتهم بالعكس ، أن يؤيدوها . . وبدأت مصر تحصل على أحدث الأسلحة والسلاح الجديد الحاسم فى الحرب الحديثة وهو الصواريخ .

ولما أدركت الولايات المتحدة أن مصر لم تنته وأن قصة الشرق الأوسط لم تحسم ، تقدمت بمبادرة جديدة باسم وزير الخارجية روجرز .

وقبلتها مصر .

قبلتها لكى تبنى قواعد الصواريخ بقدر أقل من التضحيات الباهظة من المدنيين والعسكريين التى كانت تدفعها كل يوم . . ولكى تحصل القوات المسلحة المصرية على هدنة قصيرة لالتقاط الأنفاس ولمراجعة نتائج واستراتيجية حرب الاستنزاف ، ثم لإرضاء القوى الدولية التى كانت تبذل أقصى الجهد لتحقيق تسوية سلمية . . ولاختبار أو كشف حقيقة النوايا والسياسة الأمريكية .

وقامت القوى العربية المزايدة بحملة عاتية وظالمة ضد قبول مصر المبادرة ودفعوا الفلسطينيين دفعاً ليتصدروا هذه المعارضة ،

ومصر دولة وثورة لها حق المقاومة والمناورة والثورة الفلسطينية ثورة تملك حق العمل المسلح دائماً ولم تنكره مصر عليها . ولم تحسب الثورة الفلسطينية ميزان القوى وغررت بها القوى المزايدة وتخلت عنها فى أوج المحنة . ولهذا سارت نحو كارثة .

وجمع عبد الناصر كل العرب لينقذ المقاومة وبذل كل ما استطاع فى المحاولة ونجح .

وحينما تنفس الناس الصعداء فوجئوا بالنبأ الفاجع والمفاجىء وهو وفاته . . لم تكن هناك صدمة أشد وقعاً وهولا . . ولكن سقط عبد الناصر مقاتلا كما عاش فارساً بطلا .

كانت فلسطين قضيته منذ حصار الفالوجا حتى مذابح سبتمبر ، وكانت معركته الأولى على أرضها ومعركته الأخيرة فى سبيلها . وكانت بالنسبة له قضية كل العرب وتنعكس فيها كل قضية العرب ، وهى معركة الثورة العربية الفاصلة ضد الثورة المضادة عامة ، وكانت معركة عسكرية وسياسية ودبلوماسية شاملة قادها وسقط كأعظم شهدائها ، وبذلك لم يورط عبد الناصر مصر فى سلسلة حروب وهزائم . من هزيمة إلى هزيمة أشد ولكن أقام دروعها الحصينة وأرسى دعائم قوتها .

وأدرك عبد الناصر الحقيقة الأولى فى حياة مصر وهى أنها لكى

تبقى لابد أن تدافع وتحارب ، وأن مصر بموقعها ومكانتها تقع فى قلب كل الأطماع الاستعمارية وفى مواجهة دائمة غير متكافئة معها وأن مصر لكى تقوم وتسود لابد أن تكون قادرة عسكرياً وأن تكون قوتها الذاتية ومحالفاتها كافية إستراتيجياً .

وقد هزم عبد الناصر التحدى الأساسى وبنى قوة مصر العسكرية .. وهو قد بنى المحارب المصرى المعاصر ، وشق الطريق إلى مصدر السلاح والخبرة ، واكتشف الاستراتيجية الصحيحة لمصر ، وهو قد قاد معاركها المنتصرة ببراعة وبسالة . ثم وهذا ما يميز أعظم القواد ، احتوى أكبر هزائمها ، وجعلها مصدراً للثقة والصمود وحولها إلى محنة عابرة تصنعنا ولا تكسرنا .

وقد وضع عبد الناصر القوات المسلحة المصرية فى إطارها الصحيح ولتقوم بدورها التاريخى فى تحقيق الثورة أولا وفى تحرير الأرض والشعب دائماً . . وحينما مات كانت مصر مقاتلة وتستكمل عدتها لاستئناف القتال !

والطريق إلى ٦ اكتوبر بدأ يوم ٢٣ يوليو ولم يكن ممكناً أن يكون مفروشاً بالورد وأن لايزخر بالأشواك والألغام .. كما لايجب أن يجهل توفيق الحكيم !

الفصل السابع

لعبة اليسار

بعد رسالته إلى اليمين كتب توفيق الحكيم رسالة ثانية لليسار .

وقد كانت عودة الوعى رسالة خاصة وفريدة إلى اليمين ، وكانت طلب استغفار واستخدام معاً ، أن يعفوا عنه مهما كبر ذنبه وأن يحتملوه ويصدقوا عليه مفكرهم ومحاميهم الأول وبذا يظل الكاتب الكبير أكبر الكتاب ومقيما فى أعلى الأبراج وفى كل العصور والأزمان .

وقد خرج اليمين يلبس جلد النمر ويشيع الرعب والذعر ويصدق صورته فى المرآه ، وتصور الكاتب الكبير أن كل شىء قد عاد كما كان فى سالف الأزمان وهرع يجد لنفسه مكاناً .

وخيبت الأحداث والأيام ظنه وصدمته وإذا لم يكن اليمين فليكن اليسار .

وكانت الرسالة هذه المرة رسالة « تبنى » « وصاية ورعاية » لقد كان اشتراكياً طوال حياته وكان متعاطفاً مع الماركسية منذ السنين الأولى للثورة وكتب كتباً فى هذا .. ولهذا يملك الحق فى أن « أخاف على اليسار المصرى وأحافظ عليه وعلى مستقبله .. وليقوم يسار صادق مع نفسه ومع الحقيقة ويبنى مذهبه وكفاحه على المذهب الاشتراكى الحقيقى » .

لابد أن يقوم بإنقاذ اليسار « لأنه يبيع جوهر الاشتراكية لصالح موقف تكتيكى » .. ويدافع عن « اشتراكية مزيفة مرقعة هى الناصرية » .

وبهذه الرسالة يكسب الكاتب الكبير اليمين واليسار ويعمل لهؤلاء بالليل ولأولئك بالنهار مادام يشفى حقده العارم فى كل اتجاه !

واليسار الحقيقى فى مصر هو الشعب ، جماهير الناس الذين عاشوا وحملوا مسئولية القضية الوطنية والاجتماعية والذين أصبحت مصر لهم وهؤلاء هم « اليسار » الذين لا يمكن أن يتجهوا يميناً أو أن يسمحوا لليمين أن يحكمهم أو أن يرتد بهم ، وأن يعيد الملاك والرأسماليين .

هذا هو اليسار المصرى . إن اليسار ليس طائفة أو فرقة أو حزباً ولكن مجموع الفقراء والمحرومين ، ومن يتطلعون إلى عالم أفضل وإلى مجتمع إنسانى هؤلاء هم اليسار الذى يتوجه إليه الكتاب والمثقفون دائماً والذين يضعون أنفسهم وسطه وفى مقدمة صفوفه ويبحثون لهم ومعهم عن حلول .

ولكن رسالة توفيق الحكيم إلى اليسار لم توجه للجماهير ولعامة الشعب ولكن إلى فريق من اليسار كان أبعد ما يكون عنه وهو «الماركسيون» واليسار الشيوعى فى مصر ومن أقصى اليمين انتقل إلى أقصى اليسار .

أعلن نفسه ناصحاً وأخاً أميناً كبيراً وحارساً لا ينام على مبادئهم وهم قد ساروا فى طريق خاطئ ولا بد أن يصححه لهم وأن يتبعوه إلى الطريق المستقيم . لقد ظهر « الأب الروحى » الجديد الماركسية والماركسيين .

ومنذ البداية رفض أفضل الماركسيين دعواه ولم يثر كتابه « عودة الوعى » بينهم إلا الإزدراء .

وكانت خصومة الشيوعيين مع الثورة دائماً سياسية ولم تكن طبقية ، كانت خلافات وخصومات فى إطار الثورة وبين فرقها وفصائلها المختلفة ، وهو ما يحدث كثيراً فى الحزب الشيوعى الواحد أو الحزب

الاشتراكى الواحد . وفى الجبهة الوطنية أو الشعبية إذا قامت وكان طبيعياً أن يحدث فى ظروف الثورة المصرية ومسارها المعقد وكان طبيعياً أيضاً ومحتوما أن ينتهى إلى التقاء بصدق الطرفين وحرصهما على الثورة .

وقد انتهت الخصومة إلى حوار ، ثم إلى تفاهم وتكامل إيجابى وكان يزداد باضطراد وكان أشد ما يخيف ويقلق قوى الثورة المضادة كان جمعاً لكل الصفوف والطلائع وتعميقاً للوحدة الفكرية والوطنية لكل الشعب .

وكانت الناصرية هى الوطنية المصرية فى شكلها المعاصر فى منتصف القرن العشرين ، وقد تشربت الوطنية المصرية منذ البداية كل ما هو ثورى وإيجابى فى حياة العصر وفى القرن الماضى وأوائل هذا القرن تشربت تراث الثورة الفرنسية » البورجوازية .

وكان طبيعياً أن تتشرب الوطنية المصرية « الناصرية » ثورة العصر الاشتراكية العلمية وأن تبدع نموذجاً خلاقاً فى التفكير والتطبيق المصرى .

ولم يكن معقولا أو منطقياً أن تقوم خصومة أو عداوة دائمة بين ثورة اختارت الاشتراكية ورفضت الرأسمالية وتتعلم باستمرار

وبين أى فرقة من فرق أو فصائل الوطنية والاشتراكية عامة .

الوطنية لم تعد تعنى حب الأرض أو مجرد تحرير الوطن ، ولكنها تعنى أولا حب الشعب وهى لهذا لا تنفصل عن الديموقراطية والاشتراكية .

والماركسية قد لا تؤمن بالوطنية البورجوازية أو الفاشية ولكنها تؤمن بحق الشعوب فى تقرير مصيرها وبالوطنية الثورية حتى ولو قادتها البورجوازية ولا يمكن أن تقوم اشتراكية ماركسية أو غير ماركسية فى بلد لم يتحرر أو لم يسترد سيادته أو لا يملك حق اختيار النظام الذى يريده .

لم يكن هناك موضوعياً أى خلاف لا يمكن أن يحل بالتفاهم والحوار بين الناصرية والماركسية وأى فرقة أخرى من فرق الاشتراكية وهو ما اكتشفه كل الأطراف وساروا خطوات واسعة فى طريقه .

ولقد كان سر نجاح الناصرية وإصالتها أنها بدأت من الواقع المصرى وانتهت إليه لم تكن مكبلة أو مقيدة أو متحيزة واعتمدت على الفكر والتجربة معاً . وتلمست الحلول فى الداخل والخارج بلا تعصب .

كانت الاشتراكية « الناصرية » نموذجاً لحيوية مصر الثورية والحضارية ولحيوية العالم الجديد المستعمر « الثالث » ولبحثه عن

حلول جوهرية وحقيقية ولإثبات قدراته النظرية والعملية ولم يكن ممكناً أن يناصبها العداء أي ماركسي حقيقي بل أن يسير معها ويجادلها وفق قوانين الجدل .

ولم يشذ عن هذا الطريق سوى فصائل متناثرة من يسار ساذج مريض وأحياناً مريب ، ويعيش بصيغ ماركسية تبدو شديدة التطرف ولكنها تقليدية قديمة فاتها الزمن .

وهذا اليسار هو عبء على الثورة وعلى الاشتراكية دائماً وهو ينتهي أخيراً إلى خدمة أقصى اليمين .

وقد كان أول من هاجمه لينين نفسه قائلا « ان أقصى اليسار ينتهي دائماً إلى خدمة أقصى اليمين » وأثبت التاريخ صحته .

وقد ألحق هذا اليسار أفدح الخسائر بالثورة العربية وبالوقيعة بين القوميين والشيوعيين . والاشتراكيين ، وبين كل أطراف وأحزاب الثورة العربية من ناصريين وبعثيين وماركسيين ومن هذه الوقيعة استمد اليمين العربي أكبر مصادر قوته . وهو لا يستمر بقوته الذاتية بقدر ما يبقى بانقسامات وانشقاقات اليسار .

وقد بدأ انحسار مد الثورة العربية في موجتها الأولى بالإيقاع بين الثورة العراقية سنة ١٩٥٨ وبين الجمهورية العربية المتحدة وكان بداية خصـــومات وصراعات انتهت إلى هزيمة حرب ١٩٦٧

ولو اتحدت مصر وسوريا والعراق فى ذلك الحين لكان كل شىء قد حسم . !

وهذا اليسار ليس مجرد ضحية لسذاجته أو سطحيته ولكنه يضم فصائل وكتائب مريبة .. وقد تعلم الاستعمار والرجعية والصهيونية فى كل العالم تكتيكا جديداً هو أن لا يعمل تحت شعارات رجعية أو يمينية أصبحت مرفوضة ولكن تحت شعارات متطرفة بالغة التطرف تدفع إلى المغامرة أقصى المغامرة ومنها إلى الكارثة .

وهذا هو اليسار الذى اختار توفيق الحكيم أن يتوجه إليه من كل اليسار ولا ندرى لصالح من .

ووحدة قوى اليسار ليس مؤامرة ناصرية كما يعلن الكاتب الذى يعلن يساريته لأول مرة وهو فى صالح الماركسية والماركسيين قبل أى طرف آخر .

وفى إحدى الاجتماعات الدولية فى روما سأل سكرتير الحزب الشيوعى الإيطالى . . بعض المثقفين المصريين « لماذا لا تجد الماركسية أرضاً ولا تمد جذوراً فى مصر » ولم يستطع أحد أن يجيب وتبرع مثقف متخلف متعصب برد مبتذل !

ولكن أهم أسباب غربة الماركسية حتى الآن فى مصر هو صداماتها

التى لا مبرر لها مع أقوى القوى فى مجرى الثورة والحياة السياسية فى مصر وهى الوطنية المصرية .

وقد نشب الصدام الأول مبكراً جداً بين الماركسية وأول ثورة شعبية جماهيرية قامت ودارت فى الشارع وهى ثورة ١٩١٩ بقيادة الوفد وزعامة سعد زغلول .

وفى ذلك الوقت لم يقدر الماركسيون مغزى الحدث الذى وقع وهو الثورة وانتفاض كل الشعب ، ولم يراعوا الواقع المصرى والواقع الدولى ولم يحسبوا حساباً دقيقاً لميزان القوى وكان لابد أن ينتهى الصدام بانحسار الماركسية !

ولم يستخلص أحد كل عظات ذلك الدرس . لم يكن هناك حزب أو تنظيم قائم وناضج ، يقوم بالنقد والنقد الذاتى ولم يكن هناك استمرار فى الحركة .

والماركسيون خاصة فى مصر هم أكثر الناس شغفاً وحرصاً على نقد الآخرين . وعلى رؤية القشه فى عين الآخرين وتجاهل الخشبة فى أعينهم ولهذا تكررت الغلطة وهذه المرة بنتائج أشد وأقسى ، وبالصدام الذى لم يكن حتمياً ، والذى كان تداركه واجباً وممكناً مع ثورة يوليو .

ولقد كان على الماركسية المصرية بعد قيام الثورة ، وكانت

ممثلة أبرز تمثيل فيها أن تقدم صيغاً جديدة خلاقة ومصرية صميمة وذلك للتفاهم والتفاعل والتحالف وللنقد المتبادل فى إطار ما هو أهداف مشتركة .

والصيغ الأوروبية أو السوفيتية أو الصينية فى العلاقات والمواقف قد تكون مرجعاً أو مرشداً غنياً ، ولكنها لا يمكن أن تكون الصيغ الوحيدة أو التى تنقل نقلا حرفياً وفى واقع مختلف وبعيد كل البعد .

ولكن الصراع الذى نشب لم يكن حربا أيديولوجية أو طبقية بين ثوار ورجعيين ولهذا انتهى أفضل الناصريين وعلى رأسهم جمال عبد الناصر . إن لابد أن ينضم الجميع ويقفوا معاً . وفتحت الثورة صدرها وقدمت مكاناً مناسباً لعديد من أفضل أبنائها .

التصق الكل وانصهروا فى حقائق ودقائق الواقع المصرى ووجهاً لوجه مع محنه ومشاكله وهذه هى البوتقة التى يمتحن فيها ويتكون أفضل الاشتراكيين .

وما كانت تفتقده الماركسية المصرية من أنها مدرسية منقولة ولم تتغلغل فى تراب مصر بدأ يبطل . وظهرت طلائع إبداع ماركسى مصرى جديد ويطرح حواراً إيجابياً وخلاقاً بين كل الأطراف ويذيب كل حواجز الشك والوهم بين الجميع .

بدأ ينحسر عهد النقل والتعصب للفكر والتجربة السوفيتية ، أو تمجيد وتسفيه كل ما عدا التجربة الصينية . . و « عبادة » منهج لا منهج غيره هو طريق « جيفارا » ثم دوران الجميع فى حلقات صغيرة مفرغة وبدأ فى إطار التحالف الكبير وبخطى ثابتة حوار وتآلف وتكامل .

وتحرر كثير من الماركسيين من العزلة ومن الإحساس « بالعصمة » وإن التاريخ سوف يؤول لا مناص إلى قادته . ومن التعصب لأن ماليس ماركسياً خالصاً فان يكون إشتراكياً !

وتحقق فى هذا الإطار ما يكفل تطبيق أهم قوانين الاشتراكية وضمانات نجاحها وهو النقد والنقد الذاتى . وكل الأحزاب أو التيارات والاتجاهات ، تفضل دائما نقد الآخرين وينقلب دائما إلى هجوم ثم إلى معاداة . ولكن التكامل والإندماج فى إطار حلف كبير جعل من كل طرف حارساً يقظاً على الثورة على موقعه ومكانه وعلى مدى مسئولية والتزام الآخرين .

وحينما يزدهر النقد والنقد الذاتى فى داخل حزب أو تنظيم أو يصبح قاعدة فى الحياة السياسية لبلد ما . فإن خطر البيروقراطية والبوليسية ، ونمو الطبقة الجديدة يتضاءل إلى أبعد الحدود .

هذا ما بدأ منذ أواسط الستينات . بين الثورة والماركسيين ،

وبالصالح المتكافىء للطرفين من كل حسب مساهمته . وبدأ عصر جديد .

وكان هذا الانعطاف ، مثار أشد القلق والجزع بين كل قوى الثورة المضادة وكانت تنظر إليه كأكبر خطر يجب أن تتداركه وتدفعه وقد لعب هذا دوراً كبيراً فى تدبير وتعجيل حرب ١٩٦٧ .

وكانت هذه القوى تعمل على فصم ما تم برفع «خطر الشيوعية» وبإنذار أن الشيوعيين ينفذون إلى السلطة .. ويقتربون من أهم مواقعها وسوف يستولون عليها .

وكان يساعدهم من الطرف الآخر ، وعن طريق مختلف ، اليسار الطفولى بصخبه وصياحه . لقد خان الماركسيون مبادئهم وتخلوا عن دورهم . واستسلموا للبورجوازية ، وقبلوا الذيلية والتبعية للناصرية ولابد من شن الحرب عل كلا الاثنين .

وكان التقاء نموذجياً لأقصى اليمين وأقصى اليسار !!

ولقد تفكك الحلف وتعثر لفترة من الوقت ولـكنه تجدد تلقائياً وبحيوية وفعالية مضطرمة وليواجه الهجمة التى شنها اليمين وهدد فيها بكل شىء .

تبين أكثر الأطراف ولم يكن صعباً أن يتبينوا أن الهجوم على الناصرية هو هجوم على الثورة عامة ، وهو البداية . بتصفية الخطر الأول والأشد والشعبي ليسهل تصفية كل فرق وفصائل الثورة الباقية

وبعد الناصريين لن يكون عسيراً تصفية ما بقى من حلقات أو أفراد وشخصيات ماركسية وبذلك يصفوا الجو ويعود العصر الذهبي !

وثاب عدد من المتطرفين اليساريين والطفوليين إلى الصواب وانضموا إلى الصف العام .

وكان تصدى اليسار المصرى العام ومن كل الاتجاهات للغارة الفكرية والعقائدية التى شنها اليمين المصرى . وبكل ما لديه من تخلف وتعصب وللاستيلاء على السلطة بعد الاستيلاء على عقول وأرواح الناس . كان هذا التصدى هو أول أسباب انكسار الغارة وتحطم أهدافها .

وتصدى اليسار كان المبادرة التى دفعت الإنتفاضة السياسية التى قام بها حلف قوى الشعب العامل بفلاحيه وعماله وطلابه ومثقفيه « وأعادت للتحلف وللناصرية هيبتها .

كان انتصاراً كبيراً أهم الانتصارات وقد فاجأ اليمين وصدمه بعدما كان مطمئناً أن كل شيء قد نضج وإنه على وشك إقتطاف الثمرات . وارتد هلعاً يخلع جلد النمر ويلبس جلوداً أخرى .

تغيرت الشعارات .

لم يكن أحد يريد أى ردّه .

وهم ديموقراطيون ثوريون . . ولكن .

وهم يساريون . . ولكن .

وهم يحبون عبد الناصر ويجلونه . . ولكن .

وخرجت رسالة توفيق الحكيم إلى اليسار . اليسار الماركسي وحده !

ويبدأ توفيق الحكيم بأن من حقه كل الحق وقبل أى أحد آخر أن يخاطب اليسار . هناك مائة سبب وسبب . كل منها يفضل الآخر ولكن أول هذه الأسباب .

« أننى حاربت النازية منذ أربعين عاما وأننى كتبت فى هذا كتيبا ويكفى كتاب سلطان الظلام . إن ميولى التقدمية كانت دائما واضحة ومنذ ما قبل الثورة » .

ومحاربة النازية وحدها لا تكفى إثباتا للتقدمية ودليلا عليها .

وقد حارب النازية شيوعيون واشتراكيون وليبراليون ، وحاربها مثاليون ومسيحيون وثوار وطنيون ، ولكن حارب النازية أيضا رأسماليون واستعماريون . ولا يختلفون إلا فى الشكل ، وقد قامت النازية أساسا بتشجيع ومساعدة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة . كانت الرأسمالية العالمية تريد أن تطلقها لمحو « البلشفية »

لما أعلن هتلر أن هذه رسالة حياته ، ولكن انتقضت عليها ولم تتسامح معها حينما نازعتهم الحق فى السيادة على المستعمرات وأصبحت خطراً يهدد الإمبراطوريات .

وحرب النازية لهذا تقدر بالموقع والمبدأ الذى نشن منه ولأجله هذه الحرب .

والذين عاصروا الحرب يذكرون تماماً أن توفيق الحكيم لم يعلن « الجهاد » ضد النازية باسم الاشتراكية أو دفاعاً عنها أو حتى لأجل الوطنية الديموقراطية المصرية ولكن باسم الحلفاء !

وليس توفيق الحكيم هو الذى يشهر السلاح على النازية والفاشية ولا حق له فى هذا الإدعاء ومن بين أهم كتاباته كتب تفوح وتزخر برائحة الفاشية ومعاداة الثورة والاشتراكية ، وهو قد كتب مثلا فى أوج الثورة الوطنية والاجتماعية سنة ١٩٤٦ يدعو إلى إدخال الشعب المصرى كله إلى جامعة عسكرية يتخرج منها ويتكون فيها الشعب المنحل المهلهل « يخرج رجالا » ولا يختلف هذا فى شىء عن دعاوى هتلر وموسولينى وتوجو ومحور الفاشية هو تجنيد الشعوب كقطيع يسيره « دوتشى إيطالى » أو « فوهرر ألمانى » .

ويقدم توفيق الحكيم أهم كتبه على الإطلاق وهو عودة الروح بشعار « الكل فى واحد » وهو شعار كل الحركات الفاشية والنازية

فى العالم بكلمات مختلفة . . وهو مع كل مزاياه الأدبية يدعو فى النهاية إلى انتظار المخلص والمعبود . . وحينما أراد أن يغمز الثورة وعبد الناصر قال فى عودة الوعى « أخشى أن يكون عبد الناصر قد أساء فهم عودة الروح وفهمها فهماً نازياً » .

وحينما حارب النازية والفاشية لم يكن يقف فى المنابر الوطنية والديموقراطية التى كانت تحاربها عن عقيدة وإيمان وهو قد كان متباعداً تماماً عن الحركة الوطنيـة وعن كل ممثليها من مختلف الاتجاهات وكان دائماً فى المواقع الآمنة وفى كنف السلطة وهى لم تكن لتحارب النازية أو تتعاطف مع الاشتراكية .

وبعد أن انتهت الحرب وتطور الصراع بين النازية والحلفاء شرقاً وغرباً إلى صراع صريح بين الاشتراكية وبين فاشية جديدة « أمريكية » اختار موقعه ومنبره فى المنبر الثانى ، وليصب كل تعاليمه فى أرواح المصريين .

وحربه ضد النازية كانت وفق الألفاظ الجديدة التى تعلمها . عينة خالصة للانتهازية الفكرية والسياسية التى تميز تميزاً فريداً بها !

وخلال الحرب العالمية الثانيـة كانت الأغلبية العظمى من المصريين . . تقف بحماس ضـد الحلفاء وكانت ترى أن الحرب القائمة حرب قائمة بين « لصوص » من عصابتين مختلفتين . كانت حرباً كما

قال شيخ الأزهر «لا ناقة للمصريين فيها ولا جمل» .. وكانت الغالبية العظمى من المصريين تطرب أشد الطرب ، وتنتشى فرحاً للهزائم الساحقة التى يوقعها المحور بالحلفاء ولم يكونوا يخفون هذا .

وذات يوم سأل السفير البريطانى سياسياً مصرياً . . « لماذا يكرهنا نصف المصريين على هذا القدر » !

وقال متعجباً « نصف المصريين .. وماذا جرى للنصف الآخر »

وقد كان هذا أكثر ما يثير مرارة البريطانيين ، ويقلقهم ، كانوا يخشون مضاعفاته واحتمالاته ، ولم تكن دعايتهم البريطانية لتنفذ إلى نفوس المصريين أو لتستطيع أن تغير أو تخفف من مواقفهم .

وفى النهاية اهتدت الدعاية البريطانية إلى أن أفضل الطرق هو تجنيد بعض كبار الكتاب والمفكرين المصريين للقيام بالمهمة . الكتاب الذين كانوا يضعون واجهات وأقنعة ديموقراطية وليبرالية . ويتكلمون « لغة الغرب » . وألقيت عليهم مهمة إقناع المصريين بأن هذه ليست حرباً بين النازية والإمبريالية الغربية ولكن حرباً بين الديموقراطية والديكتاتورية وبين الحرية والفاشية . . ولهذا فإن على المصريين الذين يريدون حريتهم أن يقفوا فى الصف وأن يكونوا طرفاً فى الحرب ، ومع الحلفاء . وكان هؤلاء قد استباحوا كل شىء فى مصر واتخذوها محطة تموين وترفيه عامة .

وتتالت المقالات والمسرحيات والروايات والدراسات بأقلام مصرية كبيرة وصغيرة . ولكن يمكن أن يصدقها الناس . وتدعو المصريين أن يقفوا مع الحلفاء فى ساعة المحنة وأن ينسوا الإمبراطورية وتشرشل وإيدن . . من أجل القضية الكبرى وهى الحرية .

وكان هناك نموذج آخر مضاد .

خلال الحرب العالمية . . وفى ذروتها ، بعد أن اجتاحت القوات اليابانية كل آسيا ووقفت قرب حدود الهند . رفعت الحركة الوطنية الهندية شعارها التاريخى « ارحلوا عن الهند » وثارت ثائرة الانجليز واتهموا الهنود بالحمق وبالخيانة كيف يرحلون الآن واليابان تتأهب للاكتساح .. وكيف لايشترك الوطنيون الهنود فى الحرب والوقوف ضد العدو « الفاشى » .

وأعلن غاندى . . ونهرو . . أنه يجب أن ترحلوا الآن لكى ندافع عن بلادنا ولا ندافع عن الإمبراطورية . . إن الهند ملكنا ونحن نقرر مصيرها ونعرف أفضل طرق الدفاع عنها . ووقف كل كتاب ومفكرى الهند الوطنيين هذا الموقف .

واعتقل الجميع قادة وسياسيين ومفكرين .. ولم يبق أحد تقريباً خارج السجن .

وانتفضت الهند ، أكبر انتفاضة فى تاريخها الحديث . قام بها

وقادها الشعب نفسه . . وسقطت الغشاوة عن أعين البريطانيين . وأدركوا من يومها أن رحيلهم قد يؤجل ولكنه محتوم وسريع .

وإذا كانت الظروف فى مصر مختلفة ولم يكن هناك القادة والمفكرون الذين يسلكون نفس الطريق ، فإن أفضل ما كان يمكن أن يفعله الكاتب الكبير هو « الصمت » أو أن يعلن ثوريته واشتراكيته فى ذلك الحين . وعلى رؤوس الإشهاد واضحة ، ولا يمكن أن يفخر بالعمل للحلفاء بعد ثلاثين عاما .

والمبرر الثانى والأهم والذى يعطى توفيق الحكيم حقه فى مخاطبة اليسار والحرص عليه هو « تعاطفى مع الماركسية التى كنت أدرسها فى العشرينات والثلاثينات عندما كان عمر الثورة الروسية أقل من سبع سنوات وهذا شىء معروف ، وكنا أيامها نرقب إنشاء حزب أو اتجاه اشتراكى واضح فى مصر »

والكاتب الذى درس الماركسية والثورة الاشتراكية الروسية والذى عرف عنه هذا والذى أراد تكوين حزب اشتراكى «واضح» فى الثلاثينات .. لابد أن ينعكس هذا « بوضوح » فى كتاباته .

ولا يتطلب الأمر مجهراً ليعرف الناس من هو الكاتب اليسارى والكاتب اليمينى ومن هو الكاتب المتعاطف مع الماركسية والثورة البلشفية » والكاتب الرافض المعادى لها .

والماركسى العاطف ... والنصير للثورة فى روسيا لا يمكن أبداً . . فى الثلاثينات أن يكتب « عصفور من الشرق » . وأن يختم روايته بخلاصة حكمتها وعلى لسان بطلها الأخير . وأن يكون هذا روسياً أبيض هارباً من روسيا لاجئاً إلى باريس ، ويعلن فى خطبة بليغة هى ذروة حكمة الرواية أن الثورة الروسية قد فشلت تماما .. وأن خلاص الإنسان والمجتمع ليس فى « المادية » ولكن فى العودة سريعاً إلى الشرق إلى ديانات وروحانيات الشرق وإلى الإيمان الأعمى الفطرى بها .

وأن العلم والصناعة والديموقراطية أفسدت الإنسان وأهدرت أسمى ما فيه وهى روحه وعليه أن يدع كل شىء ويستردها بالعبادة !

ويدعو « إيفان » الروسى .. بمباركة المؤلف وفيض إعجابه هنرى العامل الفرنسى .. الذى تقع عليه تبعة الاشتراكية فى الغرب ، ومحسن المثقف المصرى الذى تقع عليه تبعة التحرير فى الشرق يدعوهما إلى العودة إلى الشرق « من أجل الإنقاذ » ويصمت هنرى .. ويوافق محسن بل ويفوق الروسى الأبيض حماساً . وهذا ليس الماركسية ولا الاشتراكية بل ولا الوطنية ، « البورجوازية » فى الثلاثينات ! ؟

والاشتراكى الذى أحاط بالماركسية علماً والذى لاحق الثورة الروسية . لا يمكن أن يكتب فى نهاية الأربعينات وفى أوج الأزمة

الوطنية والاجتماعية فى مصر .. بياناً سياسياً وإيديولوجياً بعنوان « لست شيوعياً ولكن » ويدعو الطبقة العاملة لقبول استغلال الرأسماليين مع المشاركة معهم فى الأرباح . وأن يكون شعار الطبقة العاملة « استغلنى واشركنى فى الأرباح » مؤيداً بذلك خطة الرأسمالية الجديدة بعد الحرب أى المشاركه فى فرنسا والاقتصاد الاجتماعى الحر فى ألمانيا والرأسمالية الشعبية فى أمريكا .

والاشتراكى ذو الاتجاه الماركسى الواضح . لايدعو الشباب فى مصر .. وهى توشك أن تنتفض انتفاضة كبرى إلى أن يكون نموذجه ومثله الأعلى هو فورد وكروب .. أو بنزايون وصيدناوى من الأجانب الأحرار !

وأخيرا فإن الاشتراكى ذو التعاطف مع الماركسية لا يكتب فى الستينات بعد خمسين عاما من الاشتراكية فى روسيا وقيام معسكر اشتراكى وقيام عالم ثالث ، واستقباب ثورة فى مصر .. والعالم العربى لا يكتب « التعادلية » . والاشتراكية ثورة جذرية والماركسية علم الثورة وليست توفيقاً وتلفيقاً وتعادلا !

وقد كانت الثورة الروسية حدثا . بدأ منه تاريخ كامل جديد .. كانت مثل الثورات البريطانية والفرنسية والأمريكية . نقطة تحول فى التاريخ الإنسانى وتحـــــددت مواقف الـكتاب والمفـكرين

والسياسيين منها . . أو ضدها أو بعيداً عنها .

وقد مرت الثورة الروسية خلال سبعة وخمسين عاما من عمرها . في سلسلة طويلة من الأحداث والمآسي والإنجازات والأمجاد . . كان كل منها أحد المعالم في تاريخ العصر .

ولا أحد يعرف أو قرأ لتوفيق الحكيم كتابات مشهورة مشهودة عن رجال تلك الثورة وأقطابها أو عن مبادئها وأفكارها ، أو عن وقوفه موقفاً لا ينسى من حروب العدوان والتدخل التي لم تنقطع ضدها .

ليس له مقالات وكتابات قرأها الجميع وتأثروا بها عن لينين أو ستالين أو تروتسكي . . أو عن الصراع الطبقي . . والصراع الوطني . أو عن الاقتصاد المخطط والمشاريع الخمسية . أو حتى عن الأدب الجديد أدب العمال والفلاحين الثوريين وجوركي وشولوخوف ومايكوفسكي .

وحينما حارب توفيق الحكيم النازية خلال الحرب . . لم يرفع راية الاشتراكية والدفاع عن وطنها الأول ولم يكتب ملحمة أو أغنية يذكرها كل الناس عن انتصار ستالنجراد أو حصار لينينجراد أو سقوط برلين ولكن حارب عن الحلفاء !

وبعد الحرب العالمية الثانية بقليل قامت حرب أخرى لا تقل وطأة ضد روسيا السوفيتية نشبت الحرب الباردة مع الإمبريالية

الأمريكية وكانت تريد حصار الثورة ثم طويها ومحوها . وتحددت مواقف كتاب العالم ومفكريه إزاء معسكرين واضحين تماماً عن مصير العالم ومصير الإنسان . . واختار كل منهم مواقفه ومنابره . والكل يعرف أين وقف الحكيم فى « أخبار اليوم » !

وقد شهد العالم بعد الحرب العالمية الثانية تتابع الثورات الوطنية الاشتراكية الماركسية وكانت كلها أحداثاً غيرت حياة العصر وتاريخ العالم . الثورة الصينية ، الثورة الفيتنامية ، الثورة الكوبية .. الخ .

ونبحث عبثاً عن إعجاب توفيق الحكيم وتأييده ، لتحول المستعمرة الكبرى إلى دولة اشتراكية «أعظم» أو عن رأيه المختلف أو المتفق مع رأى سارتر أو مورافيا أو اندريه مالرو حول تلك الثورة . ولا نجد موقفاً نموذجياً ثورياً مع القضية التى هزت ضمير العصر ولم يبق كاتب لم ينفعل لها وهى فيتنام .

وقد كان للثورة المصرية من الجرأة والصدق ما أزالت به الحصار حول مصر وأن تقيم لأول مرة أعرض جسر مع الاتحاد السوفييتى والثورة السوفيتية . وتفتحت مصر تفتحاً واسع المدى على المعسكر الاشتراكى . بكل روافده وأجنحته وكان تحولا وإنجازاً مجيداً . . ولكنه لم يثر أى إعجاب يتضح فى كتابات الكاتب الكبير ولم يذكر حسنة واحدة من حسنات الثورة وقائدها .

وقد مرت العلاقات مع الاتحاد السوفيتى وكل الأقطار الاشتراكية فى مراحل دقيقة وأحياناً عصيبة كانت تتطلب كل شجاعة الكتاب . وأولهم الاشتراكيون . والماركسيون أو المتعاطفون خاصة ولكن لا نذكر موقفاً واحد أو سطراً واحداً لتوفيق الحكيم ترك أثراً على مرحلة أو أزمة .

وأهم ما ساهم به توفيق الحكيم فى هذه العلاقة . هو أنه حين هجم اليمين المصرى شاهراً سيفه . ويضع هدفاً رئيسياً له تصفية هذه العلاقة . أصدر عودة الوعى . ومن أهم حقائقه التشكيك فى أعلى رمز لهذه العلاقة وهو السد العالى !

وقد كان هناك كتاب وفنانون مصريون تعاطفوا مع الاشتراكية والماركسية والثورة الروسية ولكن بشكل آخر . تعاطف معها مثلا الشاعر الشعبى بيرم التونسى وكتب عدة قصائد لا تزال حية ومشهورة ومن تراث الأدب الشعبى المصرى ، وتعاطف كتاب شرحوا ما هى الاشتراكية والماركسية وحاولوا إقامة حزب اشتراكى . . وحاولوا تلقيح الحركة الوطنية المصرية بالاشتراكية العلمية . . ودفع بعضهم ثمناً غالياً لهذا . . ولكن ليس بينهم قط توفيق الحكيم ، بل لقد كان هناك علماء من الأزهر وقفوا يدافعون عن تلك الثورة ويفندوا حجج الرجعية ضدها باسم الدين فى ذلك الوقت المبكر ونادوا بأن

الدين هو العدل ودفع الاستعباد والاستغلال، كما تدعو تلك الثورة .. بينما كان توفيق الحكيم يدعو إلى الإيمان الأعمى ويرى كل الحلول . فى العودة بأسرع وأقرب طريق إلى الشرق القديم . وصوامع وأديرة الزهد . وحلقات الذكر !

وإذا كان هذا هو مدى تعاطفه مع الماركسية وإعجابه ومتابعته للثورة الروسية .. وإذا كان هذا هو الذى « يعطينى الحق أن أتكلم عن الاشتراكية وأن أعمل على وضعها على أساس سليم وأن أخاف على اليسار المصرى وأحافظ عليه وعلى مستقبله » فإننا لا نملك إلا أن نتمنى السلامة لهذا اليسار !

إن كل المسوح الاشتراكية والماركسية والسوفييتية التى يضعها توفيق الحكيم تهدف إلى أن يقنع اليسار الماركسى بأن يشاركه الحرب والحقد على الناصرية وعبد الناصر وأن هذا هو المسلك « الثورى الصحيح » .

« لأن القول بأن الناصرية هى الاشتراكية الحقيقية تزييف على الواقع والتاريخ ولا مفر لكل تزييف من أن يسقط ويتكشف وسيؤدى هذا حتما إلى ظهور يسار صادق مع نفسه ومع الحقيقية ويبنى مذهبه وكفاحه على المذهب الاشتراكى الحقيقى دون استعارة أردية مرقعة » .

وأن الدفاع عن الناصرية هو :

« ردة عن الجوهر الحقيقي للاشتراكية هو بيع لجوهر الاشتراكية لصالح موقف تكتيكي اهتمام بالتكتيكات المؤقتة على حساب البرنامج الاشتراكي الحقيقي وعلى حساب الاستقلال بغير يميزه داخل صيغة التحالف التي خدمت الانتهازية أكثر مما خدمت العمال والفلاحين »
ونقف هنا بعض الوقت .

إن المعلم الأول الماركسية والأب الروحي للاشتراكية يدعو الأبناء الضالين إلى أن يصحوا . وأن يعودوا إلى الطريق المستقيم .

ولأول مرة في تاريخ الفكر الاشتراكي يقع هذا الحدث . وهو أن يسفر كاتب عن ثوريته « ورسالته » في العقد السابع من عمره الاشتراكي الحقيقي لا يخفي حقيقته ولا يعلن عن اشتراكيته ويزهو بها إلا في آخر عمره وبعد أن استغرق حياته واستهلكها في خدمة البورجوازية والبيروقراطية وكل ما هو رجعي . وبعد أن يكون قد فقد وعيه لمدة عشرين عاما إزاء حاكم أو سلطة طاغية !

والاشتراكي الحقيقي لا يفقد وعيه أبدا ، لأنه يملك منهجاً وعقيدة ورؤية ولديه بوصلة تدله دائماً على الطريق الصحيح وفي أشد المحنة أو قمة الانتصار .

والاشتراكى الحقيقى يعيش ويموت للمقاومة والتغيير ، وهو يعرف أن مكانه دائماً فى مواجهة السلطة وأن مهمته الأولى والأخيرة أن يواجه السلطة ويقرر هل يقاومها أو يقف معها أو يخالفها أو ينقدها . وهو لا يقبع قط فى برج من العاج ويرى منه بريقاً شديداً يبهره ويفقده وعيه ! !

والاشتراكى الحقيقى خاصة إذا كانت قد أنضجته التجارب والسنون لا يدعو إلى فرقة وتشتيت اليسار والإيقاع بين مختلف فصائله .

ولم يقل أحد ولا عبد الناصر أن الناصرية هى الاشتراكية الكاملة . . ولم يقل لينين أو ماركس أن اللينينية أو الماركسية هى آخر كلمة فى الاشتراكية . « الحياة متجددة خضراء . . والنظرية داكنة » كما قال ماركس نفسه . ولم يقل عبد الناصر أنه أقام الاشتراكية وأكملها فى مصر وكل ما قاله أنه بدأ الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وإن لا تزال هناك أشق المراحل والناصرية هى التفسير والتطبيق المصرى للاشتراكية وهى اختيار الاشتراكية وتجنب مصر ويلات طريق الرأسمالية . ولم تدع أكثر من ذلك . هى وضع مصر على طريق طويل وعسير وعلى الشعب وكل الاشتراكيين أن يقطعوه حتى النهاية .

ولم يضع توفيق الحكيم المقاييس التى يقيس بها صحة أو زيف الاشتراكية ولم يقرر أركان اشتراكية الحقيقية ولكنه يثبت للماركسيين تزييف الاشتراكية الناصرية وحتمية سقوطها أى يدعوهم هم خاصة إلى ضرورة رفضها بل وهدمها لأنها قبل كل شىء تزييف لابد أن تنكشف وتنهار . على الاشتراكيين الحقيقيين ومن واجبهم أن يعيدوا الأرض التى نزعت زيفاً إلى الملاك ويعيدوا المصانع التى أممت زوراً إلى الرأسماليين لأن كل هذا تضليل ولابد أن يسقطوه لكى يبدأوا من جديد « ولكى يبدأ يسار صادق مع نفسه ومع الحقيقة . ولكى نبنى مذهباً على المذهب الاشتراكى الحقيقى وليس على « الناصرية » ذات الأردية المرقعة أن يبدأ بناء حقيقى على مذهب حقيقى باشتراكيين حقيقيين .

إن الكاتب الحريص على الاشتراكية ومستقبل اليسار لا يدعو كل الاشتراكيين بلا استثناء إلى حماية ما تحقق حتى الآن من الاشتراكية وإلى تصحيح ما وقع قصداً أو جهلا فى تطبيق الاشتراكية وإلى أن يتكاتفوا صفاً واحداً للاستمرار واستكمال المسيرة الاشتراكية ولكنه يدعو إلى إشعال حرب مذهبية وسياسية بين صفوف اليسار الوطنى الناصرى واليسار الماركسى ولا شىء يمكن أن يطرب اليمين الآن أكثر من هذا . إذا لم تمكن مواجهة

اليسار فإن أفضل الطرق هو الإلتفاف حوله وقسمة صفوفه .

تعزيزاً لهذا . . لا يتورع عن أن يثير تاريخاً قديماً وأن يذكر اليسار « الماركسى » بأزمة الديموقراطية سنة ١٩٥٣ — ١٩٥٤ » . . والتى كان الشيوعيون طرفاً فيها مع الوفد والإخوان المسلمين ومع يمين الثورة محمد نجيب .

وهو بهذا يبعث خلافات قديمة تجاوزها كل الأطراف . ولا يفيد من إثارتها مرة أخرى أى أحد خاصة الماركسيين .

ولم تكن تلك الأزمة بأى المقاييس أزمة الديموقراطية ضد الديكتاتورية العسكرية ولكنها كانت معركة العهد القديم ضد الثورة .

كانت صراع الثورة . وأول صراع لها ضد الثورة المضادة معركة المحافظين ضد الراديكاليين ضد من كانوا يريدون نهضة لا ثورة ويريدون استمرار النظام والإصلاح فى إطار النظام ضد التغيير يريدون استمرار الواجهة « الديموقراطية » التى عاشت وراءها كل المصالح الرأسمالية والإقطاعية ولا يريدون ديموقراطية جديدة ثورية وحقيقية للجماهير .

وقد تورط كثيرون من الديموقراطيين واليساريين مع الجانب الآخر . فى ذلك الحين ولكن صححوا مواقفهم وأكدت الأيام

بعدئذ سلامة هذا الموقف . حتى جاء الحكيم يذكر بما حدث وليس هناك خدمة لليمين أفضل من أن يفرط عقد التحالف الشعبى أو الاشتراكى أو أن يجذب اليسار الماركسى للوقوف مرة أخرى مع نفس الأطراف القديمة .

ويفتقد الكاتب الكبير إلى الأمانة والنزاهة حينما يعلن ويقطع بأن الاشتراكية الناصرية مزيفة مرقعة . . لا لأن ليس له تحديد أو تعريف واضح للاشتراكية ولكن لأنه باعترافه هو لا يعرف ماذا حدث فى مصر .. ولم يلاحق ويتابع مدى أو مغزى التحول الاجتماعى الذى حققته الثورة وفى نهاية كتاب عودة الوعى يدعو توفيق الحكيم الناس إلى أن يفحصوا « بالموضوعية العلمية وبعيداً عن أى عاطفية الإصلاح الزراعى من كل نواحيه . . وهل وقف عند حد تحديد الملكية وتمليك الفلاح المعدم عدة أفدنة أو أنه كان إصلاحاً زراعياً بالمعنى الحقيقى اختفت معه صورة الفلاح الفرعونى بمحراثه الخشبى وحلت محلها الآلات الحديثة وحررت البهائم من الأعمال الشاقة كما حدث فى النهضات الزراعية الحقيقية وخصصت البهائم لمد البلاد بالألبان واللحوم » .

وهو يدعو الناس أيضاً إلى « دراسة التصنيع . ماذا تم فيه ؟ وماحدوده وأسواقه ؟ وما الذى نجح منه وما الذى أخفق بغير مغالاة

ولا إجحاف » وينتهى إلى دعوتهم إلى دراسة «الاشتراكية ما حقيقة تطبيقها وما مداه . . وهل هى مجرد التأميم أو الإستيلاء على أموال وقصور لتحل فيها طبقة أخرى باسم آخر » ويقول :

« هذه البنود وغيرها من بنود ومكاسب الثورة فى حاجة إلى غربلة بعيدة عن الطبل والزمر والأناشيد والأغانى » .

وهذا يعنى أن توفيق الحكيم الكاتب « الاشتراكى » والماركسى والذى كان الفلاح هو إلهامه ومصدر وحيه الأول ، لم يكلف نفسه عناء دراسة أهم موضوع يجب أن يشغل بال الكاتب الوطنى وليس الاشتراكى وهو مدى التحول فى حياة القرية والفلاح وأنه لم يقطع فيه برأى .

وهذا يعنى أن الكاتب المتعاطف مع الماركسية والذى لابد تعلم أن الطبقة العاملة تصنع التاريخ . لم يكلف نفسه عناء دراسة أهم حدث يصب عليه « الماركسى » كل اهتمامه وهو التصنيع ونمو الصناعة والطبقة العاملة .

وهذا يعنى أن معلم « الاشتراكية » الكبير منذ العشرينات والثلاثينات لم يطرب لأول إعلان للاشتراكية فى مصر ، ولم يتابع ويلاحق ما حدث فى مصر . كما فعل بما حدث فى روسيا ولم يقرر

الإجابة الصحيحة . هل كانت مجرد استيلاء . . واستبدال طبقة بطبقة . . أم كانت بداية حقيقية ؟

ولم يكن لديه إجابة بالنفى أو الإيجاب يسترشد بها الناس وهو يلقى عليهم العبء ويدعوهم إلى أن يحملوه وحدهم .

لم تكن تلك القضايا هى شغله الشاغل طوال عشرين سنة ولم يصل فيها إلى رأى قاطع ثم يملك القدرة على أن يعلن أنها تزييف لابد أن يسقط !! وأردية مرقعة لابد أن تخلع !

بل لقد انتهى إلى أنه « افترض أن كل هذه المكاسب حقيقية وأود من قلبى من أن يسفر البحث النزيه عن ذلك » .

ولم تكن المدة بين صدور عودة الوعى وصدور رسالة إلى اليسار تكفى لهذا البحث النزيه . . الذى انتهى فيه إلى أنها لم تكن اشتراكية ويجب أن تسقط . ولم نسمع أنه قام بذلك البحث . وهو لم ينشره معززاً بالوقائع والأدلة والأرقام لكى يقتنع الناس !

والحقيقة الوحيدة التى خرج بها والتى لم يخالجه الشك حولها بالنسبة للتحول الاجتماعى فى مصر هو أنه « كانت هناك خسارة لاشك فيها ولا يعد لها عندى مكسب وذلك هو ضياع وعى مصر » .

وإذا كان وعيه قد فقد وضاع فإن هذا لا يعطيه القدرة ولا الصفة

لأن يعرف ماذا حدث لوعى مصر . . وهو لا يثبت سوى حالة مرضية واحدة . . ولا ينطبق بالضرورة على كل الشعب .

وقد أثبت موقف الفلاحين والعمال والطلبة والمثقفين مدى وعى مصر ومدى إدراكها لما تم من تحولات اشتراكية وقدرتها فى الدفاع عنها .

ولم تلق تجربة اشتراكية غير ماركسية وخارج إطار المعسكر الاشتراكى من اهتمام كل الماركسيين مالقيته التجربة المصرية وكانت نقطة تحول فى التفكير الماركسى نفسه واعترفوا بعده بقيام طريق جديد « طريق لا رأسمالى ينتهى إلى الاشتراكية ويقوم على تحالف كل القوى الوطنية والتقدمية بقيادة الديموقراطيين الثوريين واشتراك وتحالف الشيوعيين » .

وكان الرأى السائد قبله أن الاشتراكية لا تكون إلا ماركسية لينينية بقيادة الشيوعيين وعلى هؤلاء أن يتسلموا الثورة من البورجوازية الوطنية ليتولوا استكمالها .

وقد أثارت التجربة المصرية أكبر قدر من الجدل بين الماركسيين فى المعسكر الاشتراكى وفى الحركة الشيوعية الدولية وقال أكثرهم تزمتاً أنها رأسمالية دولة إيجابية ومستنيرة فى ظروف العالم الثالث وتقود التنمية وتضع أسس التصنيع وبذا تخلق مقومات الاشتراكية .

واتفق الجميع متزمتين ومتحررين على أن ما حدث من تغيرات فى علاقات الإنتاج فى مصر هو أعمق ماحدث فى أى دولة من دول العالم النامى . وأن التجربة المصرية تتقدمهم جميعاً بحيويتها وديناميكيتها .

وكانت التجربة المصرية .. مثار إعجاب حار فى كل العالم الثالث ، وذات يوم صاح قطب من أقطاب اليسار فى حزب المؤتمر « الهندى » أن ما تحتاجه الهند هو ضربة هرقلية مثل قوانين يوليو سنة ١٩٦١ فى مصر .

ولم يشذ سوى المعلم الكبير توفيق الحكيم الذى اكتشف أنها « مزيفة مرقعة وافتراء على الاشتراكية » وعلى الماركسيين أن يسقطوها .

إن الاشتراكية هى أشق التجارب والتحولات وهى ليست إقامة الفردوس المطلق على الأرض ولا تحول الناس فوراً إلى ملائكة أبرار وهى تتم وسط أعنف الصراعات ولابد أن تزخر بالتجارب والأخطاء ولكن فرق بين هذا وبين الزيف والخداع .

وتنتهى رسالة توفيق الحكيم وتخلص إلى جوهرها وهو دعوة اليسار الماركسى إلى الاستقلال وبناء يسار صادق يقوم مذهبه ومبدؤه على المذهب الاشتراكى الحقيقى « ويستقل بمنبر خاص يميزه ولا يبقى

داخل صيغة التحالف التى خدمت الانتهازية أكثر مما خدمت العمال والفلاحين » .

وليس هناك طريق إلى الكارثة الآن أقصر من هذا الطريق بالنسبة لليسار الماركسى !

وليس هناك ماركسى مسئول يرى أن هذا هو الوقت الملائم لكى يقيم اليسار الماركسى تنظيما مستقلا يميزه .. وأن يخرج به على صيغة التحالف بعد أن يصمها بالانتهازية !

أن مهمة اليسار الآن بكل أجنحته أن يتغلغل فى التحالف وأن يستميت جاهداً فى تقويمه وإصلاحه . وأن يكون طليعته لا أن ينفصل وأن ينعزل عنه . إن عيوب التحالف وقصوره هى امتحان لإرادة وقدرة اليسار ولابد مهما يكن الثمن أن يجتازه ، وهو إن لم يجتزه فسوف يصعب عليه أن يجتاز أى امتحان خاصة امتحان الاستقلال بمنبر خاص .

إن مهمة اليسار أن يكون حيث تكون إرادة العمال والفلاحين وعليه أن يكون فى قلبهم يعلمهم ويتعلم منهم . وما دامت الأغلبية من العمال والفلاحين تريد التحالف وتتشبث به ، ولا ترى بديلا له ، فإن على اليسار أن يلتصق بها ويلتحم ولا ينفصل عنها .

أن دعوة أى جناح من اليسار إلى الإنفصال هو إيقاع بينه وبين الجماهير وهو دفعه إلى عزلة ومغامرة لابد ينتهى به إلى كارثة .

إن الحريص على مستقبل اليسار « الماركسى » فى مصر هو الذى يدفعه إلى أن يندمج تماماً مع الناس وإلى أن ينصهر مع كل القوى التقدمية والثورية وإلى أن يستبسل فى حمل المسئوليات الفكرية والسياسية وأن يجدد دائماً من فكره وطرق كفاحه وأن يبدع دائماً ليلاحق تطورات حياة العصر . وكل تغيرات الواقع فى مصر .

ولقد حاول اليسار الماركسى فى مصر خلال أكثر من خمسين عاما ، أن يقيم تنظيما أو حزباً مستقلا . ولكنه لم ينجح . ولا يمكن نسبة هذا إلى القهر والبطش « المكثف المضاعف » فقد قامت أحزاب وتنظيمات فى ظل قهر وبطش أشد وأقسى . وهذا هو امتحان الماركسية والماركسيين .

ولكن ظل اليسار الماركسى فى مصر حلقات وحلقات وانقسامات وانشقاقات .

وربما يكون طريق الخلاص الوحيد هو أن يذوبوا فى التيار الخضم للثورة الوطنية المصرية وحيث كل القوى الوطنية وأن يتكاتفوا معاً ، ويتعلم كل أحد من الآخر .

وفى هذا الإطار الرحب الواسع سوف يتعلم كل اليسار الدرس الذى ربما يفتقدوه بدرجات متفاوتة وهو الواقع المصرى . سيعرف الجميع ما يتفقون عليه وما يختلفون فيه ، وإذا كان يستحق العمل معاً فى وحدة أو جبهة أو يتطلب الاستقلال والانفصال .

ولكن توفيق الحكيم لايريد عملا سياسياً ولكن انتقامياً ضد عبد الناصر . . وهذا كل مايسعى إليه !

وقد يستطع توفيق الحكيم أن ينال من عبد الناصر لدى اليمين ، ولكن لايستطيع أن ينال من عبد الناصر لدى اليسار أبداً .

إن أحداً لم يلق من احترام وإعجاب وتمجيد اليسار بكل اتجاهاته . وكل مذاهبه وفرقه المسئولة والأصيلة مثل عبد الناصر .

وقد أقام عبدالناصر لنفسه مكانة بين الجماهير الكادحة والمكافحة فى كل مكان فى العالم لن ينال منها أحد . وهو يزداد علواً وصعوداً فى ذلك المكان ويتعاظم احترامه وتبجيل ذكراه ويقف فيه عبد الناصر بطلا من أبطال الحرية ورائداً من رواد الاشتراكية . وصانعاً من صناع التاريخ فى هذا العصر . . لايكتب التاريخ بدونه .

وذات يوم روى أحد الإخصائيين الكبار فى الشئون العربية أن برجنيف وقف فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى

ليقول « إن عبد الناصر هو أشرف حليف للاتحاد السوفيتى .. بما فى ذلك قادة البلاد الاشتراكية » وحينما حماق المستمعون كرر « بما فى ذلك قادة البلاد الاشتراكية » .

وفى ذروة الأزمة والخلاف بين عبد الناصر وخروشوف سنة ١٩٥٩ . قال هذا للصحفى الهندى كارانجيا « ومع ذلك يظل عبد الناصر ابنى العنيد ذو الطبع الحامى » كان خلافاً بين ثوار ولم يكن حرباً عقائدية وطبقية ..

وذات يوم آخر فى موسكو قال أحد الأقطاب « أن أكثر الناس حماساً وإعجاباً بعبد الناصر هنا هم الثوار القدامى .. وهو يذكرهم دائماً بشبابهم ويجدده لهم » .

وفى كل الأجنحة الماركسية فى العالم الاشتراكى وفى الحركة الشيوعية الدولية أو الحركة الاشتراكية اليسارية الدولية يقف عبد الناصر على رأس قائمة أبطال الكفاح التاريخيين ضد الاستعمار والاستغلال وفى سبيل مجتمع أفضل للانسان .. فى روسيا ، فى الديموقراطيات الشعبية ، فى الصين ، كوريا ، فى يوغوسلافيا .. فى أوروبا الغربية .

ويوم مات عبد الناصر .. نكس ثوار جبهة تحرير فيتنام

الجنوبية أعلامهم فى كل مكان . . وهؤلاء هم أنبل وأصلب ما تمثله الثورية الوطنية والاشتراكية . . فى هذا العصر .

ويكفيه فخراً . .

ولن يضيره . . أذى توفيق الحكيم !

الفصل الثامن

الاشتراكية

المعركة المحمومة ضد جمال عبد الناصر ليست هي قضية الديموقراطية ضد الديكتاتورية أو قضية الشرعية ضد البوليسية ، وليست قضية المصلحة الوطنية ضد المغامرات التوسعية ولكنها في حقيقتها معركة بين الثورة والثورة المضادة في مصر واستمرار الصراع المستميت في صور مختلفة والذي يحكم كل شيء في مصر منذ الثورة ثم منذ قيام الاشتراكية .

وقد كان حلم اليمين والرأسمالية منذ نهاية الحرب العالمية هو قيام رأسمالية مصرية آمنة في كنف الغرب ، وحطم عبد الناصر الحلم بل وكفل أن لا يقوم .

وعبد الناصر والناصرية تعنى الاشتراكية فى الداخل والقومية العربية وعدم الإنحياز فى الخارج . . ولهذا لا تهدأ الحرب ضد هذه السياسات الثلاث وتحت كل الأسماء والأقنعة .

وعدم الانحياز يعنى سياسة خارجية مستقلة وتأييداً للحق حيث كان ، وبلا تبعية لأى دولة أو كتلة ، وعدم الانحياز ينتهى إلى الوقوف مع الاستقلال والتحرر ومع الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية والاشتراكية والمعادية للاستعمار والاستغلال فى كل مكان . وهذا فى رأى اليمين المصرى تهور واستفزاز بلا مبرر للغرب .

والقومية العربية هى الالتزام بحرية كل العرب لأن الحرية لا تتجزأ ولا يمكن لمصر أن تعيش مستقلة وسط محيط من المستعمرات والمحميات ومناطق النفوذ . ولأن استقلال مصر يلقى عليها الالتزام باستمرار الكفاح حتى يتحرر كل العرب وحتى نهاية الوجود الاستعمارى فى المنطقة .

وهذا فى رأى اليمين المصرى هو المغامرة والتوسع وهو التبديد لموارد وطاقات يجب أن تنصب كلها داخل حدود مصر .

ولكن ينصب أشد الحقد على الاشتراكية .

والاشتراكية هى محور كل الهجوم وكل الحجج والبراهين

تنتهى فى آخر الأمر بضرورة التخفف ثم التخلص منها .

والحملة ضد عبد الناصر هى فى جوهرها حملة الطبقات الجديدة والقديمة التى ترفع راية الرأسمالية ضد الطبقات التى قامت باسمها ولأجلها الاشتراكية .

وهذه الطبقات الجديدة والقديمة هى التى يسعد توفيق الحكيم أن يكتب لها بيانها الفكرى والسياسى بعد أن استعاد وعيه !

وقد أصبحت الرأسمالية والإقطاع كلمات سيئة السمعة ، ولهذا لا تعلن الطبقات القديمة والجديدة أنها تدافع عن امتيازات موروثة أو مغتصبة أو غير مشروعة ولكن لابد أن تعلن أنها تدافع عن قيم ومبادىء .

يعلنون أنهم يدافعون عن الديموقراطية لأن الناصرية هى الديكتاتورية وسحق ذاتية الفرد والشعب .

وأنهم يدافعون عن الدين والقيم الروحية لأن « الناصرية » غير مؤمنة وتفتح الطريق إلى الإلحاد وإلى القضاء على أثمن ما يملك الإنسان .. وهو الإيمان .

ويقولون أنهم يدافعون عن الوطنية ، لأن الناصرية هى المغامرات التوسعية ، وهى فتح الطريق لاستعمار إيديولوجى جديد يهدر الشخصية والذاتية القومية .

ولا يتحرجون أن يقولوا أنهم يدافعون عن حقوق ومصالح الناس ، لأن الناصرية هى البيروقراطية واغتصاب الموظفين المرتشين للمال العام والخاص .

إن الناصرية كانت السبب فى النكسة .. وقد ذهب عبد الناصر ولذا يجب أن تنتهى .

وقد فرض عبد الناصر « الناصرية » فرضاً ولا يمكن أن تستمر بعده .

ومنذ صدور قوانين يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١ .. والصراع فى مصر معركة مستميتة ، تأخذ كل الصور ، وكل القوالب الظاهرة والباطنة بين الرأسمالية والاشتراكية .

وفى بداية الثورة لم تكن القوى المتعصبة والتى تشن الهجوم الآن باسم الديموقراطية والشرعية تفكر فى شىء من هذا ، وكانت مؤيدة بالغة الحماس ، لكل شىء وتهلل له وتباركه .

لم تكن تعنيها الديموقراطية أو الشرعية لأنها كانت تبحث عن الحكم القوى .

وفى بداية الثورة أرادت القوى الرأسمالية أن يكون النظام الجديد هو النظام القوى والإصلاحى والذى قد يصفى الإقطاع ويزيح

الاستعمار القديم ، ولكن بوفر كل المقومات لازدهار رأسمالية مصرية ولإقامة علاقة وصيغة تعايش مع الرأسمالية العالميــــة « الجديدة » وأرادت هذه القوى أن يكون النظام الجديد هو الذى يقمع التطرف السياسي والاجتماعى ، وأن يهيء الأمن والاستقرار وأن يوفر أفضل مناخ لمشاريع الاستثمار وكانت الرأسمالية المصرية تفتقد تماماً إليه . وهى ازدهرت خلال الحرب العالمية الثانية لانقطاع الاستيراد ، وسد حاجات الحرب ولكن بعد نهاية الحرب عادت لتواجه المنافسة الأجنبية ولتواجه خطراً أشـد هو تفاقم حدة القضية الوطنية والقضية الاجتماعية حيث طرحت كل الحلول للبحث والمناقشة .

وانعكس قلق الرأسمالية فى مواقف الحركة الوطنية التى كانت تقودها البورجوازية الوطنية » وكان يمثلها فى أغلبها حزب الوفد .

أصبح الحزب ميداناً لصراع داخلى بين قوى تقليدية محافظة وبين قوى راديكالية ويسارية بدأت تمارس نفوذاً فى الحزب ، وكانت القوى الأولى تسعى إلى تسوية سياسية مع القصر والاحتلال . وكانت القوى الجديدة تتطلع إلى السير بالثورة والتطور بالحزب إلى حرب تحرير شاملة وطنية اجتماعية .

ولم يستطع أى الطرفين أن يحسم النزاع ، ولذا استبد التمزق والتردد فى الحزب ، وانتهى إلى الفشل العام .

كانت الرأسمالية المصرية مشتتة بين الوطنية التى أصبحت راديكالية اجتماعية وبين « المصلحة » التى أصبحت مهددة وكان عليها اختبار صعب ثقيل .

هل تتصالح مع الرأسمالية العالمية التى حاصرتها طوال سنين الاحتلال ، أم تتعايش وتتحالف مع القوى الثورية فى مواجهة الاستعمار ، وتقدم تنازلات كبيرة من أرباحها ومزايا ؟

كان هذا هو السؤال الذى يتوقف عليه كل التطورات . . ولم تكن الرأسمالية المصرية من سعة الأفق وبعد الرؤية لتختار النهج الصحيح .

وفى البداية تطلعت الرأسمالية المصرية إلى أن يكون النظام الجديد نظامها وأداتها . وأن يعمل لصالحها ووفق مطالبها وتضافرت عوامل عديدة لكى تعطيها هذا الأمل .

لم تعلن الثورة نظرية أو برنامجاً مفصلا أو مسبقاً جاءت على أساسه كانت مطالب الوطنية المصرية عامة .

وقد صفت الثورة الإقطاع واحتوت الاحتكار وسيطرة رأس المال الأجنبى . . وأعلنت ست نقاط عامة كدليل للعمل وتهيىء أفضل المقومات لنشاط رأس المال . وأعلن فى ذلك الحين اللواء محمد نجيب ، أنه يؤيد الاقتصاد الحر والنشاط الخاص ، ويقف ضد أى تدخل

للدولة أو اتجاه للتأميم .. وصرح أحد أقطاب الثورة .. جمال سالم بصراحة « أننا لسنا اشتراكيين ، وفى رأيى أن اقتصادنا لا يقوم ويزدهر إلا على أساس القطاع الخاص » .

وصرح وزير المالية « القيسونى » أن الدولة تنوى تشجيع القطاع الخاص ومساعدته بكل طريق ممكن .. وأن مهمتى كوزير المالية أن أهيىء أفضل مناخ لاستثمار رأس المال الوطنى والأجنبى » .

وأنشأت الثورة المجلس القومى الدائم للانتاج .. ووصف المجلس نفسه بأنه « حجر الزاوية فى النظام الجديد لوضع خطة للتوفيق بين الجهود الفردية وجهود الدولة لتحقيق الأهداف الاجتماعية والاقتصادية المطلوبة » ، أى وضع الدولة فى خدمة رأس الخاص من أجل التنمية ، وتولى رئاسة المجلس أحـــد أقطاب الرأسماليين وكان أغلب الأعضاء منهم .

واستجابت الدولة (الثورة) لطلب تقـدم به وألح « اتحاد الصناعات » لتعديل قانون الاستثمارات الأجنبية وكان قد صدر سنة ١٩٤٧ ونص على أن يكون نصف رأس المـال المصرى فى أى شركة أجنبية ٥١ ٪ على الأقل وطلب اتحاد الصناعات من النظام « الثورى » تعديل النسبة إلى ٤٩ ٪ . . وما دامت الحكومة قوية

ووطنية وفى حاجة إلى التنمية فلابد أن تجتذب رأس المال الأجنبى ولا تخشاه !

ووافقت الحكومة أيضاً على طلبه تخفيض الضرائب ورفع الرسوم الجمركية وإعفاء الشركات المساهمة الجديدة من الضرائب لمدة سبع سنين .

وبقى على الرأسمالية المصرية أن تقوم بدورها وتنطلق .

وبناء الاقتصاد هو الأساس الأول لكل بناء . . وبقدر متانته وتكامله يكون نجاح أى نظام ، وقد كانت مصر فى حاجة إلى بناء إقتصاد جديد ، إلى إقتصاد وطنى عصرى يحقق القوة والوفرة .

كانت مصر فى حاجة أولا إلى ثورة زراعية تقضى على الإقطاع وتعدل علاقات الإنتاج وطرقه وتصلح أكبر قدر من الأرض وتقيم زراعة علمية كبيرة فى إطار الملكية الفردية والتعاونية «الرأسمالية» .

وكان الاقتصاد المصرى يفتقد إلى ثورة صناعية تكسر الحصار الذى فرضه عليه الاستعمار ، وتقيم قاعدة صناعية متكاملة توفر مطالب الشعب . والتبعة التاريخية للرأسمالية الوطنية فى كل البلاد هى الاستقلال وإقامة الصناعة . . وكانت هذه هى المهمة التى قامت بها الرأسمالية الأوروبية والأمريكية واكتسبت بها مبررات وجودها ، ولا زالت هى الامتحان الذى تنجح أو تفشل به أى رأسمالية .

ولم تحقق الرأسمالية المصرية الثورة وبقى عليها أن تحقق «التنمية» التى توافرت كل مقوماتها .

ولكن لدهشة قادة الثورة .. تدافعت الرأسمالية المصرية فى ظل الحماية المتوفرة إلى أسهل ميادين الاستثمار وأكثرها ربحاً كان أهم الميادين الذى تدافعت إليه الاستثمارات هو الإسكان الفاخر « وبلغت الاستثمارات فيه فى عام واحد ٤٠ مليون جنيه .. وتلاه فى ذلك الصناعات الصغيرة والاستهلاكية التى لاتضيف شيئاً إلى الصناعة أو الإقتصاد » .

بل ودعت الرأسمالية المصرية إلى أنه « بدلا من الدعوة إلى التصنيع لإيجاد عمل للفائض من الأيدى الزراعية يجدر بنا أن نتناول المسألة من جانبها الآخر ، بمعنى أنه يجب البدء من الزراعة أساساً لتوسيع نطاق سوق المنتجات الصناعية الذى يجعل قيام التوسع الصناعى ممكناً » أى أن تقتصر التنمية على تحويل الزراعة من زراعة إقطاعية إلى زراعة رأسمالية . كما قال تقرير للبنك الأهلى .

وكان نفس الرأى الذى دعت إليه الرأسمالية العالمية الجديدة بالنسبة لبلاد العالم الثالث تطوير الزراعة وإقامة الصناعات البسيطة والخفيفة .

وهو ما يعنى أن تظل بلاد العالم الثالث قرى تنتج المحاصيل ،

أو مناجم تورد المواد الخام ، أو ميادين استثمار تغل أعلى الأرباح والفوائد وتدور دائماً فى فلك الاقتصاد الكبير فى الغرب .

ورأت الثورة أن لابد من تدخل الدولة لتوجيه الرأسمالية المصرية إلى الميادين التى ينبغى أن توجه نشاطها واستثماراتها إليها .. وكان تدخلا هيناً محدوداً فقد صدر قانون لرخص البناء ورخص إنشاء الصناعات ، يحتم موافقة الدولة قبل القيام بالمشروع .

وكان إجراءاً إيجابياً .. لا يمس حرية الرأسماليين أو اختيارهم ولكن فقط يسدد خطاهم .. ويبصرهم بالتبعات والمسئوليات وبدفع الاستثمار نحو ميادين ضرورية .

وتدخل الدولة فى السوق وفى الاقتصاد الرأسمالى عامة أصبح ركناً من أركان الرأسمالية الجديدة منذ الأزمة الكبرى فى الثلاثينات ، وهناك من يقولون أن قوانين الاقتصاد الحر المشهورة « دعه يعمل دعه يمر » لم تطبق تطبيقاً خالصاً إلا فى الكتب وأن الدولة كانت دائماً متدخلة ولكن أصبح التدخل أساساً ثابتاً وركناً فى الاقتصاد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأصبح حتمية أكثر بعد قيام التحدى الاشتراكى ، وقيام التحدى الآسيوى الأفريقى ومن الخوف والفزع من أزمة بعد الحرب العالمية الثانية تماثل أزمة ما بعد الحرب العالمية الأولى .

وكان تدخل الدولة فى الاقتصاد ضرورة أشد فى دول العالم « النامية » لتصفية آثار التخلف الثقيلة من عصر الاستعمار والاستنزاف ، وللحاق بالثورة الصناعية الأولى التى فاتت والثورة الصناعية الثانية القائمة ولتحقيق المقومات الدفاعية والاستراتيجية لحماية الاستقلال . ثم الهدف الأهم ... لتحقيق المطالب والعدالة الاجتماعية لجماهير محرومة استنزفت وطال تطلعها إلى الحياة . . كانت كلها مشاكل ملحة ومعقدة طرحها الاستقلال على أوسع مدى وقد طرحت مضاعفة فى مصر بحكم موقعها ولا يمكن أن تترك للرأسماليين وحدهم . كما أثبتت التجربة .

وكان تدخل الدولة فى الاقتصاد فى مصر قائماً وضرورياً منذ بداية الاقتصاد الحديث من محمد على الذى جعل الدولة الرأسمالى الأول حتى التدخل لإنقاذ بنك مصر وحتى قيام المجلس القومى للانتاج الذى رحب به الرأسماليون فى البداية .

ولكن تدخل الدولة فى مصر آثار أشد الضيق لدى الرأسمالية وقامت على الفور لمعارضته بل والتنديد به .

قال مدير البنك العقارى :

« إن تدخل الدولة المشروع فى اقتصاد حر لا يغير ويجب أن لا يغير الأصل وهو تقديم مبدأ الحرية الاقتصادية فى النهاية على كل

مبدأ آخر لأنه أقرب إلى طبيعة الأشياء ولأنه لا يحتاج إلى مساندة القوانين الوضعية إلا بمقدار لأن القوانين الطبيعية وحدها تبطنه وتحميه وتضمن له السداد في الوسيلة والغرض » .

وصرح رئيس لجنة بورصة العقود في الاسكندرية « لا يمكن الاستمرار في تحدى قانون العرض والطلب كما لا يمكن تحدى قواعد الاقتصاد السليم الثابتة » .

ثم قال تقرير البنك الأهلى محذراً « أن الوقت قد حان للحد من تدخل السلطات في الشئون الاقتصادية » .

وحدث أن أصدرت الثورة قانون حماية العامل من الفصل التعسفى .. وكان أقل مايقدم لطبقة مستغلة أشد الاستغلال .. وتعتمد عليها التنمية ، وأعلن اتحاد الصناعات في تقريره سنة ١٩٥٣ :

« أن قانون الفصل التعسفى أثار في المصانع حالة ما زلنا نعتقد أنها لا تتفق ومصلحة أحد البتة » .

وما ليس في صالح الرأسماليين ليس في صالح أحد « ألبتة » .

وأثبتت الرأسمالية المصرية أنها تريد حرية بلا مسئولية .

واستفز الأمر قائد الثورة الذى أعلن في أوائل عام ١٩٥٥ .

« أن الحكومة ستتدخل في كل شيء لمصلحة الغالبية ولن تترك

الحرية للأقلية تفصل ما تشاء وبهذا تحقق الحكومة غرضين حماية الشعب والعمل لصالحه والقضاء على الرأسمالية الحرة التى انتهت ولن تجد فرصة للظهور مرة أخرى . لن يكون رأس المال حراً يعمل كيف يشاء لابد أن يكون رأس المال موجها . . إننا نريد مجتمعاً اشتراكياً » .

فشلت محاولة الثورة لتوجيه وترشيد الرأسمالية المصرية .. لم تقدم الرأسمالية على مشاريع أو خطط جريئة وجديدة . . وظلت تدور فى أفق صغير وفى الإطار التقليدى لأكبر قدر من الربح بأقل قدر من الجهد . . وازدادت قلقاً وتردداً فى مواجهة النظام . . ولهذا أصبح على الثورة أن تخطو الخطوة التالية والمحتومة وهى المشاركة .

وبعد نجاح تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦ ، وبعد فشل العدوان الثلاثى على مصر ، تقرر أن يتكامل الانتصار السياسى والاستراتيجى بانتصار آخر يدعمهما وهو استرداد سيادة مصر الاقتصادية وتمصير رؤوس الأموال الفرنسية والبريطانية . وكل رأس المال الأجنبى فى مصر وتقرر أن يقوم اقتصاد مختلط تساهم فيه الدولة مع الرأسماليين وتتقاسم المشاريع والأرباح . وأن تقوم مؤسسة اقتصادية تضم المشاريع والمؤسسات التى آلت للدولة من التمصير .

كان لابد للدولة أن تتدخل وأن تصبح شريكا ذا ولاية فى

الإنتاج والتنمية ، لكى تبنى السد العالى . ولكى تضع خطة تنمية وتصنيع شاملة .

والاقتصاد المختلط لايغير من طبيعة النظام « الرأسمالى » وهو لا يضر بمصالح الرأسماليين بل على العكس تماماً يدخل بهم إلى ميادين وآفاق جديدة . ويدفع عنهم مخاطر ومصاعب عديدة . ويحمل عنهم عبء كل المشاريع التى لايرغبون الإقدام عليها .

ولكن رأت الرأسمالية المصرية الأمور من زاوية أنانية ... أن الرأسمال البريطانى والفرنسى الذى تم تمصيره وكل رأسمال أجنبى بمصر لابد أن يذهب إليها وهى الوريث الوحيد الشرعى ، وأن دخول الدولة شريكة فى الاقتصاد سوف يعطل ويعرقل القوانين الأساسية للاقتصاد وسوف يشل إرادة وحرية الرأسماليين .. الوطنين !

وقد صرح أحد قادة الثورة المسئولين عن الاقتصاد فى ذلك الحين « البغدادى » :

« ستقوم المؤسسة الاقتصادية بدور رئيسى فى خطة التمويل وعلى الأخص بالنسبة للمشروعات التى قررتها الخطة ويصعب على الأفراد القيام بها .. وسوف يكون النشاط الحكومى فى التنمية مكملا للنشاط فى القطاع الخاص وليس منافساً له وسيركز النشاط الحكومى فى الأنواع التى يحجم القطاع الخاص عن القيام بها لأنه لايألفها أو غير

مستعد لتحمل المخاطرة فيها ومن الممكن أن تباع هذه المشروعات بعد أن يثبت نجاحها إلى القطاع الخاص وسوف يكون للمؤسسة الاقتصادية دور هام فى هذه العملية وما دامت أهداف القطاع الخاص فى حدود أهداف الخطة فسيتخذ التخطيط كافة الوسائل التى تدفع هذا القطاع إلى القيام بنصيبه فى التنمية وفى مسئولية تنفيذ الخطة وذلك بمعاونته وإزالة كافة الصعوبات التى تواجهه الآن » .

وأوضح رئيس مجلس إدارة المؤسسة الاقتصادية التى ضمت كل شركات ومؤسسات الدولة : « لن تنافس المؤسسة القطاع الخاص بل ستتعاون معه » .

ومع ذلك فإن موقف الرأسمالية المصرية ظل قائماً على ضرورة أن :

« نظام الملكية الفردية يقتصر على استبدال فرد بفرد . . فرد مصرى بفرد أجنبى حماية للصالح القومى » .

وقد استفز الأمر قائد الثورة الذى أعلن بعدئذ فى إحدى خطبه :

« لما أعلنا تمصير الشركات البريطانية أو الفرنسية على طول اتكلموا مع بعض وقدموا يفط ، وجاء القيسونى وجايب كشف متقدم له بيه الرأسماليين وكل واحد عايز شركتين أو تلاته من الشركات المصرة . . وأنا فى هذا اليوم قلت له أن جميع الشركات

تروح القطاع العام لن نستطيع بأى حال إن احنا نخلى الرأسماليين يزيدوا من تحكمهم بأنهم يأخذوا أيضاً ممتلكات فرنسا وممتلكات انجلترا .

كانت الفرصة طبعاً لينا فى هذا الوقت إن احنا نقيم القطاع العام ونبدأ قطاع عام فعلا على أساس واسع ونبدأ فى تطبيق الاشتراكية بمفهومها الحقيقى اللى يبدأ بخلق قطاع عام فى الصناعة والتجارة » .

كانت وراثة الرأسمالية المصرية للرأسمال الأجنبى ، بعد ما ثبتت عجزها وعدم وعيها بتبعات العصر . . يعنى قيام طبقة تملك كل الثروة والقوة ولا تتحمل المسئولية ، وهى بهذا تستطيع أن تتسلط على الثورة وعلى السلطة وسوف تنتهى فى النهاية بالتبعية إلى الرأسمالية العالمية مرة أخرى وبذلك سوف تهدر الاستقلال الوطنى ، فضلا عن تفجر أشد الصراعات الطبقية والاجتماعية ،

ولهذا أصرت الثورة على المشاركة ، لم تكن تصفية للرأسمالية ولكن مشاركة لها ، وقامت المؤسسة الاقتصادية لتكون قاعدة لاقتصاد مختلط تتقاسم فيه الدولة المشاريع والاستثمارات مع الرأسمالية .

وبدأ العمل منذ ١٩٥٧ فى إعداد خطة خمسية للتنمية الشاملة . . واشترك الرأسماليون مع الدولة فى العمل وأعطى النصيب الأكبر

للقطاع الخاص » أفسحت الخطة مكاناً رحيباً للقطاع الخاص وعولت عليه في تنفيذ جزء هام من مشروعاتها مبقية للقطاع العام عبء المشروعات الضخمة قليلة الربح المباشر مثل السد العالى وإصلاح الأراضى والتعدين والبترول ... الخ ومبقية له الحجم الذى يمكنه من أن يلعب دوره فى توجيه اقتصاد قومى عماده القطاع الخاص » .

كان القطاع الخاص فى عام ١٩٦٠ فى بداية الخطة يملك ٩٠ ٪ من إنتاج الزراعة وحوالى ٩٥ ٪ من إنتاج الصناعة .

وكان كل المطلوب منه أن يمول ٤٠ ٪ من استثمارات الخطة فى السنة الأولى !

وقدمت كل الضمانات والتأكيدات .. نص قانون الخطة على أن :

« يراعى فى إعداد الخطة وتنفيذها التوافق بين النشاط الاقتصادى العام والنشاط الاقتصادى الخاص تحقيقاً للأهداف الاجتماعية ورفاهية الشعب على أن تكون مشاركة القطاع الخاص فى تنفيذ الخطة اختيارية ودون أى إلزام وذلك مع عدم الإخلال بالأحكام القانونية » .

وصرح وزير التخطيط فى تقديمه للخطة بأنها تقوم على « تعاون رأس المال العام والخاص لمصلحة كافة السكان » .

وأعلن قائد الثورة فى تقديمه للخطة « أن الخطة أداة لتشجيع رأس المال الخاص وتوجيهه بعيداً عن الاستغلال والاحتكار » .

وكتب أحد المعلقين الاشتراكيين منتقداً بعدئذ « إن وضع الخطة العامة للتنمية والإعداد لها والدراسات التى أجريت إنما تدل من جهة على أنها تمت فى إطار فكرى تسيطر عليه الاتجاهات الرأسمالية كما يبدو أن تشكيل لجنة التخطيط واللجان المشتركة الأخرى قد جاء خلواً من كثير من العناصر التى درست التخطيط الاقتصادى ومن جهة أخرى ظل الأمل معقوداً على أن تنهض الرأسمالية بوظيفتها فى التنمية الاقتصادية » ! .

... ومع هذا لم يتقدم الرأسماليون وأثاروا جدلا حاداً حول الخطة ... لم توضع كما ينبغى ، ولم توضع آراؤهم موضع التنفيذ ، وقد انتهت إلى الدولة السيادة والولاية الاقتصادية وتتجاوز الخطة على أى حال قدرات الاقتصاد المصرى . ولوحوا بما هو أكثر تهديداً وخطراً . . أن مصادر التمويل لا تكفى الخطة . . . كانوا يملكون ٩٥ ٪ من رأس المال ، ومن هذا المركز القوى أرادوا أن يملوا إرادتهم الأخيرة .

وبدأت البنوك الكبرى تشهر أسلحتها وقوتها . .

قال أحد كبار الاقتصاديين « حاولت الدولة تعبئة المدخرات والاستثمارات الموجودة فى البنوك وأصدرت قانون النقد والائتمان الذى دعا بنك مصر بالذات كى يخفف من سيطرته على شركاته

الصناعية ويتجه لمعاونة الدولة فى مشاريع التصنيع ولكن رفض البنك تنفيذ القانون » وفى الوقت ذاته حاولت الدولة ضمان تأييد البنك الأهلى لعمليات التنمية وهو الذى كان يرفض مطالبها بتوجيه الودائع نحو التنمية مفضلا توظيفها فى سوق لندن ، لكن البنك الأهلى ظل يسخر من محاولات الدولة للتنمية عن طريق التصنيع .. وأعلن « أن خطة السنوات الخمس لاتعدو أن تكون خطة بلا موارد » .

وكانت مقاومته صريحة للخطة . . إن لم يكن إحاطة بها . لابد أن يواجه مواجهة حاسمة أن مصير الخطة هو مصير البلاد وهو لايحتمل المناورة والمضاربة ولهذا قررت الثورة اتخاذ القرار بتأميم أكبر البنوك ، وهما بنك مصر والبنك الأهلى . . ولم يكن هناك إجراء أقل يمكن اتخاذه .

كان عملا حتمياً جرد الرأسمالية من القدرة على التلاعب ضد الخطة . ولكن مع ذلك لم يدفع الإجراء الذى اتخذ بالرأسماليين إلى استخلاص الدرس وأعان ما يشبه « الاعتصاب » العام ضد الخطة .. لم يتقدم أحد لأى من المشاريع التى تحويها الخطة . . كانت حرباً اقتصادية أهلية وكانت ذروة قصر النظر وضيق الأفق . كانت حرباً لا مناص أن تخسرها الرأسمالية أصبح لابد أن تحمل الدولة على عاتقها تنفيذ كل المشروعات وأن تعلن الإفلاس العام للرأسمالية التى كانت تريد إعلان فشل وإفلاس الثورة .

« ظلت الرأسمالية حتى عام ١٩٦١ تصر على تصفية القطاع العام .. ولا هي تقوم على التنمية ولا هي ترتضى للقطاع الجديد أن يواصل مهمته في التنمية » كما كتب اقتصادى كبير .

لابد أن تبدأ نقطة التحول نحو طريق آخر .

ولم يختلف الأمر بالنسبة للرأسمال العربى أو الرأسمال الأجنبى الذى وفرت له الثورة كما وفرت للرأسمال المصرى ، كل الضمانات . ووسائل التشجيع .

وقد جاء الرأسمال العربى بقدر محدود ضئيل وانصب على نفس ميادين الاستثمار التى انصب عليها الرأسمال المصرى وهى الإسكان والخدمات ولم يقترب من الصناعة .

والرأسمال العربى — ليس رأسمالاً حراً — وهو تحكمه وتوجهه الرأسمالية العالمية التى يتبع ويخضع لها ، وهو لا يستثمر استثمارات حقيقية فى بلاده ولا يفكر فى استثمارات كبيرة أو بعيدة المدى فى العالم العربى . وهو لا يطمئن سياسياً للنظم العربية الجديدة . ولا للبقاء والاستمرار فى بلاده . . وقد ضخمت ثروات البترول المتناقضات الاجتماعية والاقتصادية بين العرب عامة ولهذا يفضل الاستثمار فى الغرب فى الولايات المتحدة أو أوروبا . وفى حماية النظام الرأسمالى العالمى !

وبالنسبة للرأسمال الأجنبي ، الذى تغيرت لأجله قوانين الاستثمار، فإنه لم يأت بما يذكر واتضح أن هدف الرأسمال الأجنبي لم يتغير منذ البداية .

وبالنسبة للشرق الأوسط كان الهدف الاستراتيجى أن تقوم دولة واحدة صناعية تكون سيدة المنطقة اقتصادياً وهى إسرائيل ، وتظل الدول الأخرى العربية زراعية أو بترولية أو دول خدمات .

وبالنسبة للعالم الثالث عامة . . كان الرأى السائد أن لا بد لها أن تظل زراعية ، أن تعدل الزراعة من إقطاعية متخلفة إلى رأسمالية متطورة . . وأن تكتفى بالتصنيع الخفيف أو الصناعات ، الاستخراجية لأن الصناعات الكبيرة معقدة ويمكن للدول النامية أن تعتمد على الغرب صناعياً .

وقد أعلنت الولايات المتحدة برنامجاً لدول العالم الثالث «المتخلفة» سمى بالنقطة الرابعة . . وكان يقضى بأن تساعد الولايات المتحدة على إقامة الأساس الاقتصادى والتكنيكى الذى يخلق المقومات للاستثمار . ويهيىء المناخ للاستثمار الخاص « الأمريكى » الذى يقوم بالمهمة .

كانت طريقاً جديداً للتبعية فى قوالب جديدة .

ورفضت الثورة وقال عبد الناصر :

« يجب أن نتخلص من كل نفوذ أجنبى تخلصاً كاملا . . هناك

أناس يقولون إنه من الناحية الاقتصادية يمكن أن نعتمد على نواح خارجية وأنا أرد على هذا قائلا بأننا إذا أردنا أن نبنى اقتصادنا القومى على أساس سليم يجب أن نعتمد على أنفسنا اعتماداً كلياً . . إن المعونة الأمريكية التى حصلنا عليها فى العام الماضى وهى ٤٠ مليون دولار وجهنا هذه المبالغ على أنها ليست أسساً من أسس الاقتصاد بل وجهناها إلى نواحى الخدمات مثل الطرق وإصلاح الموانى .. ولكننا لم نبن عليها أبداً اقتصادنا القومى » .

كان لابد أن تخرج مصر نهائياً من فلك الرأسمالية . أن تنهى تاريخاً طويلا مريراً له قصة يجب أن تروى .

وقد دخلت مصر العصر الرأسمالى مبكرة ، حققت الانتقال من الإقطاع والزراعة إلى الرأسمالية والصناعة قبل أى دولة من دول الشرق .

وفى بداية القرن الماضى أجهز محمد على على الإقطاع العثمانى المملوكى ، وشرع فى إقامة دولة عصرية صناعية رأسمالية ، كانت الدولة فيها أى محمد على هو « الرأسمالى الأول » .

وأرادت الدولة الجديدة أن تنقل الشرق العربى والشرق العثمانى كله من الإقطاع إلى الرأسمالية المصرية . . وأقامت فى مصر اقتصاداً جديداً متكاملا يكون أساس المشروع الكبير .

ولكن وجدت أوروبا أن هذا سوف يغلق أسواق الأمبراطورية العثمانية .. وأن الصناعة المصرية سوف تحتكر هذه الأسواق .. وقال قنصل بريطانى « إن مصر سوف تسد الطريق أمام البضائع البريطانية » .

كان العصر عصر الرأسمالية الصناعية الأوروبية .. وكانت تتطلع إلى السيطرة على أسواق وموارد العالم لخدمة الاقتصاد الأوروبى .

وعقدت بريطانيا .. سيدة العالم فى ذلك الحين معاهدة الباب المفتوح مع السلطان العثمانى سنة ١٨٣٨ وفتحت كل أسواق الأمبراطورية بما فيها مصر أمام التجارة البريطانية ثم عبأت كل أوروبا فى حرب عامة للقضاء عليها حتى تعود ولاية عثمانية كما كانت واشتركت فى الحلف فرنسا التى اعتمد عليها محمد على فى تجديد وتصنيع مصر ... وكانت تتطلع إلى أن تكون مصر أداتها فى التوسع فى الشرق لا أن تكون دولة مستقلة . !

وانتهى عصر محمد على .. ودخلت مصر عصراً آخر .. بدأ الغزو الاقتصادى .. ولم يعد الأوربيون الذين يأتون هم الخبراء والعلماء والضباط .. ولكن سيلا من المغامرين والمرابين يحملون مشاريع ثانوية أو وهمية لابتزاز أقصى الأرباح .

ولم تعد تقام سوى المشاريع التى تحقق المصالح الأوروبية العليا ..

وفى عهد عباس الأول أقيم مشروع سكة حديد مصر الاسكندرية ليخدم التجارة البريطانية . . وفى عهد سعيد بدأ المشروع التاريخى لحفر قناة السويس وأرادت فرنسا أن يكون أساساً لأمبراطورية اقتصادية فى الشرق وأن يضعها فى مركز قوة إزاء كل التجارة الأوروبية . . وفى عهد سعيد أيضاً ، عقد أول قرض بين مصر والبنوك الأوروبية ، وكان بداية الغزو « المالى » ونفاذ الرأسمالية المالية الكبيرة إلى مصر . وبداية « التدهور والخراب العام » كما سمى فيما بعد .

وقد حاولت مصر فى عصر إسماعيل أن تقوم بآخر محاولة للخلاص . وأراد إسماعيل أن يجعل من مصر « قطعة من أوروبا » أن تكون جزءاً منها ومعتمدة على الأوروبيين وفى الإطار الرأسمالى العام ولكن بوجود مستقل متكافىء .

وساعدت الحرب الأهلية الأمريكية مصر على أن تبدأ برنامجاً طموحاً للنهضة والتعمير وقد انقطعت واردات ذلك القطن إلى أوروبا . . وحل القطن المصرى محله وتحقق دخل كبير ، وكان إسماعيل مشهوراً بقدرته الإدارية والاقتصادية . . وأراد أن يقيم من مصر قوة أفريقية تمتد إلى الجنوب ولا تصطدم بالمصالح والمطامع الأوروبية . وبدا لبعض الوقت أن إسماعيل سوف يعيد مجد محمد على

فى صورة أخرى مسالمة . . وقامت الصناعة وتجددت القوة العسكرية وعمت المدارس . . بل وبدأت حياة دستورية نيابية على الطريقة الأوروبية !

ولكن لم يعف كل هذا إسماعيل من نفس المصير .

كان عصر التكالب على أفريقيا ، على موارد ومناجم أفريقيا . . وكانت الرأسمالية الأوروبية قد عرفت الأزمات الحادة الكبيرة وكانت تبحث محمومة عن حلول وأسواق وميادين استثمار تصدر وتصرف إليها الأزمة .

وأصبحت مصر مفتاح أفريقيا ومالكة قناة السويس . . ولم يكن ممكناً أن تظل مستقلة سياسياً أو اقتصادياً .

وتغير الأسلوب هذه المرة ، لم يتجمع الحلف الأوروبى ويبعث الأساطيل والقوات ، لكن اشتد زحف سيل المغامرين والمرابين وأحاطوا بإسماعيل ويزكون كل طموحه وأوهامه ، ويحملون له كل طرق الحصول على المال . . وتدافعت بيوت المال والبنوك الأوروبية تفتح أبوابها وتقدم له كل القروض بأبسط الإجراءات ، واستدرج إسماعيل . . واستمر فى الانحدار . . وبلغت قروض مصر مائة مليون جنيه . وكان مبلغاً هائلا ولكن ما تسلمته فعلا كان « ٣٢ » مليون جنيها فقط . . وذهب الباقى فى العمولات والسمسرة مما جعل الديون

المصرية تسمى « أكبر صفقة نصب فى القرن التاسع عشر » .

واستنزفت مصر فى سداد فوائد وأقساط الديون حتى صرخ إسماعيل ذات يوم للقنصل البريطانى « لقد أكلتم لحم مصر .. وأنتم تنفذون إلى العظام » .

وكانت القروض أسلوباً جديداً .. كانت تمنح لأمراء وسلاطين الشرق بسخاء وبما يتجاوز حدود قدرتهم .. ثم تبدأ المطالبة بالفوائد والأقساط والأصول ، ويبدأ الارتباك . . حينئذ تقدم الاقتراحات لإصلاح الحال . . وتتضمن إشراف خبراء أوروبيين أو وزراء أوروبيين ، وإذا استفزت الكرامة الوطنية قدمت الإنذارات . وفى النهاية تفتعل أزمة حادة تنتهى بالاحتلال .

وفى مصر تولى وزراء أوروبيون المالية . وسخر الاقتصادالمصرى كله فى خدمة الديون وأدت وطأة الاستغلال والاستنزاف إلى قيام الثورة وبشعار « مصر المصريين » .

وفرضت الثورة المصرية حكما وطنياً ديموقراطياً ووضعت خطة مصرية لسداد الديون وللاصلاح العام ، وكانت أفضل المشاريع لسداد الديون وللاصلاح العام ، وكانت أفضل المشاريع لسداد الديون ولتحرير اقتصاد مصر . . ولكن الرأسمالية الأوروبية لم تكن تريد أموالها .. بل كانت تريد مصر .

ولذا رفضت الخطة .. وتفاقمت الأزمة .. وقامت بريطانيا بالمهمة واحتلت مصر وأصبحت مصر شبه مستعمرة تحول اقتصادها إلى اقتصاد استعماري .. أحكم ربطه باقتصاد الأمبراطورية البريطانية .

كان الصراع على مصر حاداً بين الدول الأوروبية ، وكان هناك سخط على استئثار بريطانيا بالغنيمة .. واسترضاء لأوروبا .. فتحت مصر للاستثمارات الأوروبية . على أن تظل بريطانيا مالكة الزمام وكان الأوروبيون يتمتعون بنظام الامتيازات ويعفيهم من القوانين المصرية ومن دفع الضرائب .. وأصبحوا فى ظل حماية الاحتلال البريطانى يملكون مصر .

وأعادت بريطانيا « تكوين » الطبقة الحاكمة .. وأعادت توزيع الثروة الزراعية ودعمت الأسرة المالكة والباشوات والبكوات الذين انحازوا لبريطانيا وأضافت إليهم باشوات وبكوات جددا وأصبحوا عماد الوجود البريطانى .

وكانت مهمتهم الاقتصادية هى تحويل مصر إلى مزرعة لمحصول واحد هو القطن الطويل التيلة وتوفير الضرائب التى تكفى لدفع فوائد الديون وقد ظلت مصر تدفعها حتى سنة ١٩٤٤ .. !

وأقامت بريطانيا طبقة من الوكلاء .. تسيطر على السوق المصرية وتؤدى كل الأعمال « القذرة » التى تحتاجها التجارة البريطانية ،

وكانوا غالباً من دول وجزر البحر الأبيض ومن أقليات الأمبراطورية العثمانية . . وتسلموا مهـــام التجارة والمـال ، وصفيت الصناعة المصرية تماماً .

أصبحت مصر قاعدة الأمبراطورية البريطانية فى شرق أفريقيا والتى تمتد من القاهرة حتى « كيب تاون » ومناجم الذهب فى أقصى الجنوب .

ورزح الشعب المصرى تحت استغلال استعمارى مثلث مكثف ، من الرأسماليين الأجانب ومن الإقطاعيين ومن الوكلاء والسماسرة تركه فى أدنى مستوى المعيشة .

ولم يطرأ التغيير على حياة مصر واقتصادها إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

وكان بين الدروس التى استخلصتها بريطانيا من تلك الحرب ضرورة أن تقام محطات صناعية صغيرة بطول الأمبراطورية وعرضها خاصة فى مصر والهند لتسد الحاجات الاستراتيجية والتموينية إذا ما انقطعت المواصلات والإمداد من بريطانيا .

واجتمعت « لجنة الصناعة » فى أواخر الحرب الأولى وبرئاسة « صدقى باشا » أحد السياسيين الموالين وذو دراية واسعة بالاقتصاد

وصلات وثيقة برجال المال الأوروبيين ودرست احتمالات وإمكانيات إقامة الصناعة فى مصر وكأنها لم تقم أبداً .

ولكن لم تقدم للصناعة المصرية حماية حقيقية إلا سنة ١٩٣٠ حينما أصبح من حق مصر أن تفرض رسوماً جمركية على الواردات تزيد على النسبة المقررة لكل البضائع وهى ٨ ٪ .

وبعد الحرب العالمية الأولى اشتعلت الثورة فى مصر ، وكان مطلبها الأول هو الاستقلال التام . . وصحب الثورة الوطنية ثورة ثقافية للتحرر الثقافى وثورة أخرى للتحرر الاقتصادى ، وبرز زعيم اقتصادى كبير هو « طلعت حرب » وأطلق الدعوة لإنشاء بنك وطنى يتولى تعبئة رأس المال الوطنى ويشق به الطريق إلى نهضة اقتصادية عامة وأن تقيم الصناعة وتدير التجارة وتدخل بالمصريين إلى الآفاق الاقتصادية المصرية وبذلك تثبت جدارتهم وتبدأ الطريق لتحرير اقتصاد بلادهم .

وأنشأ طلعت حرب بنك مصر . . ثم شركات بنك مصر وفى كل ميادين الاستثمار . . ونجح البنك نجاحاً تاريخياً ، وأصبح فخر الوطنية المصرية وقلعة الرأسمالية «الوطنية» التى بدأت تؤكد وجودها فى مواجهة الرأسمالية الأجنبية ووكلائها وسماسرتها .

ولكن ما لبث بنك مصر أن عانى ما عانته الحركة الوطنية بعد

ثورة ١٩١٩ . . لم يستطع بنك مصر أن يحرر سوى قدر محدود من الاقتصاد المصرى وظلت المواقع الأساسية والرئيسية فى يد الرأسمالية الأجنبية .

لم يستطع بنك مصر أن يقوم بتصنيع كامل أو أن يرسى قاعدة صناعية عريضة ، ولم يستطع أن يمتد إلى الصناعة الثقيلة ، وظل نشاطه فى حدود الخدمات والصناعات الخفيفة والاستهلاكية والغزل والنسج أساساً .

وبعد المرحلة الأولى بدأ النجاح يسكر قادته . . وسرى إليه الكثير من الفساد المالى والإدارى حتى دفعه إلى حافة الكارثة . . وتدخلت الحكومة لإنقاذه وأصبح لها ما يشبه الهيمنة عليه .

ولم يصمد البنك للمواجهة مع الرأسمالية الأجنبية وفى النهاية عقد اتفاقات مشاركة مع الشركات البريطانية لإقامة شركات مختلطة .

و بعد الحرب العالمية الثانية دب فى قياداته الخوف والقلق الذى سرى إلى الرأسمالية المصرية . . وكان معظمهم رأسماليين تقليديين ومحافظين لم يدركوا متغيرات العصر وتبعاته . . ولم يقدم البنك قيادة اقتصادية مستنيرة « طلعت حرب جديد » تقوم بدور مماثل لما حدث بعد الحرب العالمية الأولى .

وتتالت الاضطرابات العمالية فى مؤسسات البنك ومصانعه وقام

أكبر إضراب عمالى عرفته مصر فى مصانعه بالمحلة .

ولم يقم بنك مصر بأى مشروع جديد بعد الحرب العالمية الثانية « والمرة الوحيدة التى تدخل فيها كانت مشاركة رأس المال الأمريكى والملك فاروق فى تأسيس شركة مصر للحرير الصناعى فى عام ١٩٤٧ » وكان لهذا أعمق الدلالة تتصالح الرأسمالية الوطنية مع الرأسمالية الجديدة ومع الرجعية المصرية .

كانت الرأسمالية المصرية حتى فى قلاعها « الوطنية » الكبرى . أبعد ما تكون عن أن تحقق أمانى مصر ومطالبها .

وقد منحت كل الفرص وأكثر مما ينبغى ولكنها أكدت الفشل المتلاحق ، وكان يجب أن تذهب .

وأعلنت الاشتراكية سنة ١٩٦١ .

وهى لم تكن عقاباً أو اغتصاباً ولكن ضرورة وحتمية والبديل الوحيد . . إن كل عدد الذين طبقت عليهم القوانين ٧٣٠٠ شخص كانوا يغتصبون ثروة ٣٠ مليون مواطن !

وكان أول تحول من نوعه وأعمقه أيضاً فى تاريخ مصر الحديث ، وإذا كانت لوائح إلغاء الالتزام والملتزمين فى عصر محمد على هى نهاية الإقطاع ودخول مصر إلى عصر الرأسمالية الحديثة فإن قوانين يوليو

سنة ١٩٦١ كانت نهاية الرأسمالية ودخول مصر إلى عصر الاشتراكية العلمية .. إلى عصر جديد وإلى مرحلة أعلى من مراحل التطور .

ولم تكن الاشتراكية غريبة بحال على تراث مصر السياسى والفكرى وكفاحها ولم يكن غريباً أيضاً أن تنتهى إليها ثورتها .

حينما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ثار الجدل بين الضباط البورجوازيين « بزعامة كليبر » والضباط اليساريين الاشتراكيين بزعامة كفاريللى حول النظام فى مصر وهل تقوم مصر بورجوازية تعتمد على العلماء والتجار أم مصر شعبية تعتمد على الفلاحين والجماهير وحسم نابليون الاختيار بانحيازه إلى البورجوازيين !

ولم تكن الأفكار الليبرالية والاشتراكية غريبة على شباب بعثات محمد على والذين ذهبوا إلى أوروبا لينقلوا الحضارة الحديثة ونقل أبرز المفكرين وهو رفاعه رافع الطهطاوى ، ملامح هذا الفكر وشرحه فى كتاباته .. وإن بقى بالطبع فى تلك الكتب .

وخلال عصر محمد على وبعده ، جاء « السان سيمونين » اتباع المفكر الاشتراكى الفرنسى سان سيمون إلى مصر ، خلال بحثهم عن بلد يطبقون فيها مشاريعه وتعاليمه ، وكان حفر قنال السويس أحد هذه المشاريع . وكانوا يرون محمد على « نابليون » شرق يحقق

تجربة عصرية وإنسانية وتولى كثير منهم مناصب فى مصر وأشرفوا على عدد من المشاريع الكبيرة التى تمت فى ذلك العصر .

وأثارت الثورة العرابية اهتمام الحركة الاشتراكية الأوروبية ، ووفد ممثلون لها إلى مصر ، وأقاموا صلات وثيقة بالثورة وكان أحدهم وهو « جون نينيه » ملازماً لعرابى ، حتى النهاية وكتب كتاباً مشهوراً عنه .

وكان الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ثم محمد فريد وثيق الصلة بالأحزاب الاشتراكية الأوروبية وكانوا أكثر من ينصت له واقتبس الحزب فى برامجه وتنظيماته الكثير منها ، وزار زعيم اشتراكى بريطانى هو « كيرهارى » مصر بدعوة من الحزب الوطنى ، وألقى عدداً من الخطب على رجال الحزب وقواعده .

وفى سنة ١٨٩٩ قام أول إضراب عمالى فى مصر وكان حدثاً جديداً فى حياة مصر أثار دهشة وقلق السلطات .

وكتبت صحيفة اللواء ، صحيفة الحزب الوطنى تقول « إن الفاقة سوف تعلم المصريين أشياء كثيرة » .

ومنذ بداية القرن الحالى نفذت الآراء الاشتراكية إلى الحياة الفكرية المصرية واعتنقها وبشر بها مفكرون مصريون ، وثار

حولها جدل حاد ... حمل لواءه شبلى شميل .. فرح أنطون .. سلامة موسى .. نقولا حداد .

وبعد قيام أول ثورة اشتراكية فى روسيا خلال الحرب العالمية الأولى ، نفذت لفحة قوية من الفكر الاشتراكى إلى مصر وتكون « حزب ماركسى لينينى » وحزب آخر « اشتراكى ديموقراطى » ، بعد انقسام الحركة الاشتراكية الدولية ، وضم الوفد حزب الحركة الوطنية عدداً من القيادات السياسية والفكرية الاشتراكية ، وثار جدل حاد بين الوطنيين والاشتراكيين حول القضية المصرية وأفضل الحلول .

وخلال الحرب العالمية الثانية برز مرة أخرى الفكر الاشتراكى فى مصر وتكونت حلقات ماركسية تنشر هذا الفكر وتجادل حوله وبعد الحرب تحول حزب مصر الفتاة إلى حزب اشتراكى ديموقراطى كان قوة إثارة كبيرة ، وقام جناح اشتراكى ذو تأثير فعال داخل الوفد ، وطرحت كل البرامج والحلول الاشتراكية للقضية المصرية وثار حولها جدل عام .

وقد كان مجلس قيادة الثورة انعكاساً لكل القوى الوطنية والثورية الجديدة ، وكان تحالفاً ضم كل الاتجاهات يميناً ويساراً ، وكان يضم اشتراكيين ماركسيين وغير ماركسيين فى كل مستوياته .

وكانوا جميعاً . . ويميناً أو يساراً من أبناء الطبقات المتوسطة الصغيرة ، والقريبة قرباً وثيقاً من الجماهير الشعبية ، وبعد ما فشلت الطبقات الوطنية الكبيرة حقق الثورة الصف الأخير الراديكالى من « البورجوازية » الوطنية .

والطبقات المتوسطة الصغيرة ، تتوزع عادة بين الاتجاه يساراً إلى الجماهير والاشتراكية أو المحافظة والتطلع والاتجاه إلى اليمين والرأسمالية الإصلاحية .

وفى المرحلة الأولى للثورة وفى مواجهة الاحتلال كان طبيعياً أن يسود الاتجاه الثانى .

وبعد إفلاس الحلول الرأسمالية ، وحل القضية الوطنية ، وبروز المشكلة الاجتماعية ، لم يكن غريباً أن يتقدم الاتجاه الثانى وأن يتم الاختيار الاشتراكى .

وقدمت الثورة المصرية تجربة جذرية قامت بأعمق تغيير فى الكيان الاجتماعى والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية « علاقات الإنتاج » حدث فى المجتمع المصرى . وأيضاً أعمق تغيير فى أى بلد من بلدان العالم الثالث .

وقدمت تجربة اشتراكية فريدة تؤكد الاستقلال السياسى .

والاقتصادى والأيديولوجى . . وتملك كل حريتها وحيويتها وتستطيع أن تضيف كل الإضافات الخلاقة !

والاشتراكية العلمية والثورية هى فى جوهرها منهج لفهم الواقع الاجتماعى وتغييره ، وليست تعاليم أو أقانيم ثابتة جامدة ، وهى دراسة الصراعات الاجتماعية الطبقية ، ومتناقضاتها فى مجتمع معين ودفعها نحو الحل الحقيقى والأساسى أى «الاشتراكى» وتحرير المجتمع نهائياً .

وجوهر الاشتراكية هو فهم الصراع الطبقى وتصفيته . . أى تصفية الاستغلال والاستبداد تصفية ثورية بالسلم أو بالعنف .

وقد وجدت الثورة المصرية الصيغة المصرية الملائمة نظرياً وتطبيقياً ، واعترفت بالصراع الطبقى ، وقدمت طريقاً مصرياً ملائماً لحل مصادماته ومصر لابد أن يكون لها التفسير والتطبيق الخاص بها .

وقد كانت أزمة الاشتراكية العلمية ، نظرياً أنها لم تنفذ إلى الواقع المصرى وتحلله وتشرح تناقضاته . . الروحية والمادية وأنها لم تستقطب الجماهير ، وتخلق سلطة تحقق التحول .

كانت مصر قبل الثورة موزعة « أيديولوجيا » بين الوطنية وعمق المشكلة الاجتماعية ، وكانت الأيديولوجية الدينية لا تقدم منهجاً أو برنامجاً محدداً ومعاصراً للقضايا الأساسية ، وكانت للماركسية

تفتقد إلى التغلغل فى الواقع والانصهار فيه ، وكانت الاشتراكية الديموقراطية تفتقر إلى الإصالة الفكرية والقوة التنظيمية .

وكانت مصر فى حاجة . . نظرياً . إلى صيغة فكرية جديدة وخلاقة تمزج القوميات الوطنية والروحية ، بالفكر الاشتراكى العلمى وتصبه فى قوالب مصرية عصرية .

وكانت « عملياً » فى حاجة إلى سلطة تفرض الاشتراكية وإلى أبعد مدى . وقد حدث هذا فى يوليو سنة ١٩٦١ .

ووقع بعدئذ مائة خطأ وخطأ ، وارتكبت مائة غلطة وغلطة ، وكان هذا طبيعياً ومتوقعاً وسط سيل التحديات والاستفرازات ، ولكن فى محصلة الحساب الختامى والنهائى كانت نجاحاً مجيداً .

وما لم تستطع الرأسمالية أن تحققه خلال قرن ونصف حققته الاشتراكية فى بضعة سنوات فقط ، وكانت سنوات عصيبة دقيقة .

تم بناء السد العالى وهو الأساس والصرح الأكبر لكل البناء .

تحققت خطة خمسية متكاملة للتنمية وأقيمت قاعدة صناعية استراتيجية وثقيلة وخفيفة أرست قوة مصر ومستقبلها .

وبعد نجاح الخطة الخمسية الأولى وضعت خطة عشرية أكبر أعطت الأولوية للصناعة الثقيلة وتغيرت نظم وعلاقات وطرق الزراعة

ودفعت بها نحو زراعة عصرية وتعاونية واستصلحت أكبر قدر تم استصلاحه من الأرض وقررت تطبيق الزراعة التعاونية والكبيرة فى الأرض الجديدة .

وفى ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية تغير وجه المجتمع وكيانه وتكونت فئات وطبقات جديدة ، تمثل حضارة وحياة العصر عمال مهرة ونقابيون وفنيون ومديرون لا يعملون لحساب الرأسماليين الأجانب أو المصريين ، وتكون فلاحون تعاونيون لا يستبد بهم أو يستنزفهم الإقطاعيون وتكون فنيون ومثقفون جدد من المعاهد والجامعات وخرج أكثر هؤلاء من أفقر الطبقات .. وأدى الكثير منهم مسئوليتهم والتزامهم نحو التنمية والتطور لصالح الشعب .

وحققت المرأة مساواة تكاد تكون كاملة مع الرجل واستردت كل حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وأضافت قوة « نصف المجتمع » إلى الكيان الاقتصادى والاجتماعى للبلاد .

وتأمنت لمصر قاعدة دولية ثابتة وملتزمة لأهم مطالب التمويل والتصنيع والتسليح وهى القاعدة الاشتراكية الدولية . . وإذا كانت التجربة المصرية فريدة ومختلفة إلا أنها بإصالتها كانت قوة جديدة للاشتراكية وتلتزم أمامها كل القوى الاشتراكية بالمساندة والتأييد .

وخلال المحنة أثبتت الاشتراكية أهليتها وجدارتها وهى التى

كونت وأنجبت جماهير ٩ يونيه ، وخرجت تلك الجماهير تدافع عن مصر الاشتراكية التى أنزل عليها الاستعمار والاستغلال كل سخطه وبطشه .

وحينما أعلنت الاشتراكية ، لم تشهر الإفلاس الكامل للرأسمالية وفرقت بين الرأسمالية الوطنية غير المستغلة وبين الرأسمالية الكبيرة المستغلة .. وضمت الرأسمالية الوطنية إلى الحلف الشعبى ، مع كل قوى الشعب « الاشتراكية » ووفرت لها وجوداً أساسياً مناسباً ومأموناً فى الحلف ، وتركت للقطاع الخاص قسطاً كافياً وربما واسعاً من النشاط ، يكفل له الأساس الاقتصادى للبقاء والازدهار .

الرأسمالية الوطنية غير المستغلة هى الرأسمالية المستنيرة والتى تدرك متغيرات العصر ، لم تعد الوطنية هى حب الوطن والأرض حباً مجرداً ولكن هى حب الشعب أولا وهو حب يدفع إلى الارتقاء به نحو أعلى مستوى ممكن ، وأن يتقاسم الجميع الحق فى الوطن وخيراته .

والرأسمالية الوطنية هى التى تعترف بالحقوق الاجتماعية والعدالة الاجتماعية كجزء من الحقوق الوطنية .

والرأسمالية الوطنية لهـذا لا تعادى الاشتراكية وتقبل حتمية التحول إليها ، تحولا سلمياً ومضطرداً .

والرأسمالية الوطنية تساهم فى مرحلة التحول إلى الاشتراكية بكل

قدرتها وخبرتها وتدفع الإنتاج وتتكامل مع القطاع العام .

ولكن الرأسمالية المصرية . . فيما عدا بالطبع فئات وشرائح قليلة منها لم تلائم نفسها بهذه المعانى .

أحنت رأسها للعاصفة أو وضعت أقنعة سياسية ولكنها شنت الحرب الباردة المستميتة ضد النظام الجديد .. لم تعبر وجودها السياسى داخل الحلف تفاعلا مع باقى القوى أو حواراً فكرياً وسياسياً معها نحو التغيير والتطور أو تسليما بحقوق الأغلبية وقيادة الأغلبية ولكنه موقع قوة تجمد منه الحلف وتشل فاعليته أو تترك توجيهه أو السيطرة والسيادة عليه .

ولم تعتبر مجال نشاطها الاقتصادى فى إطار الاقتصاد الجديد دافعاً إلى اقتحام ميادين مثمرة وإنشاء صناعات ومشاريع ضرورية ونافعة . ولكن التشبث بنفس ميادين الاستثمار .. الإسكان أولا والصناعات الثانوية والصغيرة ثم زاد عليها بقدر كبير النشاطات الطفيلية وغير المشروعة أى السمسرة والتهريب .. والمضاربة .. وعمليات السوق السوداء والمحاولات المستميتة لإفساد القطاع العام وإثبات عدم قدرته وصلاحيته .

ولم تنقطع مشاكل وفضائح القطاع الخاص بل وتزايدت يوماً بعد يوم له .. فى الزراعة ، اضطر الأمر إلى تأليف لجنة لتصفية الإقطاع

كشفت عن سلسلة من الجرائم والفظائع فى الريف انتقاماً من توزيع الأرض والاشتراكية هزت ضمير البلاد .. وفى الصناعة والتجارة والإسكان لم تنقطع حوادث وقضايا التهريب والمضاربة والسوق السوداء ، والاستنزاف والاستغلال المضاعف واستباحة كل الوسائل والغايات .

قدمت الرأسمالية المصرية دليلا آخر على فشل متصل لا ينقطع . وعمى لا تنزل عنه الغشاوة .

وبعد النكسة صرح كل القادة السياسيين والاقتصاديين ، أن الاشتراكية هى التى مكنت مصر من الصمود ومن استيعاب النكسة وهى التى مكنتها من النهوض واستئناف البناء ثم المقاومة والحرب . حرب الاستنزاف .

وأجمع على هذا كل الوطنيين والاشتراكيين غير المتحيزين .

وبعد حرب أكتوبر صرح القادة العسكريون بأن القطاع العام « الاشتراكى » هو أساس النصر ولم يكن يمكن أن يتم بدونه .

وهكذا نجحت الاشتراكية فى مصر وكسبت قضاياها الأساسية . وكان ٦ أكتوبر هو فى نهاية الأمر انتصاراً للنظام الثورى الذى بدأ فى ٢٣ يوليو وانتهى إلى الاشتراكية .

ولكن الطبقات المستغلة والمخلوعة « لا تنسى أبداً ولا تغفر ولا تستسلم » وهي تزداد حقداً كلما ضاقت بها الفرص ولا تيأس .

« وتشتد المقاومة وتستميت في فترة الانتقال ، حتى لا تستقر الاشتراكية وتضرب جذورها . ولا يدخر جهد خلال المرحلة الصعبة لإثبات عجز الاشتراكية وفشلها » .

ولهذا تتصاعد الحملات في الأزمات والفترات العصيبة . تصاعدت بعد النكسة سنة ١٩٦٧ ، وقيل صراحة أن الاشتراكية كانت السبب وبلغت ذروتها بعد وفاة عبد الناصر ووصفت الاشتراكية بأنها مغامرة من مغامراته .. ولابد أن تذهب بعده .

وتكرر الأمر بعد ١٥ مايو الذى رأوا فيه نهاية ثورة يوليو وبداية عصر جديد يعيد الثروة والسلطة إلى أصحابها بعـــد تصفية الإغتصاب والقهر « واللاشرعية » ! !

وتتشجع الطبقات القديمة وتستمد جرأتها من انضمام الفئات والطبقات الجديدة ذات التطلعات والتى نمت فى عهد الثورة واختلست قدراً ليس قليلا من ثمرات التنمية والتطور وأرادت ذات يوم أن ترث الطبقات القديمة وأن تكون الثورة استبدال طبقة بطبقة جديدة وهذه تضم فـــلول البورجوازية العسكرية وشرائح البورجوازية

الصغيرة ذات التطلعات الكبيرة والموظفين والفنين الذين تعودا العمل لحساب الرأسمالية الكبيرة ولا يمكن أن يتطوروا .

ويدور الهجوم على الاشتراكية فى كل الجهات الفكرية والسياسية والاقتصادية وبصيغ ثابتة لا تتغير .

الهجوم الفكرى يبدأ عادة باستغلال الدين .. وليس هناك مجتمع يتنافى مع الدين كالمجتمع الرأسمالى حيث لا يعبد فيه سوى المال ويستباح كل شىء فى سبيله .

وفجأة تحول الرأسماليون والملاك المصريون الذين لم يعرف عنهم أى تقوى أو ورع إلى مدافعين أشداء عن الدين الحنيف وتحول كتاب اشتهروا بالإباحية وأدب الفراش إلى كتاب إسلاميين رسالتهم درء الأخطار عن الإيمان .

والدين هو السلاح العقائدى الذى أشهرته الرأسمالية العالمية ضد الاشتراكية منذ البداية .

وبعد الحرب العالمية الثانية وتعاظم التحدى الاشتراكى والشيوعى قامت الكنيسة بالدور الأساسى وتكونت الأحزاب السياسية المسيحية التى سميت أحزاب الديموقراطية المسيحية لتواجه الثورة الاجتماعية فى أوروبا ولتحول القضية من استغلال وتحرر إلى إيمان وإلحاد .

وتريد الرأسمالية المصرية أن تنقل التجربة الغربية المتعثرة إلى مصر .

وقد نزل الدين للفقراء والمحرومين والمضطهدين .. وقال محمد « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى يوم القيامة فى زمرة المساكين » .

وفى ظل مصر الرأسمالية الإقطاعية عاش ٩٥ ٪ من الشعب المصرى فى أدنى درجات المرض والفقر والجهل .

كانوا أميين لا يستطيعون أن يقرأوا القرآن الذى كانت أول آية فيه « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

وكانوا فقراء فقراً مدقعاً وإذا « كاد الفقر أن يكون كفراً » . فقد عاشوا دائماً على حافة الكفر .

ولا شك أن الاشتراكية التى تعلم كل مواطن ليستطيع أن يتفقه فى الدين ويتعمق فى العلم هى أقرب إلى الله من الرأسمالية .

والاشتراكية التى تضمن حق الحياة وترد للانسان كرامته هى أقرب إلى الله من الرأسمالية التى تحول أعظم مخلوقات الله إلى مجرد سلعة وأداة للربح .

وحيث تفشل مقولة الدين تتحول الدعوة إلى الشخصية والذاتية القومية .

« وأننا نريد اشتراكية .. ولكن مصرية عربية إسلامية ليست مستوردة خارجية غريبة عن أرضنا » .. والفكر والمذاهب والعقائد ليست ملك أحد وهى للانسانية جميعاً ، وقد نقل الأوربيون تراث العرب ذات يوم .. وينقل العرب تراث الأوربيين الآن وأول مبادىء الاشتراكية العلمية أنها لا تصدر ولا تفرض وإنما تفهم .. ولا يمكن لبلد أن يعيد اختراع الكهرباء لأنه لا يريد أن يستوردها ولأن استيرادها يمس ذاتيته وشخصيته القومية .

وحينما لا تغنى هذه المقولة أيضاً تشرع الثالثة .. لا نريد اشتراكية « شيوعية » ولكن نريد اشتراكية ديموقراطية مثل السويد أو بريطانيا ويباح الاستيراد ولكن من بلاد معينة .

ولا أحد يريد اشتراكية من الشرق والغرب ولكن اشتراكية حقيقية مصرية التطبيق وتحل مشاكل مصر وتصبح الاشتراكية السوفيتية أو الاشتراكية البريطانية مجرد مراجع ندرسها وننفتح عليها .. وتراث الاشتراكية الماركسية أو غير الماركسية لا يرفض لأنه ماركسى أو غير مركسى ولكن لأنه مناسب أو غير مناسب .

وبعد الهجوم الفكرى يبدأ الهجوم السياسى ، ويعتمد أولا وأخيراً على إثارة قضية الديموقراطية .

وتدرجت الدعوة إلى الديموقراطية من التنديد بسنوات القهر

والبطش والطغيان إلى هدفها الحقيقى وهو تصفية الاتحاد الاشتراكى وإعلان ديموقراطية متعددة الأحزاب .

والاتحاد الاشتراكى ليس التنظيم النموذجى . . وهو لم يقم بتبعاته وواجباته الرئيسية كما ينبغى ولكن البديل له ليس إعادة السلطة إلى الرأسماليين .

والاتحاد الاشتراكى صيغة مبتكرة للديموقراطية الشعبية فى مصر .

وقد وضع الاتحاد الاشتراكى صيغة صحيحة لتعريف الشعب ، وأنه يتكون من العمال والفلاحين والمثقفين والرأسمالية الوطنية ، أى الرأسمالية الصغيرة غير المستغلة .

وهذه طبقات ليس هناك تناقض أو تعارض أساسى بين مصالحها ويمكن أن يقوم تنظيم سياسى واحد يعبر عنها ويمكن أن تحل فى داخله كل الصراعات والتناقضات الثانوية فيما بينها . . والأحزاب والتنظيمات السياسية هى تعبير عن طبقة واحدة أو عدة طبقات متكاملة .

ومن أهم أسباب تعثر الاتحاد الاشتراكى إن لم يكن أهمها هو محاولة الرأسمالية الوطنية أن تهيمن على التنظيم وأن تقف ضد أى تفاعل أو تطور فى داخله فى محاولة لعرقلة تجربة الاشتراكية .

وإصلاح التنظيم لا يكون بتصفيته لحساب الرأسماليين ولكن بتطويره وتعديله وأن تسلم قيادته إلى العمال والفلاحين ويكفل هذا بالنص والفصل ثم بتنظيم تحول الرأسمالية الوطنية المضطرد إلى الاشتراكية . وإعادة تحديد التعريف الصحيح لها مع إعادة تعريف باقي الطبقات .

والاتحاد الاشتراكي ليس تنظيما أبديا وهو تعبير عن مرحلة الديموقراطية الثورية وهي مرحلة انتقالية محتومة ، قد تكون طويلة في ظروفنا ، وتستمر حتى يستعيد الشعب كل حقوقه وقدراته التي سلبت خلال عصور الإستبداد والاستغلال وحتى المواجهة السياسية الكاملة مع كل الأعداء في الداخل والخارج .

الديموقراطية الثورية تسير بالشعب نحو الديموقراطية الكاملة .. وهذه ليست الديموقراطية « الحزبية » التي يدعوا لها الرأسماليون .

الحزبية التي يدعون لها هي محاولة لتجميع قوى اليمين وفلوله .. ولإقامة عدة أحزاب تحت واجهات الديموقراطية ويمكن أن تنفذ إلى فئات كثيرة من الطبقات الصغيرة المتعثرة الوعي وتثير الصراع السياسي الداخلي ، ثم تسخره لصالحها ويتحول الكفاح الوطني الاجتماعي إلى صراع حزبي يدور في حلقات مفرغة .

الديموقراطية الحزبية التي يدعون لها واجهة يستردون من خلفها

باضطراد أكبر قدر من السلطة ومن الثروة هى تعبئة وتنظيم جديد لقوى الرأسمالية . الرأسمالية المحلية وبالطبع الرأسمالية العالمية سوف تستطيع أن تشيع أكبر قدر من التشتت والتفتت فى البلاد .

وفى للعالم الثالث تحكم الرأسمالية بأحد طريقين إما فاشية عارية تبطش وتقمع كما هو الحال فى دول كثيرة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . طريق « شيلى » .

وإما طريق بنظام حزبى وواجهة ديموقراطية هى أولا صمام أمن مثل لبنان .. أو فى الهند حيث يقوم حزب أغلبية عاجز عتيق وأحزاب عديدة منقسمة إلى اليمين واليسار ، وتقوم ديموقراطية سياسية على حساب الديموقراطية الاجتماعية . وتتخذ الهند مثلا فى التعثر الاشتراكى والتخلف الاجتماعى !

ولدى مصر تراث طويل فى الحزبية والأحزاب له من المزايا بقدر ما له من العيوب ، ولكنه فى النهاية فشل فى تحقيق الهدف الأول والأخير لمصر وهو الاستقلال .

وقد كانت مصر أول بلد فى الشرق طبق النظام الحزبى .. وقام الحزب « الوطنى » فى الثلث الأخير من القرن الماضى ، وكان حزباً كاملا بزعيم تاريخى وبقيادات وبرنامج وجماهير وقواعد شعبية وصحف كان حزب الثورة العرابية ، وأول تعبير سياسى عن الوطنية المصرية .

وقضى الاحتلال على هذا الحزب وطارده حتى آخر أعضائه .

ولدى بعث الوطنية المصرية فى مطلع القرن بعثت الحياة الحزبية ، وقام « الحزب الوطنى » مرة ثانية بقيادة مصطفى كامل معبراً عن الصحوة الجديدة .. ولم يواجه الاحتلال الحزب بالقوة ليقضى عليه .. ولم يكن هذا ممكناً ولكن طبق الأسلوب البريطانى التقليدى .. وتكونت الأحزاب المضادة وبدأت الصراعات الحزبية فى مصر . وأن يتحول الكفاح ضد الاحتلال إلى صراع بين الأحزاب .

وتكون حزب الأمة من الإقطاعيين وكبار الملاك والموالين لبريطانيا ينادى بالتقدم فى ظل الاحتلال حتى تنضج مصر للاستقلال .

وقام حزب الإصلاح الدستورى ليكون حزب « الخديوى » ورجال السراى .. ويقوم بالمناورة لصالحه بين الوطنيين والبريطانيين .. ثم تتالى تكوين الأحزاب وأوحى البريطانيون . نقلا عن الهند . بإقامة الأحزاب الطائفية ، وقامت أحزاب « قبطية » وأحزاب « إسلامية » الخ .

وبعد الحرب العالمية الأولى تحولت مصر . انفجرت الثورة وتدفقت الجماهير المصرية إلى الشارع لأول مرة وفى مواجهة مباشرة مع الاحتلال .

ومن الجماهير فى الشارع تكون أكبر حزب سياسى وهو حزب

الوفد ، تكون تلقائياً ، بالإرادة الجماعية لشعب مصر . . وانتخبت الجماهير في الشارع زعيمه وقادته أيضاً . . وكان حدثاً فريداً في تاريخ الحزبية والأحزاب .

وفي مواجهة الوفد ، وأن يقوم حزب أغلبية يضم كل مصر ويعبر عن وحدتها طبق البريطانيون سياسة القوة أولا وحينما عجزت طبقوا السياسة التي لم تكن تفشل وهي الشقاق .

وبدأت الإنشقاقات . . من الوفد .

انشق الأحرار الدستوريون والإقطاعيون الكبار . . أبناء البيوتات ، ورجال حزب الأمة القديم . . ووصفوا الوفد أنه حزب الرعاع .

وانشق « السبعة ونصف » وهي مجموعة من قيادات الوفد . . توزعوا بعدئذ بين المناصب والشركات والبنوك مكافأة على الإنقسام .

ثم انشق السعديون بعد معاهدة ١٩٣٦ مكتفين بها كنهاية للكفاح الوطني ، ثم دعوا لدخول الحرب العالمية الثانية مع بريطانيا .

ثم انشق حزب « الكتلة الوفدية » بخروج سكرتير الوفد ومعبراً عن شخصه وقد انتهى بالتحالف مع السراى والجبهة المعادية .

وتألفت أحزاب أخرى كثيرة خارج الوفد . . مثل حزب الاتحاد لحساب الملك ثم حزب الشعب لحساب الملك والاحتلال !

وفى الثلاثينات والأربعينات بدأت الأحزاب الجديدة تتكون تعبيراً عن التطور والجيل الجديد الذى نما .. وقام حزب مصر الفتاة نقلا عن الأحزاب الفاشية والنازية فى أوروبا وقامت حلقات «ماركسية» فى محاولة لإقامة تنظيمات وأحزاب شيوعية مصرية . وقام الإخوان المسلمون ، تنظيم سياسى للدعوة الإسلامية .

ولحق بهذه الأحزاب والتنظيمات ما حدث للأحزاب القديمة ، بدأت الإنقسامات والإنشقاقات واحتدمت فيما بينها فى داخلها .. وأصبح الصراع الحزبى فى مصر نموذجاً فى تدهوره .

وكانت يد الاحتلال وراء تدهور الحياة الحزبية .. وكانت سياسة « فرق تسد » البريطانية هى العنصر الرئيسى .

كان قيام حياة حزبية وسياسية سليمة يعنى نهاية الاحتلال ، وكان قيام حزب سياسى أو أحزاب تمثل الشعب المصرى أو تحقق وحدته خطراً لابد من دفعه .. وقد كان البريطانيون يرددون أن ليس هناك «شعب» فى مصر .. خليط غير متجانس وحقيقة جغرافية فقط !

وكان هذا الصراع والإنحلال وراء فشل الأحزاب فى النهاية فى تحقيق ثورة مصر وأن يحققها العسكريون بواسطة الجيش فى آخر الأمر .

ومهما تكن المرارة الراسبة من الأحزاب والحزبية فى مصر ، إلا أن مصر لابد وأن تنتهى يوماً إلى ديموقراطية برلمانية حزبية ولكن وأساساً فى إطار الاشتراكية .. قد تكون صورتها ثلاثية ..

حزب اشتراكى هو حزب الأغلبية واستمرار لأحزاب مصر الكبيرة وللحركة الوطنية الثورية فى مصر .. وحزب شيوعى سيظل دائماً حزب كوادر للصفوة الماركسية .. ويقوم بالمعارضة اليسارية . ثم حزب بورجوازى يمثل الرأسمالية الوطنية الصغيرة غير المعادية للاشتراكية على أن يضم الجميع برنامج عمل مشترك فى إطار ائتلاف وطنى .

وهذه صورة المستقبل .. ولكن إزاء حتمية الوحدة الوطنية .. وإزاء هجوم اليمين باسم الديموقراطية والحزبية لابد من الإبقاء على صيغة التحالف . وبذل الجهد الأخير المستبسل لتطويره وسد كل ثغراته .

والأحزاب والتنظيمات السياسية على أى حال ليست بأسمائها أو بعددها .. ولكنها تقاس أولا وأخيراً بفعاليتها .. بصدقها وعمق صلتها بالجماهير وقدرتها على التفاعل معها ، ومهمة التنظيم السياسى فى مصر مهما كان اسمه أو لوائحه هى تعبئة الشعب لتحقيق أهدافه لكى يستكمل تحرير أرضه ولكى تكون تبعة كل مواطن ، الحرب الحديثة وحرب التحرير خاصة ، حرباً شاملة .. والحرب ضد إسرائيل والإمبريالية الأمريكية حرباً فى كل مكان وأى مكان .

مهمة التنظيم السياسى الأولى هى تعبئة شعب مصر وتسييسه ثم تسليحه أى تحويله إلى شعب مقاتل بأكمله فى معركة طويلة المدى .

ومهمة التنظيم السياسى فى مصر هى تعبئة الشعب وتدريبه لبناء

المجتمع الجديد .. وأول ضمانة لنجاح البناء الاشتراكي هي أن تبنيه الجماهير بنفسها ولنفسها .

ونجاح كل « الخطط » الاشتراكية إنما تقوم على مدى اشتراك قوى الشعب في إعدادها وتنفيذها .

وأكبر مصدر للانتاج هو وعي الجماهير الذي يذكي حماسها .. والعامل والمهندس والمدير الذي يعرف لماذا يبني .. ويرى الهدف الكبير من عمله هو أهم قوة إنتاجية في البناء والتعمير ، وقد نجحت الاشتراكية دائماً حينما عرفت هذه التعبئة وبمدى عمقها .

ومهمة التنظيم السياسي في مصر أولا وأخيراً هي تعبئة الشعب المواجهة السياسية أو الثورية مع أعدائه في الداخل والخارج المواجهة مع الرجعية المحلية في صناديق الانتخاب أو مواجهة ثورية مباشرة إذا لزم الأمر .

والتنظيم السياسي المصري لهذا لابد أن يكون تنظيماً فريداً .. تنظيماً متعدد التبعات يعد الشعب لمواجهة أعدائه الخارجيين والداخليين ولتحرير نفسه بنفسه .. ويعده أيضاً لبناء حياته الجديدة .. وهذه هي الديموقراطية في أرفع درجاتها ويمكن أن يقوم بها « تنظيم واحد » .

والشعب المصري شعب من الفقراء والمحرومين .. ليس هناك خلاف على ما يسعى إليه .. ولا يمكن أن تقوم فيه ديموقراطية ولا تعتمد على الاشتراكية ولابد أن تتكسر في النهاية محاولات النيل

من الاشتراكية باسم الديموقراطية والتى لا يمل الرأسماليون تكرارها !

الديموقراطية فى مصر لا تقوم إلا متكاملة .. سياسية اقتصادية ثقافية.

ويبدأ الهجوم الاقتصادى على الاشتراكية بالهجوم الضارى على القطاع العام . وقد صرح كل القادة بلا استثناء أنه لولا القطاع العام لما صمدت مصر للنكسة ولولا القطاع العام لما استطاعت مصر أن تكسب حرب أكتوبر . . وأجمع كل السياسيين والاقتصاديين والعسكريين على هذا وكان يكفى شهادة للقطاع العام . . ولكن الرأسماليين منذ تدخلت الثورة فى الاقتصاد وحتى قيام القطاع العام يعدونه العدو الرئيسى ، ومطلبهم الأول هو تصفيته .

وتبدأ الحملة على القطاع العام .. بالتشهير بفساده . . وبالبيروقراطية التى تحكمه وبسوء الإدارة الذى يعمه . . وبقصوره وعجزه عن تحقيق الحاجات والمطالب الأساسية .

وتنتهى الحملة إلى المطالبة بأن يشترك القطاع الخاص فى ملكية القطاع العام بأن يكون له ٤٩٪ أولا وإلى أن ينتهى بملكية كاملة . القطاع الخاص هو المهضوم الحقوق والذى يستطيع ولا يستطيع سواه أن يحقق التنمية والرخاء . . وتشجيع القطاع الخاص لن يصلح فقط من سوءات القطاع العام ويعوض عنها ، ولكن سوف يجتذب رأس المال العربى والأجنبى حتى ليتدفق على مصر .. إن مصر أغلقت

الأبواب .. بغير وجه حق ضد هذا المصدر للخير ويجب أن تتدارك خطأها وأن تنفتح عليه . ويسمى هذا « بالانفتاح » ! .

ولا أحد يعترض على الانفتاح على العالم بكل دولة وكتله ومعسكراته .. ولم يحدث أن انغلقت مصر عن أحد .. ولا يمكن لمصر بموقعها أن تنغلق ولكن حينما أعلن الغرب الحرب الاقتصادية علينا كان لا مناص أن نبحث عن مخرج وأن ننفتح على المعسكرات الأخرى .. وإذا رأى الغرب الآن أن مواقفه كانت خاطئة ولم تفد واستوعب دروس حرب أكتوبر ومعركة البترول فلا أحد يمكن أن يعترض .

ولكن الانفتاح يعنى التعامل والتبادل المتكافىء وفى إطار احترام السيادة والنظم ويعنى عدم التدخل فى الأمور الداخلية وأن يتم وفق المبادىء التى قررتها الدول الآسيوية الأفريقية منذ باندونج أساساً للعلاقات الدولية .

والإنفتاح بالنسبة للرأسماليين المصريين يعنى التحول من سياسة إلى أخرى ، ومن طريق إلى طريق مضاد .

وتبدأ دعواهم بأن عهد انقسام العالم إلى اشتراكية ورأسمالية وإلى إمبريالية ووطنية قد انتهى وسقطت كل الفروق والحواجز ولم تعد هناك نظريات وإيديولوجيات ومعسكرات . . إن الرأسمال الأمريكى واليابانى يستثمر فى روسيا والصين .. والقروض والصفقات الروسية

والصينية تقدم لأوروبا وأمريكا . . والثورة الوحيدة فى العالم هى الثورة التكنولوجية وسوف تحل الآلة مشاكل الإنسان وتوفر كل حاجاته خارج كل النظم أو المذاهب .

ولابد لمصر أن تنسى كل المصطلحات السياسية القديمة مثل الاستعمار . الاشتراكية الرأسمالية . . وأن تنفتح على العالم الجديد . . تفتح كل الأبواب والنوافذ وتغير وتلائم نفسها لتغير العصر .

والانفتاح فى النظم الاشتراكية لم يعن تصفية النظام الاشتراكى والعودة إلى الرأسمالية ولكن على العكس تماماً الإفادة من خبرات وموارد العالم الرأسمالى فى تنمية وتدعيم النظام الاشتراكى .

والاستثمارات الأوروبية أو الأمريكية فى الصين أو روسيا لا تغير العلاقات أو القوانين ولا تقيم قطاعاً خاصاً ولا تهىء لها مناخاً دافئاً ، ولكنها تقدم بضمانة الدولة . وتدخل فى خطة التنمية والتعمير القائمة أى فى القطاع العام .

والقروض والصفقات الروسية أو الصينية مع أوروبا أو الولايات المتحدة لا تقيم قطاعاً عاماً اشتراكياً ولكن تقدم للدولة أو تتم مع مؤسسات وشركات فى إطار النظم القائمة .

والانفتاح .. امتداد اقتصادى لسياسة الوفاق ومتغيرات العصر . ويعنى تنظيم المنافسة والمعاملة بين الدول الأعظم . . بعد أن أصبح هذا محتوماً وبعد أن أصبح الصدام يعنى نهاية الجميع .

والانفتاح .. لدى الرأسمالية المصرية يعنى أن تستجلب رؤوس الأموال الأجنبية وأن تكون أساساً فى تدعيم الرأسمالية المحلية وفى تطويق الاشتراكية .

وإذا ما تدعمت القوة الاقتصادية وقامت الأحزاب السياسية وارتفعت المنابر الإعلامية والفكرية ، فان تبقى هناك عقبة أمام « العودة » كاملة .

وقد أفصح أحد أقطاب الدعوة وبصراحة عارية وقال فى مجلس الشعب « علينا أن نتحرى أسباب عدم إقبال رأس المال العربى والأجنبى فى ظل قوانين الاستثمار التى صدرت فى الحقبة الأخيرة وأول الأسباب هـــو التحول الاشتراكى وما صاحبه من قرارات تأميم المشروعات وإجراءات استثنائية استلزمها هذا التحول الاشتراكى يضاف إلى ما جرى من فرض الحراسة » .

وقال أيضاً :

« فى ألمانيا الغربية صرحوا لى : أنتم تريدون استثمارات كبيرة ولتحقيق ذلك لابد من تغيير النظام الاقتصادى بحيث يكون فى شكل غير الموجود عندكم وفى مشروعات تتخذ شكل شركات خاصة » .

وقال قطب آخر :

« إن المستثمرين فى الغرب يعتقدون أن مصر أهم ميدان للاستثمار فى المنطقة.. وهم على استعداد للمساهمة ولكن بشرط أن توفر لهم الضمانات » .

وقد تعجل دعاة الانفتاح « الخطى » وتصوروا أن كل شيء سوف يسير سهلا يسيراً .. أن الاشتراكية قد فشلت وفقدت الجماهير إيمانها بها والأزمة الاقتصادية متحكمة ويتطلع عامة الناس إلى رخاء يحققه الانفتاح ولا بد أن ننتهز الفرصة .. ليحسم الأمر .

وفوجئت مصر بانتفاض قوى الشعب رداً عليهم .. الفلاحون والعمال والشباب المثقفون هبوا دفاعاً عن التحالف وعن الاشتراكية .

إن الاشتراكية تملك القوى القادرة على الدفاع عنها وحمايتها ، ومهما تكن السلبيات والثغرات إلا أن الجماهير تثق أن مستقبلها فى اشتراكية أفضل وأن تقوم هى على تقويم وتصحيح خطواتها وليس فى ردة إلى نظام جوهره الاستغلال .

ولقد كان الهجوم على عبد الناصر والحملة عليه أساس برنامج العمل لتوفير المناخ الملائم .. « للانفتاح » .. لقد أغلق عبد الناصر كل النوافذ والأبواب . وسجن مصر فى بئر عميق ، ولا بد أن يفرج عنها .. أن تعود إلى الهواء النقى وهو فى رأيهم لا يهب إلا من الغرب .

ولهذا كان توفيق الحكيم أداة رئيسية فى جهاز الدعاية للرأسمالية ولعله تمنى أن تعود بأموالها وأحزابها ومنابرها .. ليستأنف تسليتها والترفيه عنها من برج جديد « ذهبى » هذه المرة .

الفصل التاسع

سقطت الأقنعة

وبعد .. ليس هناك تحية لعبد الناصر أفضل من الحملة العاتية التى تشن عليه ، وهى لا تزال محمومة لا تهدأ أو تبرد . ولقد قال أحد الزعماء يوماً .. إذا سكت أعداؤنا عن مهاجمتنا فلابد أن نقلق وأن نقلق وأن نراجع أنفسنا .. وهذه الحملة هى أفضل اعتراف بأن عبد الناصر لا زال حياً وقاهراً ويفرى قلوب أعدائه .

وليس هناك تحية لعبد الناصر أفضل عن أن يتصدر الحملة الكتاب الذين يقومون عليها وأن قلماً نظيفاً شريفاً واحداً لم يشترك فيها وكلهم كتاب ساقطون أو ما دون السقوط .

ولقد تحول كتبة الملك فاروق ، وكتاب المواخير والفضائح وكتاب الشعوذة وتسلية المراهقات ، تحولوا جميعاً إلى مؤرخين وإلى

كتاب ومعلقين لهم شهادة حول العصر .

ولو كلف أحد نفسه عناء مراجعة ما كتبوه من قبل منذ سنوات لأصابه الغثيان .

ولقد كان هناك كتاب عارضوا عبد الناصر أو خاصموه أو تحفظوا على الكثير من خطواته ومنهم من قضى سنين طويلة فى السجون ولكن أبت عليهم وطنيتهم كمصريين وشرفهم ككتاب أن يستدرجوا لهذا الدرك . بل وقف منهم من دافع فى موضوعية رفيعة لأن ما ينصب عليه السيل القذر هو مصر .

واليمين الرجعى مفلس فى كل العالم وهو أشد إفلاساً فى مصر . ولذا لا يتحدث باسمه أو يعبر عنه سوى هذه النفاية التعسة .

ولقد بدا غريباً أن يكون بينهم كتاب مثل توفيق الحكيم . . أو نجيب محفوظ ، ولكن هذا هو توفيق الحكيم .. كما قد لا يعرفه الكثيرون ، ويشترك معه نجيب محفوظ فى الكثير من الصفات .

بعد أن كتب نجيب محفوظ السجل الطويل من الروايات والقصص ، ولم يشطب له سطر واحد ، بعد أن حقق كل ما يمكن أن يحققه كاتب من مجد فى ظل الثورة اكتشف بعد وفاة عبد الناصر أن مصر لم تكن سوى سجن كبير رهيب ، وغرفة تعذيب واسعة

أقيمت فقط لسحق الجميع وأصلبهم وهم الشيوعيون وينصب نفسه حامياً ومدافعاً عن حرياتهم وحقوقهم التى أهدرت .

ولم يفكر نجيب محفوظ خلال العصر « الأسود » أن يحتج بأى مظهر من مظاهر الاحتجاج أن يرفض منصباً واحداً من المناصب الكبيرة والرفيعة التى تنقل بينها أو جائزة واحدة من الجوائز الكبيرة التى كانت ينعم بها عليه أو أن يستقيل من منصبه المريح المأمون فى الأهرام ، ولم يفكر أن يصدر « شهادته » التى يصدرها الآن ويذيعها فى مصر أو فى أى بلد عربى وكان أسهل شىء أن يفعل .

ولكن نجيب محفوظ عاش ولا زال أسير شرائح من طبقة واحدة من المجتمع المصرى الزاخر . وهو لم يخرج من ثلاثة أو أربعة أحياء من القاهرة والاسكندرية ولم ير سوى نفاية هذه الطبقة وأشلائها فى أكثر الأحايين . وليس هناك أحد آخر استحق أن يكون بطلا فى أى من قصصه .

وهو قد أحاط نفسه بموكب حواريين عدميين سكب فيهم نفسه واقتنع أنهم كل ما أنجبته مصر . ولم يكلف نفسه عناء أو مشقة أن يكتشف الصورة أو الحقيقة كاملة .

وأفضل الماركسيين يدافعون الآن عن إيجابيات الثورة ويرفضون أن يكونوا لعبة فى يد الرجعية التى تستخدم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم

ويبدو طريفاً أيضاً أن لا يمضى فى دفاعه ويصمت الآن لأن كل حقوقهم وحرياتهم مكفولة ! !

لقد اكتشف نجيب محفوظ بعد وفاة عبد الناصر أن كل ماحدث كان « جريمة » كان سحقاً لآدمية المناضلين وانتهاكاً لأعراض المناضلات . ولم يقل بالطبع أن هذا كان يتم بينما كان يقبع آمناً فى مكتبه أو وهو يتناول أرفع جوائز الدولة سعيداً ممتناً من يد «المسئول الأول » .

وسقوط الكتاب والمثقفين داء معروف ولكنه هنا أرخص الأنواع لقد أصبح الكاتبان الكبيران سلعة فى السوق الذى افتتحته رجعية موتورة وغمرته بالأموال شفاء لحقد على رجل زلزل الأرض تحت أقدامها ولا يعزى فى هذا إلا أنهما كاتبان اثنان . . لم ينضم أحد آخر إلى الموكب .

إن تاريخ مصر يعرف الكتاب الذين هاجموا عرابى وألحقوا به كل النقائص بعد الهزيمة ، والذين هاجموا سعد زغلول بعد وفاته لأنه كان ديكتاتوراً ، والذين هاجموا كل قادة ثورة مصر دائماً بنفس التهمة ودائماً بعد ذهابهم . وقليل من يذكرهم أو يقدرهم .

لقد رحل عبد الناصر عن عالمنا ، وذهب إلى رحاب الله . وأصبح الآن فى ذمة التاريخ وملكا له ، وسوف يكون هو الحكم النهائى

والأخير عليه ، وسوف يحتل أرفع مكان فيه . وقد عاش ومات فى هذا المكان وسيظل هناك بجلال البطولة والاستشهاد .

ويقف جمال عبد الناصر فى تاريخ وتراث مصر فى صف طويل مجيد ، كل قادة معركة مصر ، وقد حقق ما حلموا به وأرادوه . ثأر لهم من كل العجز والقصور والخيانة وفتح الطريق واسعاً لمسيرة شعب عريق .

ويعيش عبد الناصر فى قلوب الملايين .. الفلاحين الذين وزعت عليهم الأرض والعمال الذين أقيمت لهم المصانع والطلاب الذين فتحت لهم كل المدارس والمعاهد ، والجنود والضباط الذين شق لهم الطريق إلى النصر .

وسوف يعيش فى قلوب أجيال وأجيال من أبنائهم .

ولا يضير عبدالناصر أن يكتب ضده بضعة كتب صفراء حمقاء . إن ما يكتب عنه فى الجانب الآخر لا ينتهى .

ومنذ مات عبد الناصر صدرت عنه مكتبة واسعة تنصف تاريخه وسجله .. وصدر أربعة كتب فى بريطانيا . وكتابان فى الولايات المتحدة وكتاب فى فرنسا وكتابان فى الاتحاد السوفييتى .

ولن يضيره كتابان ضده ، خاصة وهما يعلنان سقوط كاتبين جازا على كل الناس لبعض الوقت .

القاهرة للثقافة العربية

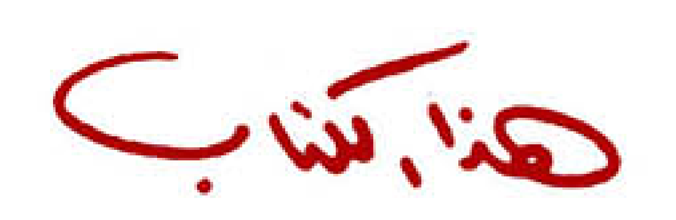
تصــــدر قريباً

دراسات فى القومية (الكتاب الأول) فجر اليقظة القومية	محمد عمارة
دراسات سياسية (الكتاب الأول) ماذا يجرى فى أثيوبيا	د. سامى منصور
من خلاصة الفكر الإنسانى	د. على أدهم
أنا سلطان . . قانون الوجود	د. يوسف ادريس
المسرح حياتى	نعمان عاشور
حقوق الإنسان فى مصر	كامل زهيرى
الصراع الحضارى	د. عبد العزيز الأهوانى
حرية الفكر	محمد العزب موسى
قضايا الثورة فى العالم الثالث	لطفى الخولى
مصر بين أحمد والمسيح	طارق البشرى
مصر والعالم المعاصر	محمــد عودة
موقف الكنيسة القبطية من إسرائيل والصهيونية	مجدى نصيف
نهضات ونكسات فى تاريخ المسلمين	عبد الغنى سعيد
دراسات فى التخطيط العربى	د. عبد الرازق حسن
دراسات فى اقتصاديات البترول العربى	د. ابراهيم سعد الدين

الناشر
القاهرة للثقافة العربية
٦٢ شارع الجمهورية — القاهرة
ت : ٩١٣٣٩٩ — س.ت ١٦٧٩٣٢

أودع بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ١٧٢٢ / ١٩٧٥

دار مأمون للطباعة
شارع خيرت (درب البندق) ت : ٢١٢١٨



كان خروج الطلائع الثورية فى الجيش ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بداية مرحلة جديدة من مراحل كفاح الشعب ، عبرت عن تلاحم الثورة السياسية بالثورة الاجتماعية .

إن ثورة يوليو وهى تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطورها لا تتجاهل المبادئ والقيم التى قامت عليها ، لتكون زاداً للمستقبل دون أن تحيد عن الطريق الذى رسمه الشعب بعرقه ودمه . ومن ٢٣ يوليو إلى ٦ أكتوبر إلى اليوم تمر ثورة كل مصر فى أشق الطرق ولكن تحقق الأهداف الرئيسية التى قامت من أجلها . وبالطبع تقع الأخطاء والانحرافات ... من لا يثور ولا يعمل هو فقط الذى لا يخطئ .

وإن كان البعض يحاول اليوم التركيز على بعض هذه الأخطاء والانحرافات الشخصية ليجهض انجازات ثورة يوليو العظيمة ، ويحاول أن ينال من الذين خرجوا يحملون أرواحهم ليلتها . والذين غيروا خريطة مصر كما لم تتغير فى كل تاريخها . إن هؤلاء — وهم فى أبراجهم العاجية — لا يعرفون ما يجرى فى أعماق الجماهير .

إن ثورة يوليو نقطة تحول ... ولكنها تظل استمراراً لثورات مصر ومقدمة لثورات أجيال قادمة ... وهى طليعة لثورة كل العرب . ودعامة لثورة التحرر الوطنى المعاصر .



[illegible]
٦٢ شارع الجمهورية — القاهرة
ت : ٩١٣٣٩٩

الثمن
